باسكال مرسييه

ليا

رواية

ترجمة: سحر ستالة

مراجعة: محمد الخالدي

عنوان النسخة الألمانيّة الأصليّة

Lea

Pascal Mercier

باسكال مرسييه

ليا

ترجمة: سحر ستالة

مراجعة: محمد الخالدي

مسكيلياني

الكاتب: باسكال مرسييه

عنوان الكتاب: ليا

ترجمة: سحر ستّالة

مراجعة: محمّد الخالدي

تحرير: رضا الحسني

خط الغلاف: الفنّان سمير بن قويعة

تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان

ر.د.م.ك: 3-028-24-9938-978

الطبعة العربية الأولى: 2019

© Carl Hanser Verlag München 2007

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

«نحن نُلقي بظِلاَلِ أحاسيسِنا على الآخرين وهم يفعلون الشيء ذاته.

أحيانًا نكاد نختنق تحت وطأتها، ولكن من دونها لن يكون هناك نورٌ يغمر حياتنا.»

هذا ما كُتب على شاهدة قبر باللّغة الأرمنيَّة القديمة

الفصل الأوّل

التقينا في بروفانس ذات صباح مشرقٍ وعاصفٍ. كنت جالسًا على رصيف مقهى سانت-ريمي، أتأمّل في الضوء الشّاحب جذوعَ أشجار الدَّلب العارية، بينما وقف النَّادل الذي جلب لي قهوتي عند عتبة الباب، وقد بدا في صِداره الأحمر الرثّ كأنّه قضى حياته يعمل نادلاً. كان من وقت إلى آخر يسحب نفَسًا من سيجارته، وحدث أن أشار بيده إلى فتاةٍ جلست منفرجة السّاقين، على مقعد فيسبا[1] هادرة. ذكَّرني هذا المشهد بمشهدٍ آخر سبق أن تابعته في شريط سينمائيّ يعود إلى سنوات الدراسة. عندما اختفت الفيسبا، ظلَّ الفتى محتفظًا بالابتسامة على وجهه بعضَ الوقت. تذكَّرتُ المصحَّة التي يتواصل فيها كلّ شيء من دوني منذ ثلاثة أسابيع. ومرّة أخرى ألقيت نظرة على النَّادل الذي أصبح وجهه الآن سوداويًّا ونظرته تائهة. حاولت أن أتخيَّلني وأنا أعيش حياته عوضًا عن حياتي. كيف سيكون الأمر يا تُرى؟

في بداية الأمر كان مارتن فان فلييت كُتلةً من شَعرٍ رماديّ قابعة في سيّارة بيجو حمراء تحمل لوحة معدنيّة مسجَّلة ببيرن. حاول أن

(1) نوع من الدرّاجات الناريّة.

يركنها في مكان يتّسع للمزيد من السيّارات، لكنّه وجد صعوبة في القيام بذلك. إنّ غياب الثقة في القيادة لا يليق بهذا الرجل صاحب القامة الطويلة، الرجل الذي نزل في تلك اللّحظة من السيّارة وشقّ طريقًا في حركة السّير بخطوة حازمة. وباتجاهه نحو المقهى، رمقتني عيناه الحزينتان بنظرة مرتابة. ثمّ دخل.

إنّه توم كورتيناي[1]، قلت في نفسي، توم كورتيناي في فيلم «وحدة عدّاء المسافات الطويلة». فهذا الرجل يذكّرني به مع أنّ ملامحهما مختلفة تمامًا. إنّهما مُتشابهان في المشية والنظرة، أي في الطريقة التي يبدوان بها في العالم وأمام نفسَيْهما. مدير الإعداديّة يكره توم كورتيناي، هذا الفتى الأخرق، السّاخر من كلّ شيء بمكرٍ. ولكنّه يحتاج إليه في إلحاق الهزيمة بالإعداديّة الأخرى وبعدّائها الجديد. وهكذا فإنّ باستطاعة توم كورتيناي أن يركض خلال ساعات الدّرس. إنّه يركض ومازال يركض بين أوراق الخريف وعدسةُ الكاميرا مُركّزة على ابتسامته السّعيدة. وجاء يوم المسابقة، ها هو توم كورتيناي يتجاوز الجميع وها هو منافسه يبدو كالمشلول. يصل كورتيناي إلى خطّ النهاية، إنّها لقطة مقرّبة من المدير ذي الوجه المنتفخ واللاّمع تحت تأثير الانتصار المتوقّع. بقيت مائة متر قبل الوصول إلى الهدف، خمسون أخرى، فيتباطأ كورتيناي على نحو مستفزّ، يكبح سرعته ويتوقّف. شعور بالريبة يغمر ملامح المدير الذي يدرك الآن ما وراء ذلك من قصد. الفتى يمسك به، إنّه انتقامه من كلّ المماحكات

(1) ممثل إنجليزيّ بطل فيلم وحدة عدّاء المسافات الطويلة.

التي تعرَّض لها. هاهو كورتيناي يجلس أرضًا ويحرّك ساقيه اللّتين ما تزالان قادرتين على الركض لمسافات أطول. تخطّى المنافسُ خطَّ الوصول فتقطَّب وجه كورتيناي تعبيرًا عن سخرية متغطرسة. كنت أرى باستمرارٍ تلك الابتسامة الهازئة خلال عروض ما بعد الظهيرة والمساء وفي آخر حصص يوم السبت.

بالإمكان تخيُّل ابتسامة هازئة كتلك على وجه هذا الرجل، قلت في نفسي عندما خرج فان فلييت وجلس إلى طاولة مجاورة لطاولتي. وضع بين شفتيه سيجارةً وأخفى شعلة الولاّعة خلف يده ليَقِيها من الريح. احتفظ بالدخان في رئتيه وقتًا طويلاً. وعندما نفثه نظر إليّ، فحيَّرتني الرقَّة المنبعثة من عينيه.

«الجوّ بارد، والريح عاصفة، قال وهو يغلق أزرار سترته..». قال ذلك باللكنة نفسها التي كنت سأجيبه بها.

«أجل، قلتُ بلهجة محليَّة، لم أتصوّر أنّني سأصادف هذا البرد هنا حتّى في شهر جانفي».

تغيَّرت ملامح وجهه فجأةً، فلقاءُ سويسريٍّ في هذه الأماكن لم يكن مفاجأةً سارّة بالنّسبة إليه. وأشعرني ذلك بالإحراج.

«آه، هذا يحدث غالبًا»، قال في تلك اللحظة باللهجة المحليّة هو أيضًا. وجال ببصره في الطريق مُضيفا: «لا أرى أيّ لوحة معدنيّة سويسريّة».

- «لقد استأجرتُ سيّارة وسأعود غدًا إلى بيرن على متن القطار».

جلب له النّادل كأسًا من نبيذ البرنود. ولفترة قصيرة لم يتفوَّه

أحدُنا بأيِّ كلمة. مرَّت من أمامنا الفيسبا الهادرة والفتاة جالسة على مقعدها الخلفيّ فأشار إليها النّادل بحركة من يده.

وضعتُ ثمن القهوة على الطاولة وتهيَّأتُ لمغادرة المكان.

أنا أيضًا أعود غدًا، قال فان فلييت، بإمكاننا أن نسافر معًا.

وهذا آخر شيء توقَّعته.

لقد لاحظ ذلك.

«هذه مجرَّد فكرة طارئة»، قال وقد عبرت وجهه ابتسامة حزينة على نحو غريب، ابتسامة اعتذار. في تلك اللحظة عاد الرجل الذي ركن سيّارته بشكل أخرق. وقبل أن أخلد إلى النوم فكَّرتُ أنّه كان باستطاعة توم كورتيناي أن يبتسم، هو أيضًا، بتلك الطريقة. وقد شاهدته يفعل ذلك حقًّا في حلمي: قرَّب شفتيه من شفتَي فتاة تراجعت إلى الوراء فزعة. «إنّها مجرّد فكرة، أنت تعلمين ذلك، مجرَّد فكرة ليس أكثر».

«أجل ولِمَ لا؟» قلت عندئذ.

نادى فان فلييت النادلَ وطلب كأسَيْ برنود. أشرت إليه ألاّ يفعل؛ فليس على الجرَّاح أن يشرب صباحًا حتّى إن لم يكن يعمل، غير أنّني شاركته الطاولة.

«فان فلييت، قال، مارتن فان فلييت».

صافحته قائلا: «هير زوغ، أدريان هير زوغ.

أنا هنا منذ بضعة أيّام، قال. وبعد صمتٍ بدا فيه وجهُه أكبرَ سنًّا وأكثر حزنًا أضاف: إحياءً لذكرى سابقة.

سيروي لي القصَّة عاجلاً أم آجلاً خلال رحلتنا. ستكون قصَّة حزينة، قصَّة موجعة تشعرني بأنّني لن أكون جديرا بسماعها. واضطررت إلى بذل مجهود أكبر مع نفسي.

تبعت بنظري ممرَّ أشجار الدلب المؤدِّي إلى خارج المدينة الصّغيرة، وتأمّلت ألوان بروفانس الشتويّةَ الكامدةَ والمعتدلةَ. لقد قدِمت إلى هنا في زيارة لابنتي التي تعمل في مصحّة أفينيون، ابنتي التي لم تعد في حاجة إليّ منذ زمن بعيد.

«هل انقطعتَ حقًّا عن العمل؟ أنت؟»، قالت. تمنّيت أنّ ليسلي رغبت في معرفة المزيد عن هذا الأمر ولكنّ ابنها عاد من المدرسة وبدت غاضبة من المربّية لأنّها تأخّرت عن موعدها ولأنّها هي نفسها تعمل تلك الليلة. ثمّ وجدنا نفسَيْنا في الشارع مثل شخصين تقابلا دون أن يلتقيا.

لاحظَت ليسلي شعوري بالخيبة فقالت: «سأعود لرؤيتك، عندك متَّسعٌ من الوقت الآن!».

عرفنا نحن الاثنان أنّها لن تفعل. فهي لم تزُر بيرن منذ سنوات عديدة، ثمّ إنّها تجهل كيف أعيش. وعلى أيّة حال فأنا وابنتي لا يعرف أحدُنا عن الآخر إلاّ النزر اليسير.

بعد أن استأجرتُ سيّارة في محطَّة أفينيون، سرتُ على غير منهج ولمدّة ثلاثة أيّام، قاطعًا طرقاتٍ صغيرةً، أقيم اللَّيل في فنادق ريفيَّة. وقضّيت نصف يوم على ضفاف خليج إيغ مورت وفطوري دومًا شطائر وقهوة. في المساء أقرأ كتابًا لسومرست موم على ضوء مصباح

شاحب. أحيانا، أجدني قادرًا على نسيان الفتى الذي برز فجأةً أمام سيّارتي قبل بضعة أيّام، لكنّ هذا الأمر لا يدوم أكثر من نصف يومٍ. وكنت أستيقظ ليلاً فزعًا بسبب قطرات عرقٍ في عينيّ تحت تأثير القلق وإحساسي بأنّني أوشك على الاختناق تحت قناعي المطهّر.

«قم بذلك عوضًا عنّي، بول»، قلت في ما مضى لرئيس القسم وأنا أناوله المبضع.

وعندما أقود السيّارة ببطء عبر القرى، وأنا سعيد بوجودي في قلب الريف، تتراءى لي أحيانا عينَا بول الصافيتان ونظرتُه المرتابة والذّاهلة من تحت القناع.

لم أكن أرغب في الاستماع إلى حكاية مارتن فان فلييت.

«ما تزال بي رغبة في القيام بجولة في كامارغ[1] اليوم باتجاه سانت-ماري-دي-لامير»، قال.

نظرتُ إليه. ولو طال تردّدي قليلاً لأصبحت نظرته جامدةً كنظرة توم كورتيناي عندما وقف في مواجهة المدير.

«سأرافقك»، قلت.

انطلقنا وقد هدأت الريح، وخلف الحاجب الزجاجيّ استشعرنا حرارة الجوّ. «كامارغ هي نهاية العالم». هذا ما ردّدته زوجتي سيسيل دومًا»، قال فان فلييت عندما غيّرنا الوجهة إلى الجنوب بعد أن تجاوزنا آرل.

---

(1) محميّة طبيعيّة تقع في فرنسا.

الفصل الثاني

في البداية لم يراودني أدنى شكّ في الأمر. فعندما ترك فان فلييت المقود يفلت منه للمرَّة الثانية وتجمّدت يداه على بعد بضعة سنتمترات فوقه، بدت لي تلك الحركة غريبة. هذه المرّة أيضًا، فعل ذلك فور اقتراب شاحنة منّا. ولكن لم أتخلَّص من شكوكي إلاّ في المرّة الثالثة: فتلك الحركة عبارة عن مسافة أمان. وكان يجب أن يمنع يديه من القيام بحركة مشؤومة.

مرّ بعض الوقت دون أن تعترضنا أيّ شاحنة. على اليمين وعلى الشّمال حقول أرز ومساحات مائيَّة تعكس الغيوم. كان المشهد المنبسط يبعث شعورًا بامتداد مريح يذكِّرني بفترة إقامتي في أمريكا لتعلُّم الجراحة على أيدي أمهر الأطبّاء الجرَّاحين. لقد منحني هؤلاء الثقة في نفسي وعلّموني كيف أسيطر على الخوف الذي بات يهدّد باجتياحي لحظةَ قيامي بأوّل حزّة في جِلدٍ سليم. وعند عودتي إلى سويسرا، وأنا في نهاية الثلاثينيّات من عمري، أجريت عمليّات عديدة جريئة وأصبحت أمثّل بالنّسبة إلى الآخرين جوهرَ الهدوء والثقة، والرجلَ الذي لا تثور أعصابه مطلقًا. وكان من غير المعقول أن يأتي يوم لا أجرؤ فيه على الوثوق بيديّ وهما تمسكان بالمبضع.

لمحنا عن بعد شاحنة تقترب منّا فكبح فان فلييت الفراملَ فجأةً وحادَ عن الطريق ليسير على اليابسة حيث يلوح فندق وأرض مسوّرة ترتع داخلها أحصنة بيض. وعلى باب المدخل كُتب: **نزهة على ظهور الخيل.**

ظلَّ جالسًا برهةً وعيناه مغمضتان، أجفانه ترتجف وتُرصِّع جبينَه حبّاتٌ من العرق. ثمّ نزل من السيّارة دون أن يقول كلمة واحدة واتجه ببطء نحو السياج. فتقدّمتُ نحوه وانتظرت.

«هل يزعجك أن تقود السيّارة عوضًا عنّي؟ سألني بصوت أجشّ. أنا... أشعر بأنّني لست على ما يرام».

في حانة الفندق احتسى كأسين من شراب البرنود. «أنا الآن أفضل حالاً»، قال ذلك وهو يُجهد نفسه في أن يبدو شجاعًا، ولكنّ تلك الشّجاعة كانت مخادعة.

عوض أن يعود إلى السيّارة عاد إلى الأرض المسيّجة. توقّف أحد الأحصنة أمام السياج فداعب فان فلييت رأسه بيدٍ مرتعشة.

«كانت ليَا تعشق الحيوانات، وقد شعرت هي بحبّها لها. فهي ببساطة لا تخشاها. وأشدّ الكلاب شراسة يغدو وديعًا عندما تأتي. «أبي، انظر إنّها تحبّني»! هكذا تهتف كما لو أنّها في حاجة إلى عاطفة الحيوانات لأنّها تفتقد أيّ عاطفة أخرى. وتتوجّه بهذا الخطاب إليّ «أنا»! إليّ أنا حقًّا! فتداعب الحيوانات وتسمح لها بأن تلعق يديها. وكم كان خوفي كبيرًا وأنا أشاهد ذلك! يديها الأثيرتين، يديها الأثيرتَيْن جدًّا! وكم توقّفتُ هنا وتخيّلتها تداعب الأحصنة عندما

بدأتُ لاحقًا أتردَّد على سانت-ريمي خفيةً. كان هذا سيشعرها بالسعادة. أجل بالسعادة، أنا واثق من ذلك. ولكن لم يكن لديّ الإذن باصطحابها إلى هنا. فالمغاربيّ، ذاك المغاربيّ اللعين يمنع ذلك. إنّه ببساطة يمنعني من ذلك».

لطالما شعرتُ بالخوف من هذه القصّة، وأصبحتُ أخشاها أكثر الآن، وعلى الرغم من ذلك لم أكن واثقا من عدم رغبتي في سماعها. فَيدُ فان فلييت على رأس الحصان هي التي غيّرت الأشياء. تساءلتُ عمّا إذا كان ينبغي عليّ طرح أسئلة. ولكنّني كنت سأرتكب بذلك خطأً. الدور الذي يسند إليّ في كلّ مرّة هو دور المستمع، لا شيء أكثر من مستمع يشقُّ في صمت طريقًا في عالم أفكاره.

ناولني مفاتيح السيّارة دون أن يتفوّه بكلمة واحدة، ويداه ما تزالان ترتجفان.

قدتُ السيّارة ببطء، وكلّما اعترضتْ طريقَنا شاحنةٌ حوّل فان فلييت نظره إلى اليمين. وفور وصولنا إلى مدخل المدينة قادني نحو الشاطئ. ركنّا السيّارة خلف التلّة، صعدنا المنحدر، ونزلنا على الرّمال. هناك كانت الريح تولول والأمواج البرّاقة تتكسّر. وللحظة تذكّرت كاب كود وسوزان، صديقتي في تلك الفترة.

سرنا جنبا إلى جنب ولكن متباعدَين الواحد عن الآخر. لم أعرف ما الذي جاء به إلى هنا، أو بالأحرى ما إذا كانت ليَا، تلك التي تحدّث عنها في الماضي، لم تعد على قيد الحياة الآن. أراد أن يسير مرّة أخرى على طول الشاطئ الذي اضطرَّ إلى أن يجوبه بمفرده، عندما

منعه المغاربيّ من رؤية ابنته. الآن اتجه نحو الماء، وللحظة اعتقدت أنّه سيدخل فيه مباشرة بخطوة حازمة، كرجل لن يوقفه شيء، وهو يمضي بعيدًا في عرض البحر إلى أن تغمره الأمواج.

توقّف فوق الرِّمال المبلَّلة وسحب قارورة مفلطحة من جيب سترته. فكَّ غطاءها ورمقني بنظرة. تردَّد قليلاً، مال برأسه إلى الخلف ثمّ رفع ذراعَه وسكب الشّراب في حنجرته. عندئذ أخرجتُ آلة التصوير والتقطتُ له بعض الصور السلبيَّة أظْهَرَتْه في شكل أطيافٍ خياليّة. إحداها ماثلة أمامي هنا، مستندة إلى اللمبة. كم أحبّ هذه الصورة! رجل تحت أنظار رجل آخر رفض للتوّ احتساء البرنود، يشرب كما لو أنّ الأمر تحدٍّ. *أنا لا أهتمّ*. هذا ما أوحى به موقف هذا الرجل الضخم الثقيل، ذي الشعر المشعَّث مثل توم كورتيناي الذي اعتُقل لأنّه رفض الاعتذار.

سار فان فلييت بعضَ الوقت على الرِّمال المبلَّلة. وكان يتوقّف من وقت إلى آخر، يتوقَّف ويقلب رأسه إلى الخلف كما في السابق عندما احتسى الشراب وعرَّض وجهه للشمس. إنّه رجل صاحب بشرة داكنة، في نهاية الخمسينات من عمره، تحت عينيه آثارُ بقع من تأثير الكحول غير أنّه يبدو كرجل في كامل صحّته، قويًا بل ورياضيًا أيضًا. ومن وراء تلك السحنة، يظهر حزن ويأس بإمكانه أن يتحوَّل في أيّ لحظة إلى غضب وكراهيّة، كراهيّة موجّهة أيضًا ضدّ نفسه، رجل يفقد الثقة في يديه عندما يلمح شاحنة كبيرة تقترب بواجهتها الضخمة، مُحدِثة صوتًا شبيها بهزيم الرعد.

ثمّ تبعني ببطء وتسمّر أمامي. وقد أثبتت الطريقةُ التي تدفَّقت بها كلماته مدى احتدام الذكرى في داخله وهو على حافَّة الماء.

«اسمه ماريدجان المغاربيّ. الدكتور ماريدجان». «الأمر يتعلّق الآن بابنتك قبل كلّ شيء. سوف تتعوّد على ذلك». تصوَّر، هذا ما تجرّأ ذلك الرجل على قوله لي أنا. «الأمر يتعلّق بابنتك». كما لو أنّ هذا الأمر ليس وحده محورَ حياتي طيلة ستّ وعشرين سنة. هذه الكلمات لاحقتني مثل صدًى يرفض أن ينتهي. نطقها في نهاية محادثتنا الأولى قبل أن يرافقني إلى باب العيادة. لقد أنصتُّ وهذا هو المهمّ. ومن وقت إلى آخر تجري يده القاتمة الممسكة بالقلم فوق الورق. في السَّقْف دارت شفراتُ المروحة العملاقةُ الشّاحبةُ ببطء. وخلال توقّفنا عن المحادثة كنت أسمع دويَّ المحرّك الخافتَ. بعد حكايتي الطويلة، أحسست بأنّني خالٍ من كلّ شيء، وعندما يلقي عليّ من وراء أنصاف زجاج نظّارته واحدةً من نظراته السوداء، نظرات الرجل العربيّ فيه، يخالجني إحساسٌ بأنّني مذنب يمثل أمام القاضي.

«لن تقيم بسانت–ريمي»، قال لي على عتبة الباب. هذه الجملة حطَّمتني. هذه الكلمات تعني أنّ كلّ الإخلاص لما اعتبرتُه سعادةَ لِيَا ليس إلاّ فيضا من الطموح الأبويّ، محاولةً يائسة لجعلها تتعلَّق بي، كما لو أنّ عليَّ حمايةَ ابنتي منّي أنا أوّلاً. والحال أنّ أمنيتي الوحيدة للِيَا والرغبة الوحيدة التي تمحو كلّ ما تبقّى هي: أن يختفي الحزن واليأس اللذان سبَّبهما موت سيسيل إلى الأبد. وهذه الرغبة بطبيعة الحال تخصُّني أنا أيضًا. *بطبيعة الحال*. ولكن من يستطيع لومي على ذلك؟ من؟

امتلأت عيناه بالدموع، ووددت لو أداعب شعره الذي شعّثته الريح.

كيف حصل ذلك إذن؟ سألته لحظةَ جلوسنا عل الرمال حذوَ التلّة.

الفصل الثالث

«أستطيع تحديد اليوم، وحتّى الزّمن التقريبيّ للّحظة التي بدأ فيها كلّ شيء. حدث ذلك يوم الثلاثاء، قبل ثماني عشرة سنة، اليوم الوحيد في الأسبوع الذي تدرس فيه لِيَا بعد الظهر أيضًا، يوم من أيّام شهر ماي، سماؤه شديدة الزرقة، وتزيّن أرضَه أشجار عديدة متناثرة هنا وهناك وأحراش مزهرة. خرجت لِيَا من المدرسة برفقة كارولين، صديقتها منذ أيّام الدراسة الأولى. كانت رؤية لِيَا وهي في غاية الحزن والجمود إلى جانب كارولين التي تقفز وهي تنزل درجات المدخل القليلة المؤدّية إلى ساحة المدرسة تُشعرُني بالألم. وكانت لها الخطوات المترنّحة ذاتها قبل سنة من الآن عندما غادرنا معًا المصحّةَ حيث هُزمت سيسيل في صراعها ضدّ اللوكيميا. في ذلك اليوم، وهي تودّع وجه والدتها الصامت لم تبكِ لِيَا. لقد استنفدت كلّ دموعها. وخلال الأسابيع الأخيرة، قلَّ حديثها وبدت لي حركاتها يوما بعد يوم أكثر بُطأً ورُعونة. لم يكن في وسع أيّ شيء أن يزيل ذلك الفتور: لا شيء ممّا عشته معها، ولا واحدة من الهدايا التي اقتنيتها لها، معتقدًا اكتشاف رغبة مّا على وجهها. ولا واحدة من مداعباتي المتشنّجة التي انتزعْتُها من جمودي، ولا حتّى بداية سنواتها الأولى بالمدرسة مع كلّ

انطباعاتها الجديدة، وأكثر من ذلك، ولا واحدة من كلّ محاولات كارولين لإضحاكها منذ اليوم الأوّل.

«وداعًا»، قالت كارولين لِليَا أمام البوَّابة وهي تطوّق كتفيها بذراعيها. وبدت تلك حركة غير اعتياديّة بالنسبة إلى طفلة في سنّ الثامنة، فكأنّ كارولين بمثابة الأخت الكبرى، الفتاة الناضجة، التي تمنح الحماية والعزاء للصغرى.

ظلت لِيَا محدِّقة في الأرض دون أن تجيب. أمسكت بيدي في صمت وسارت إلى جانبي كما لو أنّها تتخبّط في الرَّصاص.

مررنا من أمام فندق شوايزرهوف واقتربنا من السلّم المتحرِّك الذي ينزل حتّى بهو المحطّة عندما توقّفت لِيَا وسط حشد من الناس. كان تفكيري آنذاك مشغولاً بالاجتماع الصعب الذي عليَّ إدارته عمّا قريب. وسحبتها من يدها بلهفة، فأفلتت منّي بحركة مباغتة وظلّت تحدّق في الأرض بضعَ دقائق أخرى، ثمّ أخذت تركض باتجاه السلَّم المتحرّك، ومازلتُ أراها تركض إلى اليوم. كانت شبيهة بمتزلّج عبر الحشد المستعجل. ولأكثر من مرّة علقت الحقيبة الواسعة التي حملتها على ظهرها الصغير في ملابس الآخرين. وعندما لحِقتُ بها صارت هي في أعلى الدرج المتحرّك وقد مدَّت عنقها دون أن تأبه بالناس الذين قطعت الطريق أمامهم.

«أنصِتْ!» قالت عندما وقفتُ قربها. قالت ذلك بلكنة سيسيل التي طالما عبَّرت عن هذا الطلب بالفرنسيّة، مع أنّنا في الغالب نتحدّث الألمانيّة. بالنسبة إلى شخص مثلي لم تُخلق حنجرته لنطق نبرات اللغة

الفرنسيّة الواضحة، كانت لهذه الكلمة الحادَّة نبرةٌ حاسمة واستبداديَّة تشعرني بالخجل حتّى وإن تعلَّقت بشيء تافه. كبحت جماح لهفتي، وبرفقٍ أرهفتُ السَّمْع لما يحدث في الأسفل، في ردهة المحطّة. في تلك اللحظة سمعت أنا أيضًا الصوت الذي أوقف ليَا: إنّه رجعُ كمان. وبشيء من التردّد، تركتها تقودني عبر السلَّم المتحرّك وها قد نزلنا نحو ردهة المحطّة رغمًا عنّي.

كم مرّة تساءلتُ ماذا سيكون مصير ابنتي لو أنّنا لم نتصرّف على ذلك النحو! لو أنّ الصدفة صمَّت آذاننا عن سماع تلك الأنغام؟ لو أنّني استسلمت للهفتي وللضغط الذي شعرتُ به بسبب قرب موعد الاجتماع، ولو أنّني سحبت ليَا معي. هل كان السحر الذي سلَّطه عليها رجع الكمان سينتصر في مناسبة أخرى وفي شكل آخر؟ أيّ حدث آخر يستطيع إنقاذها من الحزن الذي يكبِّلها؟ هل كانت موهبتها ستظهر مهما اختلفت الظروف؟ أم أنّها ستغدو تلميذة عاديّة تحلم بمزاولة عمل عاديّ؟ وماذا عنّي أنا؟ أين سأكون اليوم لو لم أجدني أمام الضرورة القصوى التي تفرضها موهبة ليَا، وهي موهبة أكبر منّي؟

في تلك الظهيرة، عندما وضعنا أقدامنا على السلّم المتحرّك، كنت عالم التوجيه الحيويّ الذي يبلغ من العمر أربعين سنة، وأصغرَ عضو في الجامعة، نجم هذا الفرع الجديد كما يقول الآخرون. لكنّ احتضار سيسيل ووفاتها السّابقة لأوانها قلبًا حياتي رأسًا على عقب، أكثر ممّا توقّعتُ. غير أنّي بدوتُ في الظاهر كأنّني تجاوزت هذه الصّدمة ونجحت، بفضل تنظيم دقيق جدًّا يتمثّل في التوفيق بين

عملي ودوري كأبٍ هو المسؤول الوحيد عن طفلته منذ ذلك الوقت. أثناء اللّيل، وأنا أجلس أمام حاسوبي، كنت أسمع لِيَا في الغرفة المجاورة وهي تتقلَّب في سريرها. لم يحصل إطلاقًا أن ذهبت للنوم قبل أن تهجع هي. أمّا الإرهاق الذي تزايد كما لو أنّني واقع تحت تأثير سُمّ خبيث فأخذتُ أقاومه بشرب القهوة وأوشكت أحيانًا على العودة إلى التدخين. لكن من الضروري ألاّ تكبر لِيَا مع أبٍ مدمن في منزل جدرانه مسودَّة من الدخان».

سحب فان فلييت سجائر من سترته وأشعل واحدة منها، وكما فعل هذا الصباح في المقهى، خبّأ شعلتَها عن الريح بيده الضخمة. الآن أرى عن قرب أثر النيكوتين على أصابعه.

«عمومًا، كنت ممسكا بزمام الأمور على ما يبدو، ووحدها الهالات السوداء تحت عينيَّ أصبحت أكثر اتساعًا وسوادًا. أعتقد أنّه كان يمكن لكلّ شيء أن يسير على ما يرام لو لم نصعد معًا ذلك السلّم المتحرّك. ولكنّ ليَا وضعت قدمها على المعدن المنزلق، مع أنّها تخاف كثيرًا صعود السلالم المتحرّكة. لقد ورثَتْ هذا الخوف عن سيسيل وأشياء عديدة أخرى انتقلت من هذه الأمّ المعبودة إليها كما لو أنّ ذلك حصل بفعل تأثير متبادل. في تلك اللحظة أصبحت الموسيقى أقوى من الخوف. وهكذا قامت لِيَا بالخطوة الأولى، وصار تركُها بمفردها مستحيلاً عليّ. داعبتُ شعرها لأهدِّئ من روعها حتّى وصلنا إلى أسفل، وغُصنا في حشد الناس الذين حبسوا أنفاسهم وهم يُصغون إلى عازفة الكمان، مفتونين بعزفها».

رمى فان فلييت سيجارته على الرمال وخبّأ وجهَه بين يديه،

متخيّلاً نفسه في المحطّة، إلى جانب ابنته الصغيرة. أصابني هذا المشهد بطعنة في القلب. وتذكّرت أفينيون ثانية، عند زيارتي لليسلي.

ليسلي لم تكن قطّ بالنسبة إليّ مثلما كانت ليا بالنسبة إلى فان فلييت. ظلّت علاقتنا أكثر حياديّة. لم تخلُ من الحبّ لكنّها أكثر تحفُّظًا. هل يعود ذلك إلى عملي المتواصل أم إلى قضائي أيّامًا بأكملها تقريبًا في المصحّة ببوسطن؟

هكذا تنظر جوانا إلى الأمور: «من موقع الأب، ضيَّعتَ كلّ شيء».

لم تكن إجازاتنا التي قضّيناها معًا إجازاتٍ حقيقيّة ولو لمرّة واحدة. فعندما أسافر يكون ذلك للمشاركة في مؤتمرات نتعرَّف من خلالها على تقنيات جراحيَّة جديدة. كانت ليسلي تبلغ من العمر تسع سنوات عندما عدنا إلى سويسرا. وبدت لغتها خليطًا من أمريكيّة جوانا وعاميَّتي البيرنيَّة[1]. وقد دفعها توتُّر العلاقة بين أبويها إلى الانطواء والرغبة في التعرّف على أصدقاء جدد لا نعرفهم نحن. وعندما عادت جوانا إلى أمريكا نهائيًا، دخلت ليسلي مدرسة داخليّة، مدرسة داخليّة جيّدة، لكنّها تبقى مدرسة داخليّة. أعتقد أنّها لم تكن تعيسة. وحين ألتقي بها يكون ذلك في الغالب لقاءً بين شخصين عاديّين وليس بين أبٍ وابنته.

حكاية فان فلييت ستكون حكاية شقاء، وهذا أمرٌ واضح. ولكنّ هذا الشقاء وُلد في ما مضى من رحم سعادة لم أعرفها قطّ على اختلاف الدوافع وراءها.

---

(1) نسبة إلى مدينة بيرن بسويسرا.

«تلك المرأة ليست فارعة الطول، قال وقد قطع سلسلة أفكاري. لكنّها وقفت فوق مسطبة صغيرة وهيمنت على الحشد بكامل نصفها الأعلى. يا إلهي! باستطاعتنا أن نغرم بها على الفور، تمامًا كما نقع في حبّ تمثال مهيب، ولكن بسهولة أكبر وقوّة أشدّ. أوّل شيء وقع عليه نظري هو تجعُّدات شعر أسود لامعٍ يبدو، مع كلّ حركة من الرأس كأنّه يتدفّق من جديد تحت قبّعة بألوانٍ زاهية، وينسدل على كتفَي سترتها الطويلة. ويا لها من سترة عجيبة! يختلط فيها اللون الزهريّ الباهت بالأصفر الشاحب، ألوان شبيهة بألوان قصر أثريّ. فوقها تنفصل وجوه تنانين يتلوّى بعضها فوق بعض، وخيوط ذهب حمراء وشظايا بلّور أحمر لامعة مثل قطع ياقوت ثمينة، كأنّها عفريت من الجنّ. على تلك السُّترة التي تصل إلى ركبتَي المرأة يتجلّى شرقٌ بأكمله مليء بالأسرار، سترة ارتدتها مفتوحةً وتكشف عن سروال بُنيٍّ فاتح صُمّم على الطراز القديم، ضيّق على مستوى الركبتين، يشدُّه على الخصر وشاحٌ أمغر ملفوفٌ على شكل حزام وتصله بالأسفل جوارب من الحرير الأبيض وحذاء أسود لامع. فوق الوشاح قميص من الساتان الأبيض تزيّنه تجعُّدات ويغطّي ياقتَه عنقُ السترة الطويل. وعلى رفلٍ من هذا القماش الناعم والأبيض استراح ذقنها الذي يضغط بشدّة على الكمان... وتوّجت القبّعة كلّ شيء، القبّعة ذات القرون الثلاثة التي تبدو، مع ذلك، أكثر ثقلاً بحوافّها الموشّاة بالمخمل الأسود. تخيّلنا أنا وليَا معًا رسوماتٍ عديدةً لها دون أن نتمكّن مطلقًا من الاتّفاق على بعض التفاصيل». ابتلع فان فليبت ريقه، ثمّ أضاف: «حدث ذلك في المطبخ، على الطاولة الكبيرة التي جلبتها سيسيل عند زواجنا».

وقف دون أن يضيف شيئًا آخر وسار نحو الماء. بلَّلت موجةٌ حذاءه ولم يبدُ عليه أنّه انتبه إلى الأمر.

«ادِّعاء أنّ تموّجات شعر عازفة الكمان العجيبة تلك هي التي فتنتني في البداية ليس صحيحًا تمامًا، تابع قوله عندما عاد للجلوس إلى جانبي والطَّحالب البحريَّة عالقة بحذائه، بل أكثر من ذلك، إنّهما العينان أو بالأحرى ليست العينان وإنّما الذئب الأبيض الذي لم يكن يُلحظ تقريبًا على الوجه المعفَّر بالأبيض. كلّما أطلت المكوث هناك زاد افتتاني بذلك الوجه أكثر. في البداية استرعى انتباهي السكونُ وحقيقةُ القناع الخالصة لأنّهما كانا في تضادٍّ صارخ مع تلك الموسيقى الطافحة بالحياة. كيف لقناع صلب أن يولِّد إحساسًا مماثلاً؟ واستطعت شيئًا فشيئًا أن أكشف عن العينين خلف الشُّقوق الصغيرة، إلى أن لمحتهما. كانتا في أغلب الوقت مغمضتين، ممّا زاد الوجهَ المعفّر رسوخًا وجمودًا. حينئذ بدت الأنغام كأنّها آتية من العالم الآخر، مستغلَّة ذلك الجسد الأعمى كما لو أنّه وسيط روحانيّ، وبالخصوص في المقاطع البطيئة والغنائيّة عندما كانت الآلة لا تكاد تتحرّك في الفضاء. كأنّ الله يخاطب هؤلاء المسافرين المنصتين إلى عزفها وقد حبسوا أنفاسهم بصوت خالٍ من الكلمات. وبعد أن وضعوا إلى جانبهم حقائبَ الظهر وأمتعةً أخرى أخذوا يتلقَّون في داخلهم الموسيقى المهيبة كأنّها وحي، تلك الموسيقى التي بدا معها صخبُ المحطَّة وهميًّا. وكان للأنغام المتصاعدة من الكمان بلمعانه الداكن واقعُها الخاصّ الذي لن يتزعزع ولو بانفجار، وهذه فكرة خطرت ببالي فجأةً.

ومن وقت إلى آخر تفتح المرأة عينيها، فأتذكّر مشاهد السطو على البنوك التي نتابعها في الأفلام. وفي كلّ مرّة تولّد هذه المشاهد في داخلي رغبة حارقة في رؤية الوجه الذي يتلاءم مع هاتين العينين. خلال تلك الفترة عمدتُ في مخيّلتي إلى نزع القناع عن وجه عازفة الكمان وخلقتُ لها نظرات أخرى ووجوهًا بأكملها، متسائلاً كيف سيكون حال من يجلس أمام عينين كهاتين العينين ووجه كهذا الوجه، على المائدة أو خلال محادثة. ولم أعرف أنّ تلك الأميرة العجيبة خرساء إلاّ عندما قرأت إحدى الصحف. أخفيت هذا الأمر عن ليَا. ولم تعرف هي أيضًا إلاّ من خلال خبرٍ مفادُه أنّ المرأة لبست قناعًا لأنّ وجهها شوّهته الحرائق. أطلعتها فقط على اسمها الفنّي: **لويولا دي كولون**. بعد ذلك اضطررت إلى أن أحدّثها بكلّ شيء عن موضوع إينياس دي لويولا وكريستوف كولومبوس. وعلى الفور نسيتْ شُروحي. وحدَه الاسمُ أثار انتباهها. لاحقًا اقتنيت لها نسخة من الأعمال الكاملة للقدّيس إغناطيوس ووضعتُ الكتاب بطريقة تسمح لها برؤية الاسم من سريرها. لكنّها لم تقرأه البتّة.

كانت لويولا -وهكذا سمّيناها لاحقًا كما لو أنّها صديقة قديمة- تعزف مقطوعة لباخ على *سلّم مي كبير*. في تلك اللحظة لم أعرف هذا الأمر، وحتّى ذلك الحين، لم أحمل الموسيقى قطّ على محمل الجدّ. اصطحبتني سيسيل في السابق إلى بضع حفلات لكنّني كنت الرمز الساخر للمحترف القصير النظر، الأخرق بامتياز. ابنتي الصغيرة هي أوّل من أدخلني عالم الموسيقى. وبفضل ذهني المنهجيّ جدًّا والأكثر تنظيمًا من رقّاص الإيقاع، وذهني كعالم أيضًا، حفظتُ كلّ

شيء بخصوص هذا الموضوع دون أن أعرف أكُنتُ أحبّ الموسيقى التي تعزفها لأنّني مستمتع بها أم لأنّها تبدو لي فقط طرفًا في إثارة سعادة لِيَا. وأنا أحفظ الآن *مقطوعة* باخ التي كان عليها أن تعزفها لاحقًا بكثير من الحماس والعمق بشكلٍ لم يفعله شخص آخر من قبل -فقط من أجلي أنا، وأنا واثق من ذلك- أحفظها عن ظهر قلب كأنّني مَن كتبَها. ليتني أستطيع محوَها من ذاكرتي!

لم أعد أذكر أَجَيّدٌ كمان لويو لا أم سيّئ. ففي ذلك الوقت عجزتُ عن إبداء رأيي في هذا الموضوع. ولم أصبح متخصّصا في جمهوريّة الكمان إلاّ بعد رحلتي المجنونة إلى كريمونا عقب ذلك بسنوات عديدة. ولكن في ذكراي التي سرعان ما كساها الخيال وغيّرها أصبح لهذه الآلة المشؤومة رجعٌ دافئ ومكتنز يملؤك انتشاء. فذاك النَّغم الذي يليق بطلّة المرأة المقنَّعة وعينيها، تمامًا كما أراهما في الحلم، أنساني لِيَا لحظةً، مع أنّها ظلّت خلال تلك الفترة ممسكة بيدي كما هو الحال دومًا عندما يحيط بها أناس كثيرون. فجأة شعرت بيدها تنفلت من يدي واندهشت لاكتشافي كم كانت رطبة.

يداها النديّتان، آهٍ من يديها: إلى أيّ مدى كان يجب على ذلك أن يحدّد المستقبل وأن يجعله كئيبًا في بعض الأحيان!

لم أكن أملك بعدُ أيّ فكرة عن كلّ هذا عندما لمحت عينيها اللتين اعتراهما لمعانٌ مدهش لحظةَ وجّهت نظري إليها. تركَت لِيَا رأسها مائلاً حتّى تتمكّن من رؤية عازفة الكمان بوضوح عبر رواق ضيّق فُتح وسط الحشد. شُدّت أوتار رقبتها إلى آخرها وأصبح كلّ موضع فيها مبصرًا وعيناها تلمعان.

خلال الفترة الطويلة التي زرنا فيها سيسيل بالمستشفى انطفأت هاتان العينان وفقدنا ذلك البريق الذي طالما أحببناه. وعندما نزل التابوت إلى الأرض ظلَّت لِيَا صامتة، عيناها محدِّقتان في الأرض وكتفاها منحنيتان. في تلك اللحظة، عندما شعرتُ بحرقة في عيني وبنَفَسي يتوقّف، لم أستطع الجزمَ بما إذا كان ذلك بسبب سيسيل أم بسبب ذاك الحزن الرهيب الأخرس أو الشعور بالإهمال الذي ألمحه في عينَي لِيَا الشّاحبتيْن اللّتيْن عاد إليهما بريقُهما بعد مرور سنة.

أدمنت تأمّل ذلك البريق في ارتيابٍ. لكنّ اللمعان الجديد جليٌّ حقًّا، حقيقيٌّ جدًّا ويوحي بأنّ أبواب السماء فُتحت فجأةً لابنتي. جسدها، جسدها بأكمله بات مشدودًا يكاد ينكسر، وعلى قبضتيها المضمومتين برزت في الأطراف نتوءات صغيرة بيضاء ومنفصلة عن سائر الجلد. لكأنّها مضطرّة إلى بذل كلّ ما في وسعها لتتمكّن من تحمُّل قوّة الموسيقى الآسرة. وأنا أفكّر في ذلك، بدا لي أنّها تهيّأت بهذا التوتّر لحياتها الجديدة التي بدأت دون قصد في تلك الدقيقة بالذات، كعدَّاء استجمع كامل قوّته قبل انطلاق السباق، قبل سباق العمر.

وبعد ذلك فتر هذا التوتّر فجأةً وانهار كتفاها وتدلَّت ذراعاها بقربها، كأنّها توابع منسيَّة فاقدة للإحساس. ظننت برهةً أنّ ذلك الهبوط المفاجئ يعبّر عن اللامبالاة، وخشيت أنّها نجت من السِّحْر لتقع من جديد في الملل البائس الذي ألمّ بها السَّنة الماضية. ومع ذلك قرأت في عينيها تعبيرًا لا يتوافق مع هذه الفرضيَّة وإنّها يدلّ على العكس تمامًا. لم يفتر لمعانُ عينيها، غير أنّ درجةً لونيّةً جديدةً امتزجت به وأفزعتني دون أن أعرف السّبب من ورائها: شيء مّا

سرعان ما اعتمل في نفسها، سيسُود كلّ حياتها. وشعرت بمزيج من القلق والسعادة وبأنّ حياتي ستسقط هي أيضًا في الدائرة السحريّة لتلك القبضة العجيبة، ولن تعود أبدًا كما كانت من قبل.

وإذا سبق لنسق نفَسِ لِيَا الذي يذكّر بالحمّى أن يتسارع فجأةً في تلك اللحظة القاسية -وهو أمرٌ بإمكانه أيضًا أن يهيّج البقع الحمراء التي نلمحها على وجنتيها- فإنّه انقطع الآن تمامًا. واعتلى وجهَها ذا الملامح المنهارة شحوبٌ رُخاميّ وجنائزيّ. أمّا أجفانها التي ارتعشت بشكل عصبيّ، في تقطُّع غير منتظم، فبَدَت في تلك اللحظة كأنّها مشلولة. وفي الوقت نفسه، كان لهذه الأجفان في سكونها هدفٌ كامن. لكأنّ لِيَا ترفض السّماح لهما بأن يحجبا عنها رؤية العازفة المقدَّسة، وإن لم تستغرق الانقطاعات غير بضعة أجزاء بالمائة من الثانية. وهو ما يعني أنّها لن تشعر بها.

في ضوء ما حصل لاحقًا، وما أعلمه اليوم سأقول: في ردهة المحطّة تلك، ضاعت ابنتي.

سأقول هذا حتّى إذا اعتقدنا أنّ العكس تمامًا حصل في السنوات التي تلت ذلك: كأنّها سارت في تلك اللحظة بالذات دون وعي منها على الطريق التي ستقودها إلى الفتاة التي كانتها حقًّا، بشغف وحماس وطاقة لا يقدر عليها إلاّ قلّة من الناس. بدا الإعياء على ملامح وجهها الطفوليّ الشاحب، ويحدث أن أستعيد أحيانا رؤية ذلك الإعياء في الحلم. وهو الإعياء نفسه الذي ستتعذّب بسببه وهي في طريقها إلى عالم الأنغام، طريق الزهد، ذاك الذي ستقطعه في حمًّى مضنية.

انتهى عزف المرأة بحركة من قوس الكمان تطفح حماسًا ويشوبها بعض الحزن. ساد صمتٌ ابتلع ضجيجَ المحطّة كلّه. ثمّ سرعان ما قطعته عاصفة من التصفيق. انحنت المرأة بحرارة أكثر ممّا تستدعيه العادة، وهي ممسكة بالكمان وبالقوس على مسافة من جسدها كأنّها ترمي من وراء ذلك إلى حمايتهما من حركاتها الطائشة. لا شكّ أنّ القُبّعة كانت مثبّتة على رأسها لأنّها ظلّت في مكانها بينما غمر الشَّعْرُ الأسود وجهَها وأخفاه تحته. عندما انتصبت واقفة من جديد، أخذ شعرها يتطاير إلى الخلف كأنّ عاصفة شرَّدته، وبدأت اليد الممسكة بالقوس تبعد خصلات الشعر عن الوجه. في تلك اللحظة أصبح بياض ذلك الوجه المقَنَّع مروِّعا حقًّا، وإن كان وجهًا ماثلاً طوال الوقت أمامنا. وعلى أيّة حال، فقد وددنا أن نقرأ عليه علامات سرور أو إعياء أو انفعال مّا. ولكن دون جدوى، فالنظرة كانت تنبو على القناع الشّبحيّ، فوق كلّ ذلك المسحوق. ومع ذلك كان التّصفيق بلا نهاية. ولم يتفرَّق الحشد إلاّ ببطء، منقسمًا إلى فريقَيْن: أولئك المستعجلين والآخرين الواقفين في الصّفّ لرمي قطع نقديّة في علبة الكمان الموضوعة قرب المسطبة. أمّا البعض الآخر وهم يلقون نظرة حائرة على ساعاتهم بدا أنّهم يتساءلون كم مرَّ من الوقت حتّى الآن.

راوحت لِيَا مكانها دون أن يتغيَّر فيها شيء أو تنضب نشوتها. لَكأنّ أجفانها أخذت تعاندها لشدّة انفعالها بالحدث. ثمّة شيء مّا مؤثّر جدًّا في رفضها الاعتقادَ بأنّ ذلك السِّحْرَ انتهى. بدت تلك الرغبة في أن يتواصل ذلك، أن يتواصل إلى الأبد قويّة جدًّا إلى درجة أنّ لِيَا لم تستعد وعيها حتّى عندما اصطدم بها مسافر مستعجل. وبثقةٍ

لاواعيةٍ لشخصٍ مُسَرْنَم، وقفت في مكانها ونظرتُها مسمّرة في لويولا وكأنّها دميةٌ متحرّكة باستطاعة عينَي لِيَا أن تحرّكاها، باستطاعتهما أن تجبراها على مواصلة العزف. وفي رصانة تلك النظرة، قرأت الحدَّة العجيبة والمدمِّرة في النهاية، لتلك الإرادة التي كان عليها أن تتجلَّى بوضوح أكبر في الأعوام القادمة.

بدا جليًا أنّ لويولا ليست وحيدةً في تلك اللحظة.فقد تكفَّل رجل طويل القامة ذو بشرة داكنة بإخراجها من فوق خشبة العرض. أخذ من ليولا الكمان والقوسَ ومدَّ لها يده ليساعدها على النزول من فوق المنصَّة. ثمّ رتَّب كلّ شيء بمهارة وسرعة لم تُثيرا دهشة أحد آخر غيري. ويبدو أنّه لم تمرَّ سوى دقيقة أو ثلاث دقائق بعد سقوط آخر قطعة نقود في العلبة، بينما اتَّجهت ليولا ومرافقها نحو السلّم المتحرّك. في لحظة مغادرة مسطبتها بدَت عازفة الكمان الجذّابة صغيرة، ليست صغيرة فحسب، بل خالية من الفتنة وشِبه يائسةٍ تقريبًا. أخذت تسحب ساقَها وشعُرتُ بالخجل لأنني أُصِبتُ بالإحباط عندما اكتشفتُ أنّها عاديّة وعرجاء، لا تتحرّك في العالم بنفس الصفاء والإتقان العجيبين الذين طبعا عزفها. وشعرت بمزيج من السعادة والحزن عندما حملتْها حركة الدَّرَجات الصاعدة خارج مجال رؤيتنا.

اقتربتُ من لِيَا وجذبتها برفق نحوي، وتلك حركتي المعتادة عندما أروم مواساتها وحمايتها. فتجثم بخدِّها على فخذي، وعندما يزداد الأمر خطورةً تحاول إخفاء وجهها في حضني. ولكن في تلك اللحظة مرّ كلّ شيء على نحو مغاير. وحتّى إن لم تكن تلك إلاّ حركة صغيرة- فارقًا بسيطًا في ردود فعلها لن تتمكّن أيّ عين خارجيّة من

التفطّن إليه- فإنّها غيّرت العالم. بدأت لِيَا تستردُّ وعيَها ببطء تحت ضغط يدي النّاعم. في الوهلة الأولى استسلمَت لحركتي الحانية، كما هو الحال دومًا، ولكن بعد مرور وقت قصير وقبل أن يلامس خدّها ساقي من جديد تجمَّدت لِيَا فجأة. ثمّ بدأت تثور ضدّ قبضتي.

شعرت بفورتها وسرى ذلك في جسدي مثل صعقة كهربائيّة: بينما غرقت لِيَا في الموسيقى تكوّنت داخلها من جديد إرادة أخرى، استقلاليّة جديدة ولدت في أعماقها لم تكن تعرف عنها شيئا بعدُ.

سحبت يدي فزِعًا وأنا أنتظر في قلق ما سيحصل عندئذ. لم تنظر لِيَا إليّ منذ استعادت وعيها. وكانت اللحظة التي التقت فيها نظراتنا قصيرةً، عشتُها في صَحْوٍ تامّ مثل لقاء شخصين ناضجين يتقاسمان الإرادة ذاتها. في تلك اللحظة لم تعد لِيَا الفتاة الصغيرة المحتاجة إلى والدها ذي القامة المديدة، والدها الحارس، بل امرأة شابّة مفعمة بإرادة مّا وطافحة بمستقبل تطالب باحترامها التامّ.

في تلك اللحظة أدركت أنّ ترتيبًا زمنيًّا بدأ بيننا.

ولكن لِفرط جدّة الشّعور وصفائه، لم أدرك كنهَه بصورة واضحة. لا آنذاك ولا لاحقًا. *ابنتك هي الأهمّ*. ما الذي يمكن أن تعنيه كلمات المغاربيّ المرعبة هذه إن لم يكن لومًا على اهتمامي بنفسي وحدها عوضًا عن الاهتمام بلِيَا خلال الثلاث عشرة سنة التي تلت ظهور ليولا في محطّة بيرن؟ خلال الأيّام والأسابيع الأولى رفضتُ بحنَق ومرارة أن آخذ هذا اللوم على محمل الجدّ. تلك لم تكن إلاّ لحظة عابرة. ولكنّ كلمات الطبيب ظلّت تدور في رأسي دون توقّف، تزعجني عندما أخلد إلى النوم وعندما أستيقظ، حتّى إنّني أحاول

بكلّ ما أوتيت من عقلانيّة باردة مقاومةَ هذه الكلمات وأنا مرهق، مواجهةَ نفسي من الخارج كأنّني غريب عنّي. ربّما عجزتُ حقًّا عن إقناع لِيَا بأنّ لها إرادتَها الخاصّة، إرادتَها التي باستطاعتها أيضًا أن تكون إرادةً أخرى غير تلك التي أتمنّاها لها؟

لم يخطر ببالي قطّ أن أُبتلى بعجز مدمِّر إلى ذلك الحدّ. ولو افترضنا أنّ هذا العجز أثَّر فيّ فقد حدث ذلك بإدراك ماكر وقابليّة خادعة للتغيّر تجعله غير مرئيّ وتخفيه وراء واجهة اهتمام كاذبة. في الواقع، فإنّ النّاظر يستحيل عليه الاعتقاد أنّني غير مهتمّ برغبات لِيَا. بل على العكس تمامًا. في الظاهر يبدو أنّني أصبحت، من شهرٍ إلى آخر وحتّى من سنة إلى أخرى، خادمًا لها بل أكثر من ذلك عبدًا لرغباتها. هذه النظرة أو تلك التي يرمقني بها زملائي وشركائي تجعلني واثقًا من أنّهم يعيبون عليّ تركي إيقاعَ حياتي يسير وفق إيقاع حياة لِيَا إلى حدّ لا يطاق، بتقدّمها وتراجعها فنيًّا، بأوجها وحضيضها، بمرحها وكآبتها، بنزواتها وأمراضها. ومن ذا الذي باستطاعته أن يتَّهم أبًا بالعجز عن إدراك إرادة ابنته، عندما يذهب حدَّ الحياد عن الطريق المستقيم من أجل إسعاد طفلته؟ خضعتُ عن طيبِ خاطرٍ لاستبداد موهبتها. كيف يمكن للمغاربيّ أن يتجرّأ على التّشكيك في رغبتي الحقيقيّة في الاعتراف بلِيَا كشخص مستقلّ بذاته؟ وكيف له أن يقنعني بغطرسته الناعمة بأنّ هذا العجز هو سبب مرضها حقًّا؟ *لن تقيم بسانت–ريمي*. يا إلهي!

الفصل الرابع

وقف فان فلييت من جديد واستعدَّ للعودة إلى الشاطئ. وأصبح بالإمكان رؤية قبضتَيه المضمومتَين في جيبَي سُتْرتِه. رافقته إلى هناك. أخرج القارورة المفلطحة، تردَّد لحظةً ورمقني بنظرة. فتلقَّيت نظرته واحتضنتها وهو يحكّ القارورة بإبهامه.

«أرغب في سماع بقيّة الحكاية»، قلت له.

عبرَتْ وجهَه ابتسامةٌ خرقاء لم تُتح لتوم كورتيناي فرصةَ الظّفر بابتسامة مثلها. غير أنّه كان لها أن تبدو ابتسامة ممكنة على وجهه أيضًا.

«حسنا»، قال فان فلييت وهو يعيد القارورة إلى جيبه.

اقترب منّا رجلٌ يصحب كلبًا من فصيلة نيوفاودلاند. أخذ الكلب يركض نحونا وتوقّف أمامنا لاهثًا. داعب فان فلييت رأسه وترك له يده يلعقها. أمّا نحن فلم ينظر بعضنا إلى بعض، لكنّنا نعرف أنّ كلامنا كان عن لِيَا وعن علاقتها بالحيوانات. وفي تلك اللحظة تشابكت أفكارنا على هذا النحو: هل سبق أن عشت هذا مع جوانا أو مع ليسلي؟ ولم يمرّ على لقائي بفان فلييت حتّى نصفُ يوم.

هرب الكلب ومسح فان فلييت يده على بنطاله. سرنا حتّى بلغنا الماء. وقد خفّت سرعة الريح وهدرت الأمواج بلطف.

«كانت لِيَا تحبّ البحر وهو أملس مثل المرآة. إذ يذكّرها برنين الجرس في دير يابانيّ عند الصباح الباكر. فهي تحبّ هذا النوع من الأفلام وهذا النوع من المقارنات. خلال الألعاب الأولمبيّة بسيول يحدث أن أفتح التلفاز في وقت متأخّر من الليل. الكوريّون يسمّون بلدهم *بلد الصباح الهادئ*، هكذا يقول المعلّق. برزت لِيَا من خلفي دون أن تحدث ضجيجا، قدماها عاريتان وهي عاجزة عن النوم بعد ساعات من التمرين على الكمان. «يا للجمال»! قالت ونحن نشاهد الأفلاك ذات المجاديف التي تشقّ الماء الأملس. حدث ذلك قبل بضعة أشهر فقط من ظهور ليولا في المحطّة».

تناول جرعةً سريعةً من قارورته، بدت حركاته آليّة، واهنة. واستسلم مرّة أخرى لنهر الذكريات.

«حدّقت لِيَا في السلّم المتحرّك الذي اختفت من فوقه عازفة الكمان. وبعد بضع خطوات التوت ساقُها. لكأنّها بدأت المشي قبل أن تستعيد التحكّم في جسدها تمامًا إثر هروبها في الحلم. عرجت ساقها وتقطّب وجهها من شدّة الألم ولكنّ نَزْعَةَ التّحدّي والعناد اختفت من ملامحها، تلك النّزعة التي أظهرتها في الأوقات الأخيرة عندما آلمت نفسها. بدت بالأحرى شاردة الذّهن كأنّ الألم حادثة مزعجة أكثر منه ظاهرة جديرة بالاهتمام. حلمت بتلك الخطوة المتعثّرة. رأيتني ممسكًا بساق لِيَا كأنّني طبيب، ولكن كما لو أنّني أيضًا المسؤول عن ذلك الحظّ العاثر. استمرّ الحلم وقتًا أطول من

حدث التواء الكاحل البسيط، وقد تماثل للشِّفاء سريعًا. ولكنّ الحلم اختفى في نهاية الأمر بينما بدت لِيَا طلقة المحيًا. مع زياراتي السرّيّة إلى سانت-ريمي، في حدائق الملجإ، عاودني الحلم من جديد. وفي ذلك الحلم أنا لا أفعل شيئًا، بل أكتفي بالنظر إلى لِيَا وهي تعرج على مسافة منّي، عمرها مبهمٌ ووجهها غريبٌ. ثمّ أستيقظ وقد غمرني إحساس بأنّني شاهد على خسارة تسبّبت لها في آلام كثيرة.

«إنّ روحها منكسرة»، هذا ما ردّده المغاربيّ.

كم كان ذلك المساء مختلفًا بعد حفلة ليولا! تنزَّهنا نحن الاثنان في أرجاء المدينة. ولم يسبق لنا أن سرنا معًا في شوارع بيرن على ذلك النحو، كأنّنا محمولَان خارج الزمن، يفصلنا حجر الأروقة، وما تبقّى من الواقع، فجوةٌ صغيرة توحي لنا بأنّ آلاف الأشياء الحميمّة لم يعد لها أيّ معنى عندنا. الشيء الوحيد الذي له معنى هو أنّ لِيَا كانت تمشي كما سبق لها أن مشت منذ وقت طويل، متحرِّرة، مصمِّمة على بلوغ هدفها، وبذلك أيقظت بداخلي أملاً في أنّ روحها انتعشت فأصبحت سَلِسة بفضل الموسيقى التي أصغت إليها في المحطّة.

كانت تعرج ولكن لم يبدُ أنّها انتبهت إلى ذلك قطّ. ازدراء الألم المتواصل وهب مِشيتها طابعًا حازمًا لا يدَع مجالاً للشكّ في أنّها هي التي تقود النزهة. لم نبس بكلمة واحدة لفترة طويلة. قادتني عبر شوارع وأزقّة لم أسِرْ فيها منذ سنوات. كأنّ قوّة عجيبة تحرّكها بينما تمنعني نظرتها المحدِّقة في الأرض من سؤالها عن غايتها. مرّة واحدة فقط عمدت إلى سؤالها: إلى أين نمضي؟ لم تنظر إليّ لكنّها أجابت

كمن يجيب من غَوْرِ تركيزٍ عميق: «تعالَ»! قالت ذلك بنبرةِ شخصٍ هو أوّل من يستشعر حدثًا كبيرًا دون رغبة في تفسيره.

استرجعتُ موجةً من المناسبات قالت لي سيسيل خلالها هي أيضًا هذه الكلمة: «تعال»! بلهفة ناعمة ومُلحَّة. كم سعدتُ في البداية وهي تفعل ذلك! أن يمسكني شخص من يدي ويسحبني معه! كم كان ذلك غريبًا ومريحًا بالنسبة إلى رجل وجب عليه، وهو طفل مستسلم لنفسه منذ وقت طويل، أن يشقّ طريقه بمفرده، في المدرسة وفي الشارع، مركِّزًا على ذكائه الماكر، وهو الشيء الوحيد الذي وثق فيه تقريبًا.

ولأكثر من ساعة تقريبا تواصلت نزهتنا الشبحيَّة التي أصبحت مشيًا متصنَّعا بفضل طاقة لِيَا المتلهِّفة. وعندما وقعت نظرتي على ساعة أحد الأجراس تذكّرتُ، وأنا أشعر بخزي حارقٍ، الاجتماعَ الذي كان من المفترض أن أديره. وهو لقاء حاسم بين المانحين وإدارة الجامعة، يتوقّف عليه مستقبل مَخبري. وهكذا فمن غير المعقول أن أتغيّب. ما سيفكّر فيه زملائي الذين عليهم أن يتقبّلوا نظرات المانحين المتسائلة وهم محبطون تمامًا، جعلني أخرج مذعورًا من ذلك الحاضر الذي نسيت فيه نفسي، الحاضر الذي تتمثّل مهمّته الوحيدة في أن يكون رفيق لِيَا فحسب. وما إن رأيت كشك هاتف حتّى بحثت عن قطعة نقديّة في جيب سترتي. ولكنّني شعرت من جديد بطاقة لِيَا المغناطيسيّة تجذبني نحوها، واتّخذتُ القرار نفسه الذي سأتّخذه خلال هذه السّنوات القادمة: منحت ابنتي الأولويّة على واجباتي المهنيّة وذلك بغضِّ طرفي عن النّتائج التي ازدادت خطورتُها من وقت إلى آخر.

وأصبحت إرادتها التي رغبت في أن ننساق إليها نحن الاثنان أهمَّ عندي من كلّ ما تبقّى. وباتت حياتها أشدّ أهمّيّة من حياتي، والمغاربيّ لا يعرف شيئًا من هذا، لا شيء.

تخلّفتُ عن ليَا ثمّ لحقتُ بها. بدأنا ندور في حلقة مفرغة، وشيئًا فشيئًا أدركتُ أنّه لا هدفَ لها أو بالأحرى أنّ هدفها ليس واحدًا من تلك الأهداف التي يسهل تحقيقُها سيرًا على الأقدام. سارت إلى جانبي كما لو أنّها تتمنّى حقًّا أن تذهب بعيدًا جدًّا، ولكن دون أن تعرف إلى أين، أو لنقل كأنّها تفضّل التحرّك في فضاء مختلف تمامًا وأكثر أهمّيّة وذي معنى بالقياس إلى ذاك الذي تمنحه مدينة بيرن القديمة.

مررنا في تلك اللحظة من أمام مغازة كرومفولز لبيع الآلات الموسيقيّة. لم تُلقِ ليَا نظرةً واحدةً على الواجهة الزجاجيّة التي واصلت عرض بضع كمنجات، وهذا ما أثار دهشتي. مرَّت أمامها دون أن تثير انتباهَها، بينما يتولّد في روحها تغييرٌ سيمنح تلك الآلات أهمّيّة، كما سيتأكّد لي لاحقًا، حتّى إنّها ستطبع كلّ حياتها. وقعت نظرتي على الكمنجات وربطتُها بالمرأة التي رأيناها في المحطّة -على النحو الذي تلتقي به أفكارنا في العادة- ولم يبقَ عندي أدنى شكّ في المعنى الذي ستحمله الكمنجات إلى حياتنا معًا، وفي أنّها ستغير كلّ شيء.

ولكنّ ليَا بدت، فجأةً، واهنةً تمامًا. لقد استفحل الألم في كاحلها دون شكّ. وإذا هي سحبتني في السابق بتصميم أخرس واستبداديّ فإنّها لم تعد الآن إلاّ فتاة صغيرة مرهقة تؤلمها رجلها وترغب في العودة إلى المنزل.

كانت عودتنا إلى المنزل مختلفة عن المعتاد. إذ شعرتُ خلالها، إلى حدّ مّا، بأنّني عائد من سفر طويل. تفاجأت لرؤية كلّ الأثاث الموجود هناك وانتابني الشكّ في فائدته. ولم أجد الضوء المنبعث بشكل مدروس من كلّ تلك اللّمبات في مستوى انتظاراتي. انبعثت رائحة الغبار والعفن من المكان. وبدت الأشياء العديدة التي تذكّرنا بسيسيل كأنّها دُفعت، وبشكل غير ملحوظ، إلى ركن ناءٍ في الماضي. وضعتُ ضمّادة حول كاحل ليَا المتورِّم. لم تأكل شيئًا، تناولت قليلاً من صحن الأرز المطبوخ بالزعفران، طبقها المفضّل، ونظرها شاخصٌ. فجأةً رفعت عينيها ونظرت إليّ كأنّها ستطلب منّي، في تلك اللّحظة بالذّات، شيئا مّا على قدر من الأهمّيّة.

«هل الكمان باهظ الثمن؟».

هذه الكلمات القليلة التي نطقتها بنبرة صوتها الصافي والطفوليّ سيتردَّد صداها حتّى آخر حياتي. فجأةً فهمتُ ما حدث في أعماقها وتسبّب في اضطراب نزهتنا الغريبة والمبهمة عبر المدينة. وشعرت أنّ بها رغبة، هي أيضًا، في إتقان ما قدرت عازفة الكمان ذات اللباس العجيب على إتيانه. لقد انتهى التيه الذي رافق حدادها على والدتها. وأصبحت لها *إرادة* مرّة أخرى! والشيء الذي بعث في أعماقي سعادة مجنونة هو أنّني بتُّ قادرًا على فعل شيء مّا. لقد انقضى إلى غير رجعة ذلك الوقت الذي أكتفي فيه بالمشاهدة عاجزًا عن تقديم المساعدة.

«توجد كمنجات باهظة الثمن لا يقدر على شرائها إلاّ الأثرياء، قلت. ولكن يوجد غيرها أيضًا. هل ترغبين في الحصول على إحداها؟».

مكثتُ في قاعة الجلوس إلى أن تناهى إليّ نفَس لِيَا الهادئ. وبينما أنا جالس هناك حدث شيء من المؤكّد أنّه سيتوارى طويلاً في ذاكرتي ليبرز في لحظة مجيء أحدهم ليصحب لِيَا إلى مصحَّة سانت-ريمي عند المغاربيّ، بعيدًا عن سويسرا وعن إعلامها الفاضح. في ذلك المساء، وأنا جالس في الصالون اللّيليّ، انتابني فجأةً شعورٌ بأنّني ضيَّعت سيسيل. وبقدر ما بدا هذا الشعور قاسيًا، فإنّ حزن لِيَا الثقيل هو الذي ساعدني على الاحتفاظ بسيسيل بالقرب منّي. فهي الأمّ التي حضرت في حداد ابنتها أكثر من حضورها في الحياة أحيانًا. خلال ذلك المساء، بعد السّاعات القليلة التي بدأ فيها حداد لِيَا يترك مكانه لشعور جديد مفتوح على المستقبل، أخذ حضور سيسيل يضمحلّ أيضًا. أفزعني ذلك. فزوجتي لم تكن، في النّهاية، حاضرة حينئذ إلاّ كأمّ للِيَا؟

وقفتُ وعبرتُ الغرفَ متلمّسا الأشياء التي يمكن أن تثير ذِكراها. مكثت وقتًا طويلاً في غرفتها التي تشبه، بتماثيلها الصغيرة والشّقَفات المطليَّة، غرفةَ عالمة آثار. لكنّ ذلك ليس سوى شغفٍ هو انعكاسٌ لطبعها الحالم الذي لم يشكَّ فيه أحد حين كان الجميع يعرفونها كممرّضة نشيطة... لِيَا وأنا لم نلمس شيئا هناك منذ وفاتها. خلف الباب المغلق انقضت سنة، سنة لانهائيّة لا مستقبل خلالها باستطاعته أن يُنفى في الماضي لحظة أصبح حاضرًا. وبطرحها هذا السؤال حول الكمان، هدَّدت لِيَا ذاك المعبد. هذا على الأقلّ ما بدا لي عندما جلستُ من جديد على الكنبة.

لقد كنت على حقّ. بدأت الشقّة تمتلئ بأنغام الكمان، أنغام ما

تزال خرقاء وناشزة. وبعد وقت قصير حوّلنا غرفة سيسيل إلى غرفة موسيقى، كما تقول ليًا ببرطمة طافحة بالفخر والمرح. جهّزناها بأثاث فاتح وذي طراز قديم يذكّر بالصالونات الفرنسيّة والروسيّة حيث كان موسيقيّون شبّان موهوبون يبدؤون العزف أمام نبلاء تشبه ثيابهم الأنيقة والفخمة -كما كنّا نقول ضاحكين- زيّ ليولا دي كولون. كان رائعا أن نؤثّث مستقبل ليًا بتلك الطريقة.

ولكنّي أصاب أحيانًا بالأرق، فأشعر بانقباض في حلقي حزنًا على رؤية سيسيل وهي تختفي أكثر فأكثر في الماضي مع كلّ تقدّم تحرزه ابنتها. ويضاف إلى هذا الحزن حقدٌ أصمّ وغير مرئيّ تجاه ليًا التي تخطف منّي زوجةً لولاها لحِدتُ عن الطريق منذ فترة طويلة.

استيقظت ليًا بسبب الألم في ساقها. غيّرتُ لها الضمادة ثمّ تحدّثنا عن الحفل الذي أقيم في المحطّة. وعرفت عندئذ ما عليّ أن أعرفه من جديد طوال السنوات القادمة. وعلى الرغم من الألم الذي سبّبه لي ذلك لم تكن لديّ أيّ فكرة عن هول عدد الدوافع التي تحرّك روح ابنتي، بدءًا بأهمّيتها. فما اعتقدت أنّني أعرفه ليس إلاّ الظلّ الذي تعكسه عليها تهيّآتي.

فبينما كنت أتخيّلها غارقة في نشوة شبه روحانيّة، فكّرت ليًا، في الواقع، في أسئلة جميعُها عمليّة. كيف استطاعت ليولا معرفة المكان الذي عليها التوقّف فيه ويدُها تنزلق صعودًا ونزولاً على ذراع الكمان؟ لماذا لم ينغرز المشط الرقيق في اللوح، وهو الذي لا يوجد تحته غير فضاء مجوّف، مع أنّ الأوتار مشدودة إلى آخرها؟ لم نستطع حلّ أيّ واحد من هذين اللغزين. نامت أخيرًا على صوت الأسماء

الأسطوريّة لستراديفاري وأماتي وغارنيري[1] التي ذكرتها لها عندما تحدّثنا عن الكمنجات بشكل عامّ. في ذلك الوقت لم تكن مجرّد أسماء أسطوريّة ساطعة. ليت الأمر توقّف عند هذا الحدّ! لماذا أقحمتهم في حياتنا؟

أثناء نومي المضطرب في تلك الليلة، رأيتني أتخاصم مع شخصيّتَيْن نسائيّتين تراكبت صورتاهما وغيّرتا شكلَهما وامتزجتا، ويبدو أنّ لإحداهما سلطةً تهدّدني ومصيري. إنّها روث أداماك، مساعدتي منذ سنوات طويلة والمديرة المساعدة لمخبرنا. «نسيت؟» قالت بلهجة استنكار عندما شرحت لها في الهاتف سببَ تغيّبي عن الاجتماع دون أن أكلّف نفسي مجرّد الاتصال بهم. افهمي إذن قلت لها، لقد تعرّضت لِيَا لحادث، لم أستطع التفكير في شيء آخر غيرها.

-هي بالمستشفى؟

«كلاّ، أجبتها، إنّها برفقتي». وبدا قولي هذا كأنّه اعتراف بالخطإ. صمتت روث أداماك لحظةً. ثمّ أضافت: «لم يكن ثمّة هاتف بالقرب منك إذن؟ هل يمكنك أن تتخيّل ماذا يعني لنا أن نظلّ هنا مع تلك الأسماء الكبيرة دون أن نفعل شيئًا، ونحن لا ندري ما نقول لتبرير غيابك؟ في الواقع، هذا ما جرى حقًّا ولكنّها تقول شيئًا آخر في حلمي:«لماذا لا تتّصل إطلاقًا؟ ألم يعد يعنيك البتّة ما أقوم به؟»».

أمّا اليوم فها هي جالسة خلف مكتبي، طموحة وذات كفاءة، وعلى أنفها نظّارة من تصميم كارتيي. في حلمي لمتُها على ابتياعها

(1) من أشهر صانعي الآلات الموسيقيّة في العالم.

لي كما انهار مشطُه مع أوّل حركة قوس. كان سخطي شديدًا، حتّى إنّني تلعثمتُ وأنا أتلفّظ بعباراتي الغاضبة. فتجاهلتني روث واستدارت نحو الحريف الموالي. لقد أصبحت منذ تلك اللحظة موظّفة عند كرومفولز. وأطلقت ضحكة صاخبة عن عاملة النظافة المكلَّفة بتنظيف المخبر.

الفصل الخامس

خلال الغداء، سخرنا من ذلك الحلم. ولأوّل مرّة ضحكنا معًا. وقد جاءت ضحكة فان فلييت متردِّدة كمَن اتَّقد في داخله حماسٌ حذِرٌ. ولاحقًا عندما أصبح هذا الضحك يأتي بسهولة أكبر، أيقنتُ أنّ على فان فلييت أن يتجاوز الشعور بفقدانه الحقَّ في الضحك. كنّا جالسَين في الخارج، في باحة مطعم داخليّة مغطّاة، تحيط بها أسوار في بياضها الناصع شيء من اللمعان تحت أشعّة شمس بروفانس، لمعان ساطع حدَّ الوجع. لي سانت-ماري-دي-لامير هو بالنسبة إليّ المكان الشاهد على هذه الجدران الصافية حيث رأيتُ فان فلييت يضحك.

هل إنّ ضحكةً كتلك يمكن أن تناسب توم كورتيناي؟ بعد سنوات من مشاهدتي الفيلمَ رأيت الممثّل على خشبة المسرح في لندن. إنّها ملهاة! كان جيّدا ولكنّني لم أحبّه في هذا الدور. وخلال الاستراحة غادرت المسرح. هكذا أردتُ فان فلييت، ورغبت في سماع تلك الضحكة وقتًا أطول. وبالإضافة إلى أنّه والد ليًا وضحيّة شقاء ابنته فهذا يبيّن أيضا أنّه رجل جذّاب جدًّا وذو ذكاء خارق. وإلى جانب اللامبالاة الظاهرة التي يبديها في وضح النهار وهو يشرب، تمنّيت أن ألتقط صورة لوجهه الضاحك.

استعاد توازنه وطلب قارورة ماء معدنيّ، وعند تناوله القهوةَ طلب نبيذًا. هل لديك زوجة وأطفال؟ سألني. كان بالإمكان تأويل طريقته اللامبالية في طرح هذا السؤال على أنّه دليل تهذيب صريح. وفي لحظة مّا حزّ في نفسي. ولكنّني فهمت ما يرمي إليه من وراء هذا السؤال. إنّه يدافع عن نفسه سلفًا ويخشى إجابة من المؤكّد أنّها ستكشف له عن رجل أكثر حظًّا منه، رجلٍ يمكن أن ينجح أكثر مع زوجة وأطفال.

تحدّثتُ قليلا عن طلاقي، حدثته عن البانسيون، أمّا عن بقيّة الحكاية فلم أجد الكلمات لشرح ما حصل مع جوانا ولا إلى أين وصلت الأمور مع ليسلي. فرويت له حادثة الفتى الذي برز في ما مضى من باب المدخل ليجد نفسه فجأةً واقفًا أمام سيّارتي التي لا تفصله عنها إلاّ بضعة سنتيمترات. كانت دقّات قلبي تتسارع بشدّة وأنا في طريقي إلى المنزل، ولم تهدأ حتّى وأنا مستلقٍ على الكنبة. ركضت إلى الحمّام لأتقيأ. يا لها من ليلة جافاني فيها النوم قضّيتها وأنا أترشّف كوبًا من البابونج! يوم الأحد هو يوم عطلة، وقد قضّيت اليوم كلّه بين اليقظة والنّوم، تاركًا التّلفاز مفتوحًا وأنا أحاول التفكير في شيء آخر. واستبدَّ بي صداعٌ نصفيّ حادّ لم أعرف له مثيلاً قبل حصولي على الدكتوراه. وفي صباح يوم الاثنين كنت في قاعة العمليّات.

«لم أعد أثق في يدي ولا في ذاكرتي المركزيّة. ماذا كان عليّ أن أفعل بعد الشّرطة الأولى؟ أين أفرغ هذا الدم؟ ناولتني الممرّضة المشرطَ في صمت ومرّت ثوانٍ شعرتُ خلالها بنظرات الآخرين تلتهمني لاسيّما عينَي بول الذّاهلتَيْن من فوق القناع. وفي طريق العودة انتابني

الصُّداع النصفيّ الحادّ نفسُه. وخلال نزهات طويلة، كثيرًا ما توقّفت وأغمضت عينيّ وتخيّلتُني أقترب من طاولة العمليّات. الخوف من الدم لم يغادرني. سال الدم وسال. وكان المرضى يفقدون دمَهم كلّه».

تلك أيضًا معجزة ألاّ ينزفوا دماءهم. قال رفيق الدِّراسة الذي أصبح طبيبًا نفسانيًّا: «لماذا لا تتوقّف عن هذا العمل بكلّ بساطة. ألم ترغب سابقًا في أن تصبح مصوّرًا فوتوغرافيًّا أو مصوّرًا تلفزيونيًّا؟ في لحظة مّا، كلّما تقدَّم بنا العمر فقدنا ما في الحياة من بداهة طبيعيّة... اعتبر هذا إشارة».

بعد مرور أسبوع حصلت على التقاعد المبكّر. وعند عودتي إلى منزلي على الطريق الذي أسير فيه للمرّة الأخيرة، ألقيت بأزهار حفلة الوداع في سلّة المهملات وواصلت الاستيقاظ باكرًا كجرَّاح جيِّد.

الشيء الذي امتنعت عن الحديث عنه هو أنّني أخرجت صوري التي التقطت لي ببوسطن، صور رجل كان في مستوى كلّ الظروف، بالإضافة إلى أشرطة دروسي وعمليّاتي. أخفيت عنه أنّني لطالما تفحّصتُ وجهي بحثًا عن الثقة القديمة وتأمّلت بحسدٍ يديّ الدقيقتين والرَّشيقتيْن واللامباليتين بالدم. لم أخبره أنّه انتابني فجأةً شعورٌ بأنّ الاضطراب الحاليّ يهدم أيضًا كلّ ما سبق، وأنّ أحجار دومينو الماضي أخذت تسقط واحدة تلو أخرى، وأنّ كلّ شيء غدَا وهمًا. ليس كذبًا وإنّما وهمًا. وأخفيت أيضًا هذا الأمر: أنّه بعدما حجزت عبر الهاتف غرفة بالفندق في أفينيون شعرت بالفزع، إذ بدا لي أنّني جاهل بكيفيّة ضبط إجراءات الوصول والذهاب، وأنّني أصبحت أتدرّب على قول الجُمل التي يجب قولها، وأنّني ظللت بعد

ذلك، وأنا مستلقٍ على السرير في حذر، أفكّر في كلّ الفنادق التي سبق أن أقمت فيها خلال المؤتمرات في الهند وهونغ كونغ.

الثقة في النفس: لِمَ هي نَزِقة إلى هذا الحدّ؟ لماذا تظلّ عمياء أمام الأحداث؟ حياة بأكملها جاهدنا في بنائها وحمايتها وتوطيدها، مع العلم أنّها أثمن الممتلكات وهي ضروريّةٌ للسعادة. ثمّ فجأةً، وفي صمت ماكر، فُتحت كوَّة وسقطنا في هاوية سحيقة. كلّ ما كان لم يعد سوى سراب.

«ماذا يعني أنّ لنا ابنةً في مدرسةٍ داخليّة؟» تساءل فان فلييت. هل نشعر، مع ذلك، برؤيتها تكبر؟ «عفوًا، أرغب فقط في تخيُّل ذلك»، هل زرتها باستمرار؟ هل شاركتها حبّها الأوّل وحزنها الأوّل؟ وفوضى المشاعر عند اختيار المهنة؟

كنت صحبة ليسلي في مقهى بالقرب من المبيت.

«انتهت علاقتي بأندريه»، قالت. ثمّ مسحت عينيها بمنديلها. «تصوّرتُ أنّ الأمر سيكون أكثر روعة، أقصد في المرّة الأولى». كيف حدث هذا معك في الماضي؟ هذا ما رغبَتْ في أن تسألني عنه. تأكّدتُ من ذلك.

«سأكمل دراستي في الطبّ»، قالت مرّة أخرى وهي تبتسم. «كلاّ»، قلت. فردّت: «بلى». وأعتقد أنّها المرّة الأولى التي تبادلنا فيها القُبَل ونحن نفترق، وهي الأخيرة أيضًا.

لزمتُ الصمتَ، صمتًا كسره فان فلييت بقوله: «أنا آسف». وحتّى يعيدني إليه أضاف شيئًا آخر عن حلمه: كلّما أمسكت روث

بكمان تقلّص. حتّى إنّنا اضطررنا بعد ذلك إلى ألاّ نقتني إلاّ كمنجات صغيرة من محلّ كرومفولز. كان فان فلييت يحبّ رؤيتَها بكامل خجلها وهي تسحب بعصبيّة تنّورتها القصيرة. وقد علمتُ أنّ هذا المشهد ليس جزءًا من الحلم، لقد اختلقه الساعةَ حتّى يغفر لنفسه سؤاله إيّاي عن موضوع ليسلي.

«البائعة الحقيقيّة في محلّ كرومفولز، تابعَ قوله، مختلفةٌ جدًّا عن روث أداماك. وكلّما ازدادت المنافسة بيني وبين روث، سنة بعد سنة في المعهد، وجدتُ في كاتارينا وتلر الشخصيةَ الأنثويّة الثانية في هذا الحلم، إحدى الصديقات التي غالبًا ما تخيّلت أنّني أتحاور معها إذا تعلّق الأمر بلِيَا. في الصباح الذي تلا حفلة ليولا، كنت أوّل زبون يدخل المغازة، فاتّجهت نحوي امرأة في الخمسينات من عمرها يبدو عليها الهدوء سواء في حركاتها أو نظرتها الرماديَّة. على طفلة في الثامنة من عمرها أن تبدأ العزف على نصف كمان، قالت. وعندما تبلغ العاشرةَ تقريبًا يمكنها المرور إلى ثلاثة أرباع الكمان، وبداية من الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة تنتقل إلى العزف على كمان كامل. وبما أنّ عبارات «نصف كمان» أو «ثلاثة أرباع كمان» تجعلني مشدوهًا، فقد لمحتُ، ولأوّل مرّة، تلك الابتسامةَ المحتشمةَ التي كانت تتناسب جدًّا مع الشعر الرماديّ والتسريحة الصّارمة وجديلة الشعر الملتفَّة تحت رقبتها. تردَّدتُ لاحقًا على المحلّ واقتنيتُ أكثر من اسطوانة، فقط لأتأمّل تلك الابتسامة.

الكمان الصغير الذي ذهبتْ لتأتيني به من المستودع ووضعته أمامي على النّضد مصنوع من الخشب الفاتح، تزيّنه تعاريق رقيقة

وغير منتظمة. أمسكته في حذر شديد كما لو أنّ حركة قويّة بإمكانها أن تحيله إلى غبار. ألا ترغب في اصطحاب ابنتك لتتأكّد من كوننا اخترنا لها الحجم المناسب؟ هذه المرأة لا تكاد تعرفني، ولم يمرّ على لقائنا إلاّ نصف ساعة وها هي تصيب الهدف. جسنًا، هذا أيضًا سؤال طبيعيّ جدًّا، سؤال منطقيّ. ولكن بإعادة التفكير فيه يبدو لي أنّها شعرت بأنّني على وشك ارتكاب خطإ يتجاوز السائد بكثير. اليوم أيضًا أراها ترفع حاجبيْها أمام تردّدي. كان يمكن أن يختلف كلّ شيء لو أنّني فهمت الدَّرْسَ الذي قدّمته لي تلك المرأة الحكيمة، في ذلك الصباح، في تلك المغازة الفارغة. وبدلاً من ذلك قلت لها، ولعلّ في هذا وقعَ اعتذارٍ: «أريد أن أعدّ مفاجأةً لِلِيَا». ثمّ سدَّدتُ أوّل قسط من أقساط الكمان. «لو حدث أيّ شيء تعالَ مرفوقًا بلِيَا»، قالت المرأة وهي تناولني بطاقتها.

لقد تحدّثت عن لِيَا وهي تناديها باسمها، فتردَّد صداه في داخلي. وعندما غادرتُ المغازة حاملاً الكمان الصغير خامرني شعور بأنّه لم يسبق لي قطُّ أن حملت بين يديّ شيئًا ثمينًا كهذه الآلة. شعرت بالخوف عندما اصطدم أحد المارّة بالعلبة. وخلال المسافة المتبقّية ضممتها إلى صدري بحركة متوتّرة.

دخلت المعهد وأنا على تلك الهيئة. لكن لا أحد أبدى أيّ اهتمام بالكمان. كيف لزملائي أن يعرفوا أنّه رمز إلى استقبال لِيَا للحياة؟ ومع ذلك، لمتُهم على عدم طرحهم أيَّ سؤال أو إبداء أيّ ملاحظة واكتفائهم بالجلوس هناك خُرسًا، منتظرين تفسيرًا لغيابي غير المبرَّر البارحة. هذا الصمت جعل منهم خصومًا لي.

صمّمت على ألاّ يتلقّوا منّي لا تفسيرًا ولا اعتذارات. لقد اتّخذت هذا القرار وأنا جالس في مكتبي، أنظر إلى سلسلة جبال الألب فيما وراء المدينة. كانت الجبال المهيبة المغطّاة بالثلج ترتسم في مواجهة السماء بلونها الأزرق الدّاكن مثل أشجار الصفصاف ذات اللون الأخضر الدافئ، تلك التي شاهدتها بالأمس أمام مدرسة لِيَا. لم تمرّ على هذا الحدث أربع وعشرون ساعة، ومع ذلك بدا أنّ العالم كلّه تغيّر.

على مكتبي، ثمّة ملاحظة دوّنَتْها كاتبتي الخاصّة حول موضوع دعوة رئيس الجامعة إيّاي لزيارته. وبعد مرور وقت قصير وجدت نفسي في مكتبٍ جامعيّ مطليّ بالكُروم اللاّمع ومليء بالأجهزة الإلكترونيّة. فعدتُ التلميذَ المتمرِّد الذي كنتُه في السّابق، تلميذًا لا يُخجله أيّ تهديد، ويعمد إلى إخراج رقعة الشطرنج من جيبه خلال الدرس متحدّيًا كلّ التحذيرات. ومع ذلك لم يُطرد لأنّه سرعان ما يتدارك التأخير الناتج عن هروبه من الدراسة ليجد نفسه من جديد على رأس قائمة الناجحين النهائيّة. في ذلك الوقت كنت أبالغ في الكذب وهي الاستراتيجيّة نفسها التي أتّبعها في لعب الشطرنج. يجب عليّ القيام دومًا بخطوة إلى الأمام. وسأستمرّ في ذلك إذا تعلّق الأمر بالدفاع عن لِيَا ضدّ الآخرين. بالإمكان الاعتماد عليّ.

لم يكن باستطاعة رئيس الجامعة معرفة أنّ مَن يقف أمامه زميلٌ استيقظ في داخله طفلُ الشوارع، ذاك الذي يكذب بدمٍ بارد. أعتقد أنّه ذُهل من الانتظار ومن جفافٍ غلّف حكايتي التي اخترعتها -حادث لِيَا- ومن كونها لا تبدو ذريعة قويّة، لكنّه لم

يملك خيارًا آخر غير تصديقي. وفي النّهاية حدّدنا موعدًا آخر مع المانحين.

نُسي إهمالي، وما تبقّى هو ضربٌ من البرود طبع علاقتي بزملائي. ومن وقت إلى آخر حاولت روث افتعال شجار بيننا لكنّني لزمتُ الحذر، متجاوزًا على الدوام حقدها. وكما قلت، بالإمكان الاعتماد عليّ.

الفصل السادس

«تحوُّلُ ليَا أشبه بانفجار صامت. إذ لم يبدُ عليها أيّ شعور بالمفاجأة ولا أيُّ تعبير عن الرّضا عندما وجدَتْ نفسها مساء ذلك اليوم أمام علبة الكمان التي فتحتُها ووضعتها فوق سريرها قبل أن أذهب لآتي بها من المدرسة. لم تقفز تعبيرًا عن بهجتها. ولم يحدث أيّ شيء في أعماقها. أمسكت ليَا بالكمان وبدأت العزف. وبطبيعة الحال، لم تَسِر الأمور حقًّا على هذا النحو، ولكن إذا كان عليّ أن أصف عفويّتها المدهشة في التعامل مع الآلة فلن أجد كلمات أفضل من هذه: أمسكت به وبدأت العزف، تمامًا كما لو أنّها انتظرت أن تحصل أخيرًا على الآلة التي وُلدت من أجلها. «تنبعث من هذه الفتاة سطوة مّا»، قالت كاتارينا ولتر عندما لمحتْها في أوّل ظهور لها على مسرح المدرسة. وهذا حقًّا ما شعّ منها وهي تمسك بالكمان بين يديها: القوّة، القوّة والنعومة.

أين ذهبت إذن هذه القوّة الفطريّة التي كانت تنبعث من كلّ حركة من حركات عزفها؟ أين ذهبت حتّى تنطفئ؟

اختنق فان فليت بسبب الدخان وأخذت جوزة حلقه تتحرّك بشكل محموم. أمّا أنا فأخذت أنظر إلى وجهه الذي انفصل عن

جسده ليلتصق بالجدار الأبيض. وخلف لونه الأسمر لرياضيٍّ في كامل عافيته لاح خرابٌ. وقبل أن يواصل حكايته مسحَ بكمّه الدموع التي جعلها السُّعال تصعد إلى عينيه.

«شيء آخر حدث لِيَا أيضًا. فبين عشيّة وضحاها تقريبا، تحوّلت الفتاة التي ظلّت، حتّى ذلك الوقت، وديعة جدًّا إلى امرأة راشدة صغيرة وعنيدة. لاحظتُ، وللمرّة الأولى، مساحة هذا التحوّل عندما ذهبنا للبحث عن أستاذ يعلّمها العزف على الكمان.

بالنّسبة إلى لِيَا لا يمكن أن تعلِّمها إلاّ امرأة. بدا هذا واضحًا منذ صباح اليوم التالي. تحوّلنا بعد بعد عودتها من المدرسة إلى العناوين الثلاثة التي مدّني بها معهد الموسيقى. لكنّ لِيَا رفضت النساء الثلاث رفضًا تامًّا، وقد فعلت ذلك بالطريقة نفسها دومًا: ما إن تبدأ المحادثة حتّى تقف فجأةً وتتّجه نحو الباب دون أن تنبس بكلمة. وفي كلّ مرّة كنت أنتفض وأغمغم باعتذارات وأقوم بحركات يائسة بيدي تعبيرًا عن اضطرابي. بعد ذلك، عندما أسألها ونحن في الشارع عن سبب تصرُّفها الغريب لا تقدم لِيَا أيّ تفسير، بل تجيب بهزّة من رأسها ملؤها العناد والإصرار المصحوب بتسارع مستفزٍّ في خطواتها. عندئذ أدركتُ ماذا يعني أن تكون لك فتاة موهوبة بكامل إرادتها.

ماري باستور، كان على هذا الاسم أن يصبح عندنا نحن الاثنين مثل فانوس أغرق كلّ شيء في نور ما يزال مجهولا، نورٍ أعمانا ليترك في حياتنا أخيرًا آثارَ حريق لا تمحى. مع ذلك كدت لا أرى هذا الاسم، في ذلك اليوم بالذات، لحظةَ دخولي إلى المنزل بعد أن مررنا بالسيّارة أمام اللوحة النحاسيّة التي نُقش عليها هذا الاسم بأحرف

سوداء لامعة تصاحبها هذه الكلمات: دروس كمان. الشقّة موجودة في مفترق طرق سبق أن مررت به لحظةَ وعيي بالكلمات التي قرأتها على اللوحة النحاسيّة. دُست على الفرامل بعنف حتّى إنّ ليَا أطلقت صرخة، وكدت أرتكب حادثًا. جُبت المجَمّع وركنت السيّارة أمام المدخل مباشرة. كانت اللوحة النحاسيّة مثبّتة على البوّابة الحديديّة التي تفتح على الحديقة، وتضيئها في تلك اللحظة، والليل يسدل ستاره، اللّمبتان اللّتان بدتا محلّقتين تماما فوق دعامتي البوابّة.

والآن لنجرّب هذه أيضًا، قلت لِليَا، مشيرًا إلى الاسم. وبينما نحن نعبر الحديقة باتجاه الباب الأسود ذي الزخرفات النحاسيَّة، خطر ببالي هانس لوتي، أستاذ البيولوجيا الذي أدين له، في النّهاية، بنجاحي في امتحان البكالوريا. التقينا سابقًا في قبو مكتبة فرانك التي تضمّ كتيّبات الشطرنج. حدث ذلك في صباح أحد أيّام أسبوع عاديّ تغيّبتُ خلاله عن حصّة لوتي. تصنَّعت الضجر واللامبالاة في آن معًا، ولكنّني كنت مرتبكا جدًّا.

لقد بلغ الأمر أقصاه حقًّا، يا مارتن، قال لوتي وهو يلقي عليَّ نظرةً هادئة وحازمة: «لا أدري إن كنتُ قادرًا بعدُ على فعل شيء من أجلك في مجلس القسم القادم».

هززت كتفي بحركة لامبالية وأدرت ظهري.

مع ذلك، أثّرت فيّ كلماته، ليس لأنّها لم تكن على علاقة بطردي الوشيك من المعهد وهو أمر بات متوقّعا منذ وقت طويل، ولكن لأنّها كلمات طافحة بالحزن والغمّ من أجلي أنا، الفتى المعاند والمتمرّد

الذي لن يستطيع أحد تحمُّله مرّة أخرى بسبب سوء سلوكه. ثمّة بالفعل «قلق» في أحاديثه وفي نظرته. منذ وقت طويل لم يقلق أحد بشأني إلاّ في تلك اللحظة، وهو ما أثّر فيّ كثيرًا.

ظللت واقفًا أمام الباب ممسكًا بالكتيّب الجامع لمباريات كابابلانكا[1] ومحدِّقا في الفراغ، وإذا بلوتي يلمس كتفي. «هذا لك»، قال وهو يسلّمني كتابَين. أعتقد أنّني لم أستحضر كلمة شكر واحدة لشدّة دهشتي. هانس لوتي، الرجل صاحب الاسم البورجوازيّ الصغير، ببنطاله القديم من القطيفة المضلَّع وشعره الأحمر المشعَّث، كان بصدد صعود الدَّرَج عندما أدركت حقيقة ما أحمله بين يديّ: إنّهما سيرتان ذاتيّتان إحداهما للويس باستور والأخرى لماري كوري.

من المؤكّد أنّ هذين الكتابين هما الأهمّ في حياتي. التهمتهما ثمّ أعدت قراءتهما مرارًا وتكرارًا. وخلال السنة النهائيّة لم أتغيّب ساعة واحدة من ساعات الدرس، ولم أرتكب أيّ خطإ في امتحانات العلوم الطبيعيّة. لقد أحسن لوتي التَّقديرَ.

عجزتُ عن إيجاد الكلمات لأعبّر له عن امتناني لما فعله من أجلي. أنا لست موهوبًا في هذا الأمر.

ذهبنا حينئذ لزيارة امرأة تدعى ماري باستور. وعندما ضغطت على جرس الباب كنت متحمّسا كأنّني في أوّل لقاء حبّ. فُتح الباب فجأةً وصعدنا طابقين، وسرنا على بساط أحمر.

كانت المرأة التي انتظرتنا على الدَّرَج ترتدي فوطة مطبخٍ مزركشةً

---

(1) لاعب شطرنج كوبي.

بالأزهار وتمسك بيدها مغرفة من اللوح. أخذت تنظر إلينا بحاجبين مرفوعين ونحن قادمان نحوها. ليس من السهل أن يشعرني أحد بالوجل ولكنّ ماري نجحت في ذلك، في ذلك اليوم ولاحقًا أيضًا، ولم أجد إلاّ علاجًا واحدًا: الذهاب نحو الهدف رأسًا.

«ابنتي هذه، قلت وأنا ما أزال على الدَّرَج، ترغب في تلقّي دروس في الكمان برفقتك».

«لم تطلب رأيي»، قالت لي لِيَا لاحقًا. لقد أكّدت ماري أنّني قلت ذلك بنبرة حاسمة كما لو أنّ من *واجبها* أن تُذعن حتمًا لهذا الطلب، كأنّها لا تملك الخيار في رفض لِيَا.

«لم تكن ماري مسرورة بهذه الزيارة غير المنتظرة. ولم تسمح لنا بالدخول إلاّ بعد تردُّد. قادتنا إلى قاعة الموسيقى، ثمّ اختفت لحظةً في المطبخ. الطريقة التي تفحّصت بها لِيَا الغرفةَ العاليةَ والواسعة ببطء وعلى نحو منهجيّ تقريبا، جعلتني قادرًا على إدراك أنّها معجبة بالمكان. رأيت ذلك أيضًا في الطريقة التي داعبت بها عددًا من الوسائد المصنوعة من الشينتز النّاعم واللاّمع. بعد ذلك، عندما وقفتْ وسارت نحو البيانو القائم المنتصب في ركن الغرفة، أيقنتُ أنّها لن تختفي من جديد في صمت.

لم يكن غريبًا أن تروق لها هذه الغرفة، فهي مؤثّثة دون زخرف ولكن بذوق لا شائبة فيه. كان مكانًا هادئا بطريقة يتعذّر تفسيرها، وصخب الشارع يُسمع داخلها مثل صدًى بعيد. والألوان السائدة هي الأمغر، والبنيّ الفاتح والأحمر، والبنفسجيّ الفاتح والباهت. وبعد وقت قصير لاحظتُ أنّها ألوان تذكّر، بطريقة غامضة ولطيفة،

بسترة ليولا دي كولون الطويلة. أرضيَّة خشبيّة لامعة، ثريّا من الفنّ الجديد، على الحيطان عُلِّقت صور كثيرة لعازفي كمان مشهورين. ويوجد الشينتز، كثير من الشينتز، حائط بأكمله غُلّف بهذا القماش الناعم الجذّاب. وبعد انتهاء الأسبوع الأوّل من الدروس قالت لي لِيَا: لكم وددتُ السّباحة في الشينتز!

حينئذٍ دخلت ماري باستور إلى الحجرة، المرأة التي ستصقل موهبة لِيَا بسرعة جنونيّة، سرعة مدهشة تقطع الأنفاس. المرأة التي استطاعت لِيَا، وهي بقربها، أن تضحك وتبكي، تَحنَق وتغضب بشكل لا تفعله برفقة شخص آخر. المرأة التي ستتعلّق بها طفلتي بحبّ خارق للعادة، حبّ مجنون ومشؤوم، المرأة التي كان يجب أن أُغرم بها في ذلك المساء تحديدًا دون وعي منّي. المرأة التي نذرتُ لها حبًّا مستحيلاً، لأنّ ليّا، في شغفها اللاّمحدود والحصريّ بالموسيقى، لم تسمح بوجود أحد بالقرب منها. في كلّ لحظة بدا واضحًا جدًّا أنّني لو تركت تيّار حبّي يجرفني لأصبحت أنا وابنتي خصمين، بل عدوّين.

كلّ هذه الهواجس كانت مؤجَّلة عندما دخلت ماري مرتديةً فستانًا من الباتيك يصل إلى كاحلها، كأنّها تملك العشرات منه. وفي ذاكرتي تتراءى لي دومًا مرتدية ثوبًا من تلك الثياب ومنتعلة خفّين من الجلد الليّن شبيهين ببشرة ثانية. وعبرت الغرفَ الواسعة في صمت بقدميها المنتعلتين على هذا النحو والمثيرتين للدهشة بسبب صغرهما، تمامًا كما هو الحال في ذلك المساء عندما تقدّمت نحونا وهي تسير في الحجرة بشكل مائل وجلست على متكإ الكنبة. وضعت يدها على ركبتيها واتكأت بالأخرى على المسند. أشعرتني رؤية يديها كم كانت

يداي كبيرتيْن وخرقاوين على نحو مفزع بالقياس إلى يديها اللّتين جمعتَا، كما سألاحظ ذلك لاحقًا، رقّةً أنيقة وقوّة هائلة، قوّة ليس فيها أيّ أثر للعنف. وعندما أمسكتُ بيدها في لحظة مغادرتي تمنّيت أن أمسك بها إلى الأبد، لشدّة ما أحببتُ استشعار قبضة يدها القويّة.

فتلك اليد هي العضو المشرق في جسد ماري باستور، وقد بدا لي في ذلك المساء الأوّل أنّها تكوِّن كيانها كلّه: قوّة هائلة مجرَّدة من كلّ عنف. وفي عينيها أيضًا يمكن استشعار هذه القوّة، في حين أنّها أخذت تنظر في تلك اللحظة إلى لِيَا وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة وخبيثة. طرحَتْ عليها سؤالاً يثير الدهشة لشدّة بساطته: «وما الذي جعلك تعتقدين أنّ الكمان هو الآلة التي تناسبك؟».

هكذا هي ماري، المرأة التي تنشد الوضوح. ليس هو الوضوح نفسه الذي درستُه في العلوم ولا ذاك المتعلّق بلعبة الشطرنج. بل هو وضوح من الصعب إدراكه، وضوح حيّرتني سِمته المُخاتلة. الشيء الذي رغبت في معرفته هو لماذا يفعل الناس ما يفعلون. ألا يرغب أيّ شخص في معرفة ذلك حقًّا؟ أجل ولكنّ ماري رغبت تحديدًا في معرفة السبب وراء ما يقع لهم. ما كان *منهم على وجه الدقّة*. ولم يكن يعنيها أن تعرف ذلك بصورة أكثر دقّةً من الآخرين. إنّها عنيدة وصلبة إذا تعلّق الأمر بفهمها لنفسها. وهكذا تملّكني، أنا أيضا، شغفُ الفهم، هذا الذي بفضله بدا لي كلّ شيء -حتّى الأكثر حميميَّة- ومنذ البداية، أكثرَ جاذبيّة وأكثرَ ثراءً، وهو ما دفعني إلى الانتهاء في ليل مبهمٍ ما كان لي أن أعرفه لولا هذه الفكرة التي تتصوّرها ماري عن الوضوح.

لم تتردّد لِيَا لحظة واحدة في الإجابة عن سؤال ماري: «إنّه يلمس إحساسي»، قالت ببساطة. وثمّة شيء مّا حاسم في هذه الكلمات القليلة التي نطقت بها في عفويّة فطريّة إلى أبعد الحدود.

«يلمس إحساسك»، ردّدت ماري هذه الكلمات بتردُّد. تقدّمت قليلاً منزلقة على المتكإ وعقدت يديها على بطنها. وقعت خصلة من جمّتها ذات اللون الأشقر الرماديّ على جبينها. وحدّقتْ في الأرضيّة اللامعة. أخذت شفتاها تتحرّكان كما لو أنّ بها رغبةً شديدة في توزيع أحمر شفاهها عليها. شعرت إذّاك بأنّها لا تعرف كيف تواصل المحادثة. وعلمت لاحقًا أنّني أخطأت: إجابة لِيَا الحاسمة دفعت ماري إلى قبولها تلميذةً عندها. «كنت أعرف أنّه القرار الصائب، لكنّني في حاجة إلى بعض الوقت حتّى أتعوّد على هذه الفكرة. سيكون عملاً شاقًا. أشعر بذلك. وقرار كهذا يجب أن يُتّخذ بتبصُّر مخصوص. فضّلتُ ألاّ أحسم أمري في نهاية يوم طويل، وأن أحسمه في الصّباح». ثمّ ضحكَت. «ربّما كأن أتّخذه حوالي السّاعة العاشرة والنصف، مثلا».

«هل تعزفين لي شيئًا»؟ سألتها لِيَا لتكسر الصّمت. ونسيتُ في تلك اللحظة أن أتنفّس. فهي ما تزال في عمرٍ يرفع فيه الأطفال الكلفة مع الجميع، بطبيعة الحال. ولكنّ الأمر مختلف مع لِيَا. لقد تعلّمَت مبكّرا الفرق بين *«أنت»* و*«أنتم»* ونجحت في ذلك نجاحًا باهرًا وأصبحت تحسن التقدير. فعندما تغضب من سيسيل أو منّي أنا تعمد إلى عدم رفع الكلفة مستحضرة بذلك المجتمع الفرنسيّ في القرن التاسع عشر. لو حدث أن وُجد كلب لا تحبّه، فهي تخاطبه

دون رفع الكلفة، ممّا يثير ضحك ركّاب الباص. رفع الكلفة مع ماري لم يكن حينئذ مصادفة أو عن سهوٍ أو استجابةً لعادة طفوليّة.

ولكنّ ما أفزعني أكثر من رفع الكلفة، هو السؤالُ في حدّ ذاته، فكأنّ لِيَا هي الأستاذة التي يجب على ماري أن تجري اختبارًا أمامها. ويمكن أن يكون هذا، بطبيعة الحال، تصرّفًا أخرق في اختيار الكلمات وعجزًا في فهم الفوارق. وفي مقابل ذلك فإنّ الضغط الذي لم يكفّ عن الارتفاع داخلي، الضغط الذي أثارته مشاعري تجاه ماري أكثر من حبّي لِلِيَا جعلني أكثر تبصُّرًا. هذا الضغط جعلني أكشف صفة ستتجلّى بوضوح أكثر خلال السنوات القادمة دون أن أتمكّن من إيجاد الكلمة المناسبة لتوصيفها. لم يحتوِ تصرّفها على عجرفة، فهي لا تمتلك النَّبرة الآمرة. ليست وقاحةً أيضًا ولا حدسًا. لِيَا طفلة متواضعة. ربّما بالإمكان القول إنّها تبدو صارمة دون حدود، صارمة بشكل يكاد يكون ملموسًا، صارمة مع نفسها قبل كلّ شيء. ولكنّها، بصرامتها تلك، تُلقي أيضًا ظلاً على الآخرين الذين يتباطؤون كلّما غشيهم هذا الظلّ.

تلك الصّرامة تعلّقت قبل كلّ شيء بالعزف على الكمان، بقدّاس النوتات التي يعزفها القوس على الأوتار، النوتات التي عزمت على أدائها مثل راهبة كبيرة. أصبح الجوّ في الغرفة أشدَّ برودة عندما دخلت الراهبة، كما يلقّبها المتبارون في غيابها. ولكنّ هذه الرغبة في التعذيب الذاتيّ التي منحتها هالةً من المناعة وتجاوزِ الذات تجاوزت مجال الموسيقى لتسمّم أشياء أخرى كثيرة، وقبل كلّ شيء تلك الأشياء التي أصبحت لِيَا تندفع نحوها بحماس نهِم ومثير، حين تكون في

حاجة إلى شيء مّا جديد تملأ به فراغ فترات الاستراحة النادرة التي تفصل تمارين الكمان عن واجباتها المدرسيّة. وفي لمح البصر غدت خبيرة في الشاي، في الخزف أو النقود القديمة. وكلّ من يتجرّأ على دخول الدائرة السحريّة للّحظة الراهنة يصبح ضحيّة لنفاد صبرها وحكمها الصارم. وهي لا تعبّر عن هذه اللهفة مطلقًا بكلمات قاسية. وعلاوة على ذلك فهي لا تستعين بالكلمات وإنّما تُرى ملامح وجهها في العادة وقد أصبحت حادّة وشبحيّة إلى الحدّ الذي لا تترك فيه مكانًا إلاّ لابتسامة مهذّبة ملؤها الجمود.

في لحظة مّا كان على ماري أن تدافع عن نفسها ضدّ استبداد ليَا الذي بدأ في ذلك المساء ولم يعرف حدودًا، ولا حدًّا واحدًا على الإطلاق. ولكن في البداية وجدت ماري، وهي التي لم ترزق بأطفال، متعةً في هذا الاستبداد المسلَّط عليها من جهة الطفلة ذات الثماني سنوات. فاتّجهت نحو البيانو الذي وُضع عليه كمانُها. ومن جيب فستانها المصنوع من الباتيك سحبت عصابةً من المخمل الأسود ربطت بها شعرَها حتّى لا يزعجها أثناء العزف. وببضع حركات مقتضبة من قوس الكمان تأكّدت أنّه لا يحتاج إلى دوزنة. وبعد ذلك شرعت ماري باستور في عزف مقطوعة من سوناتا لباخ، وهي المرأة التي أحدثت في السابق ضجّة بمعهد موسيقى بيرن بظهورها وجهوريّة عزفها. يوهان سيباستيان باخ. لقد نطقَتْ هذا الاسم كما لو أنّه اسم قدّيس.

في السنوات اللاّحقة أدمنتُ الاستماعَ إلى موسيقى الكمان، ولكن لم يحدث شيء (هذا ما حدّثتني به ذاكرتي التي تعلّمتُ أن أحذرها أكثر

فأكثر مع مطلع كلّ سنة جديدة. مع كلّ ألم جديد) لا شيء بلغ ذروة ما سمعته في ذلك الوقت. أنا واثق من أنّ سيسيل كانت ستقول: *هذا مذهل!* وتلك هي العبارة المناسبة، لأنّ عزف ماري يملك وضوحًا ودقّة وقوّة وعمقًا جميعُها تجعل أيّ شيء قد يوجد في عالم الصوتيّات يبدو وهميًا. ليولا دي كولون -ما أبعد هذا الاسم وما أنقصه!

أنصتت لِيًا دون أن تقوم بأيّ حركة. ولكنّ هذا الجمود ليس هو الذعر نفسه الذي تملّكها وهي في المحطّة. إذ أنصتت إلى المرأة التي ستصبح أستاذتَها، مستغلّةً في ذلك كلّ تركيزها الصّاحي الذي سيعينها طيلة سنوات على استيعاب كلّ كلمة تقولها ماري. لم تكن لديّ أيّ مشكلة في محاكاة ذلك الانتباه الاستثنائيّ والمفترس. ماري باستور ليست ذات جمال يذهب بعقلي فحسب، وهي لا تملك في عزفها وقراراتها تلك القوة المجرَّدة من العنف فحسب، ولكن أكثر من ذلك، فباستطاعتها أن تستسلم لشغف صوفيّ يقطع الأنفاس وهي تعزف. كم كانت رغبتي في قطف النجوم جامحة! قلت في نفسي ونظرتي تنزلق على طول خطوط وجهها. وهذه الكلمات ظلّت فيما بعد تحوم مثل أطياف صوتيّة في نومي: *الرغبة في قطف النجوم.*

عندما انتهت ماري من العزف اقتربت منها لِيًا ولمست الكمان كما لو أنّه شيء سحريّ، شيء غيبيّ. داعبت ماري شعرها قائلة: «في أيّ ساعة تغادرين المدرسة يوم الاثنين؟» وتمّ تحديد موعد أوّل حصّة.

وهكذا بدأ، بهذه الطريقة المحتشمة والبعيدة عن الإثارة، ما سيجعل موهبتها تنفجر إخلاصًا وإرادةً وشغفًا.

صافحتُ ماري قائلاً: «شكرًا». وهذه هي الكلمة الوحيدة التي قلتها. «نعم» ردَّت وابتسامتها تكشف أنّها تقلِّد تحفُّظي بنطق هذه الكلمة وتحاكيه. بعد مرور سنوات، قبل النهاية بقليل، قالت أكثر من ذلك: «شكرًا لأنّكَ جئتَ بلِيَا».

الكلمات الأخيرة ضاعت وسط الدموع. ألقى فان فلييت سيجارته وأخفى وجهه بين يدَيه وكتفاه تهتزّان.

«تعالَ لنتمشَّ على حافَّة الماء»، قال فيما بعد. أحبُّ كثيرا تذكّر هذه الجملة. وعندما أتخيَّل أنني أتحدّث إلى الرجل الماثل في الصورة، ذاك الذي يرفع قارورته في وضح النهار، أرفع الكلفة أنا أيضًا قائلا: مارتن، لِمَ لم تتَّصل بي؟ ليت كلّ شيء حدث حقًّا كما أتصوّره.

ولكن أعتقد أنّ الشعور نفسه انتابنا نحن الاثنين آنذاك: كنّا بصدد الانفتاح أحدنا على الآخر بطريقة تتطلّب بنية صلبة، على الأقلّ بعض الدَّعامات التي ستصمد أمام كلّ ما يمكن أن يحدث بعد ذلك، مهما يكن، وحتّى لا ينهار أحدنا في الآخر. ظللنا نتحدّث دون رفع الكلفة. وبعد مرور وقت طويل، حدث أن خاطبني رافعًا الكلفة مرّةً واحدة فقط. بدا الأمر عندئذ شبيها بآخر نداء استغاثة لرجل قبل الغرق.

«في ذلك المساء نسينا تناول العشاء»، تابع فان فلييت حديثه وهو على حافَّة الماء. لم نتبادل إلاّ القليل من الكلام. كانت لِيَا تعزف نشازًا بينما جلستُ أنا على مكتبي أتأمّل صور ماري كوري.

كان يزعجني أن تبدو ماري كوري عاديَّة بالقياس إلى أناقة

ماري باستور. فحقدت عليها من أجل ذلك. لكأنّها كانت تتخلّى عنّي. وحدهما عيناها ظلّتا محور المقارنة. وبطبيعة الحال كانت عينَا السيّدة كوري تفتقدان الطاقة الضوئيّة واللّمعان القويّ الساخر اللّذين يجعلان نظرة ماري باستور الخضراء لا تقاوم إلى حدّ كبير. وفي مقابل ذلك لاحت في عيني هذه المرأة، الوحيدة الحائزة على جائزة نوبل في العلوم، رقّة وطيبة خارقة. سبق أن قصصت صورتها من الكتاب الذي رجّني بفضله هانس لوتي فجأةً، وأنقذني في النهاية. عيناها اللّتان كان يمكن أن تكونا لراهبة ظلّتا ملجئي وقتًا طويلاً، وأنا طالب مشغول جدًّا وعلى وشك التخلّي عن كلّ شيء في سبيل أن ألتحق بأليخين وكابابلنكا وإيميل لاسكار[1].

«إصراري هو السّرّ الوحيد لنجاحي»، هذه الجملة لم تقلها ماري كوري وإنّما هي للويس باستور. لكنّني نسَبتُها إلى الباحثة الرهبانيّة الكبيرة، فهما على أيّة حال شخصٌ واحدٌ. كانت سيسيل تشعر دومًا بشيء من الغيرة من ماري كوري. وفي فترة زواجنا سقطت صورة ماري على الأرض مرّتين ممّا استوجب إعادة تأطيرها. كان باستطاعة السيّدة كوري أن تزاول دراستها يا سيسيل أليس كذلك؟ بطبيعة الحال، فسيسيل تشرف آنذاك على تكوين الممرّضات. وكان أطبّاء شبّان كثيرون يطلبون منها النّصيحة. ولكن كلّ ذلك لا يساوي شيئًا أمام قناعتها المرّة بأنّها قادرة هي أيضًا على أن تصبح طبيبة جيّدة، باحثة جيّدة لو لم يخسر والدها كلّ أمواله في القمار وفي السُّكر. كان

---

(1) أسماء لاعبي شطرنج مشهورين.

عليها أن تتعلّم مهنة في أسرع وقت ممكن، وأكثر من ذلك مهنة تساعدها أيضًا في علاج والدتها المريضة. في الفترات المظلمة من حياتنا المشتركة تعمد إلى تحويل كآبتها ضدّي أيضًا. «حسنًا، والداك غائبان على الدوام، هذا ما اعتادت قوله، ولكنّك لا تعرف كم أنت محظوظ».

كانت لِيًا يائسة من عدم قدرتها على الإمساك بقوس الكمان على نحوٍ سليم ممّا يدفعها إلى أن تضرب بقدمها على الأرض وقد نفد صبرها. حاولنا معًا تذكّر أسماء عازفي كمان عُلِّقت صورهم في قاعة الموسيقى التابعة لماري.

قبل أن أخلد إلى النّوم تراءت لي مرّة أخرى ابنتي وهي تطلب من ماري أن تعزف لها مقطوعة من اختيارها. ورأيت نظرتها المستبدّة وطريقة انتصابها بكبرياء ما تزال جديرة به. عندئذ تذكّرت، مرّة أخرى، خطوتها الثقيلة وعينيها المحدِّقتين في الأرض وهي تخرج من المدرسة إلى جانب كارولين. ولم يمُرَّ على ذلك أكثر من يومين.

الفصل السابع

كان فان فلييت نائمًا عندما سرنا في طريق سانت-ريمي، وهو ما أسعدني لأنّ شاحنات كثيرة اقتربت منّا. وقبل دخول المدينة بقليل، اضطررت فجأةً، إلى كبح سرعة السيّارة. فاستفاق فان فلييت فزِعًا وفرك عينيه. أرغب في إطلاعك على شيء، قال. وقادني حتّى المصحّة التي كانت قبل الآن ديرًا.

«هنا»، قال بعد أن عبرنا الحديقة العامّة، «هنا راقبتُها بالمنظار في انتظار أن تخرج من الحديقة، حوالي ساعتين أو ثلاث. لقد نفد صبري ببساطة. أعرف جيّدا أنّه ينبغي عليَّ ألاّ أزورها -بسبب المغاربيّ- ولكن يجب أن أراها عن بعد، على الأقلّ. فركبت السيّارة باتجاه بيرن وسرتُ في غالب الأحيان ليلاً. لقد حفظت المسافة عن ظهر قلب. كنت أسمع موسيقى باخ و....» ابتلع ريقه ثمّ تابع: «في الفندق انتهى الجميع إلى الترحيب بي كما لو أنّني صديق قديم. في المرّة الأولى ارتكبت خطأ الإشارة إلى لِيَا، بعد ذلك أصبحوا يستقبلونني دومًا بالقول: آه إنّه والد ليوني»، كم كان ذلك مؤلمًا!

«لقد حطّمتُ حياة ابنتي بكمان»، هذا ما اعتقدتُه وأنا أغادر تلك الأماكن. كم مرّةٍ رأيتها جالسة بلا حراك مستندة إلى الحائط،

هناك، من الجانب الآخر، وقد ضمَّت ساقيها بين ذراعيها، أو وهي تجرُّ بتردّد ودون تبصُّرٍ مُشطًا على طول الأخدود، أو وهي تقف أمام نافذة غرفتها هادئة تتأمّل الرّيف من بعيد، كأنّها شخص يشعر بأنّه غريب تمامًا عن هذا الكوكب.

ولكنّ أفظع الصور هي تلك التي ظهرت فيها وهي تداعب بإبهامها القصير طرف سبَّابتها اليمنى المثنيَّة. إنّها حركة لطيفة ودائريّة تقطعها من وقت إلى آخر لتحملَ إصبعها إلى شفتيها وتبلِّله بطرف لسانها. كم مرّةٍ رأيتها تقوم بهذه الحركة، في ما مضى، وهي تشتغل على مقطع يتضمّن نقرات عديدة! كانت نظرتها ثابتة على الدوام، حتّى عندما تغمض عينيها وهي تبلّل إصبعها، وكنّا نلمس الاهتمام من وراء الجفون المغمضة، اهتمامَ شابّة حريصة على علمها ومتألّقة في مهنتها. أيّ فرق رهيب مع وضعها الراهن! أيّ فرق رهيب! بعد أن بحثتُ عنها زمنًا طويلاً اكتشفتها أخيرًا جالسة هنا، خلف حزمة من الخشب المحروق. جلستْ وظهرُها منحنٍ وهي تداعب طرف إصبعها كما حدث في السابق. بدت نظرتها تائهة، تأتي من اللامكان دون أن تذهب إلى أيّ مكان. كأنّها تتذكّر هذه الحركة وربّما الموضع المعطوب أيضًا لشدّة ما أمسكت بالأوتار، ولكنّها نسيت ما يصلح له هذا. كرّرت بشكل آليّ تلك الحركة التي تباطأت أكثر فأكثر قبل أن تتوقّف تمامًا.

مشهد حركة لِيَا الضائعة رافقني بعد ذلك في كلّ شيء أقوم به. لقد أصبحتُ مهووسًا تمامًا بهذا الجزء من حياتها المحطَّمة، متسائلا: أين ذهب كبرياؤك يا طفلتي؟ وتلك الثقة التي بإمكانها أن تهبك

سحنة لامبالية؟ واستبداد التمارين القاسية التي حرمتني النوم؟ رغبتك الغامضة في القيام بالخطوة الثالثة قبل الأولى أو الثانية؟ المشروع المجنون الذي أخفيته حتّى عن ماري نفسها، وهو عزف كابريس باغينني قبل عيد ميلادك العشرين؟ أين ذهب كلّ هذا؟ إلى أين؟ لماذا لا تقفين خلف هذا الخشب اللعين منتصبةَ القامة، رافعةً حاجبيك في دهشة، ساخرةً من إمكانيّات الآخرين المحدودة لتبيّني لهم ماذا يعني نغم، ماذا يعني نغم حقيقيّ؟ في تلك الفترة وخلال السهرة الأولى عند ماري، أفزعني كبرياؤك عندما تمنّيتِ أو بالأحرى طالبتِ بأن تستمعي إلى عزفها. لاحقًا أيضًا شعرت بالجمود وأنت تجعلين الآخرين يستشعرون سطوتك الباردة، تلك التي ليست في الواقع سوى الإرهاق الذي غمرك بعد أن بلغتِ تلك الأهداف الشاهقة جدًّا، الأهداف التي تحدّدينها بنفسك. لم أخبرك قطّ بأنّني أحسست بالإهانة أحيانا من لهفتك كفنّانة رائعة، بهزّة رأسك السّريعة، بضجرك عندما تضطرّين إلى انتظار الآخرين بسبب بطئهم الشديد مقارنة بك. عندما يصبح الأمر خطيرًا، أرى في حلمي، بعد ذلك، أنّني أجلس قبالتك أمام رقعة الشطرنج، دافعًا إيّاك للوقوع في الفخّ بكلّ قسوة لأستيقظ بعد ذلك يملؤني شعورٌ بتأنيب الضَّمير. شيء جميل ندين به نحن الاثنيْن لهاجس صامت وهو أنّكِ في الواقع لم تلمسي أيّ قطعة في لعبة الشطرنج. ومع ذلك لم أتمنَّ شيئًا أكثر من رؤيتك تبرزين من جديد وجه ابنتي الواثقة من نفسها، الملهوفة والصّارمة حدَّ الشعور بالخوف. كنت سأفضّل ألف مرّة إحدى تلك التعابير حتّى الجارحة منها، على هذه النظرة الضائعة خلف الكمّ الهائل من الخشب الملعون.

«لم يُتح لها أن تعيش فترة الشباب»، قال المغاربيّ. ورمقني بنظرته السوداء الطافحة بلوم لا يقلّ عتمة عن الاتّهام بالقتل. ماذا يعني هذا؟ ماذا يعرف عنكِ هذا الرجل صاحب المئزر الأبيض؟ هل لمحك وأنت عائدة في كلّ مرّة من عند ماري ووجنتاك شديدتا الحمرة؟ هل رآك وأنت تأكلين واقفة في المطبخ لتتمكّني من متابعة التمارين بسرعة؟ هل شاهد البقع الحمراء التي علَت رقبتك خلال بداياتك في المدرسة، عندما اندفعت موجة من التصفيق نحوك؟ هل كان هناك في جنيف والناس يضربون الأرض بأرجلهم ويُصَفِّرون لك في حماس؟ لقد كنتِ سعيدة، أستطيع الجزمَ بذلك، حتّى وإن بدت لكارولين وأبويها، من سنة إلى أخرى، سحنات مشكّكة كلّما تحدّثنا عن نجاحك.

«لم يُتح لها أن تعيش فترة الشباب». كان يومًا ماطرًا جدًّا ذاك الذي قيلت فيه هذه الجملة، جملة ابتللتُ بعدها حتّى العظم لأنّني ضربت على الشاطئ لساعات بقدمي في العلبة الحديديّة البيضاء نفسها، حتّى لا أختنق تحت سطوة كلماته. سنة بعد أخرى، حاولتُ، دون جدوى، إقناعك بالذهاب إلى الملاهي على الأقلّ في يوم سوق البصل. فكان هذا ردّك: «أفضّل أن أتمرّن». *«أفضّل أن أتمرن»!* مازلتُ أسمعك تنطقين هذه الكلمات إلى اليوم، وإلى اليوم أيضًا مازلت أسمع تلك اللّهفة وذلك اللّوم الحقيقيّ في صوتك، اللّهفةَ واللّومَ اللّذيْن يعنيان أنّه يتحتّم عليّ دومًا أن أعرف تلك الطفلة، طفلتي الاستثنائية. *«أفضل أن أتمرّن»*. وددت لو غرزت هذه الجملة كلمة كلمة في نظرة المغاربيّ الغامضة لأدخل في عينيه، قسرًا وبلا انقطاع، لومَه المخيف لي لأنّني سرقت منكِ شبابكِ، ولأنّني فتحت

بذلك البابَ أمام مرضك. أودُّ أن أنفي ذلك اللَّوم عميقًا جدًّا حتّى أصل إلى مؤخِّرة الرأس، حيث تولد الأفكار، حتّى يُترَك هذا اللوم ويتلاشى تحت ثقل تلك الأحداث التي لا يعرفها أحد غيري.

الملاهي، حادثة الملاهي لا تتناقض مع ما أقوله، كلاّ، حتّى هو لا يلومني على ذلك. في أحد أيّام فصل الرّبيع وبعد أن بلغتِ الثالثة عشرة من العمر، عاد أولئك الباعة المتجوِّلون من جديد فرغبتِ فجأةً في اللّحاق بهم. كان الأمر عبارة عن التقاط الحلقة الذهبيّة بعد حلقات فضِّية عديدة، وذلك بالمرور من أمام ركح العرض حيث تنتظر الحلقات أن تنزلق إلى الأمام ويسحبها أحدهم. بدَوتِ من بعيد الأكبر سنًّا. ومرَّت ثانيةٌ شعرتُ فيها بالخجل، فقد بدا لي هذا الأمر على شيء من السّخافة. هذه الفتاة الشابّة التي تبدو بالغة نسبيًا بعثت فيَّ متعة طفوليّة، متعة متعلِّقة بماضٍ ضائع وسط موسيقى العرض تلك وصراخ الأطفال المبتهجين. في تلك اللحظة أيضًا، علت رقبتَك بقعٌ حمراء وأصبحت نظرتك مليئة بالأمل وبالانتظار كنظرة طفل في الخامسة من عمره. وجاءت الحلقة الذهبيّة في سرعة البرق فانتزعتِها. وبعد لحظات من توقُّف العرض، ركضتِ نحوي وقد اغرورقت عيناك بالدموع. حاولتُ سبر أغوار تلك الدموع، ولم أقدر على الجزم أهِي دموع فرحٍ سببُه الحلقة الذهبيّة أم دموع حزنٍ ذرفْتِها على ماضٍ طفوليّ ضائع. مسحتِ تلك الدموع الغامضة ووضعتِ الحلقة على كفِّك. كنت تعرفين أنّ عليك إرجاعَها إلى الرجل صاحب قبّعة رعاة البقر، لكنّ هذا لم يهمّك كثيرا. «سأهديها لماري»، قلت لي وسحبتني من يدي. في النهاية أعادتها ماري إليك. وذلك أقسى ما يمكن أن تفعله بك.

مرَّ بنا عدد من السيَّاح يحملون أجهزة تصوير عند لحظة صعودنا إلى السيّارة. فنفخ فان فلييت بازدراء.

«فان غوغ، بالإمكان رؤية غرفته من هنا. إنّه تلصّص متأخّر. كما لو أنّه لم يكفِ أن يسكن هذا الجحر ويقطع أذنه، كما لو أنّ ذلك ليس *كافيا*»!

أمسك ياقة قميصه بكلتا يديه. فتحها وأغلقها مرّات عديدة، محكِمًا قبضتَه عليها إلى أن ابيضَّ عنقه. ظلَّ يفتح الأزرار ويغلقها دون توقّف. وددتُ لو أنّ توم كورتيناي حطّم فكَّ المدير. كنت في كلّ مرّة أرثي لحاله منذ عرض ما بعد الظهر إلى موعد العرض المسائيّ. ولُمتُ توم حقًّا لأنّه لم يمض في الأمر حتّى النهاية. أجل لُمتُه على ذلك.

دخلنا إلى الفندق حيث يقيم فان فلييت الذي ظلَّ جالسًا متخيّلاً أنّه ما يزال في المصحّة.

«بدأ ذلك على نحو خفيّ، بكلمة خاطئة هنا وجملة غير لائقة هناك، أيّ منطق غريب! حدث ذلك في فترات متباعدة حتّى إنّنا نساه في الأثناء. احترتُ أمام غرائب كهذه: «ماري تعاني من الرّهبة فهي تتمتّع بشهرة واسعة» أو «السيّدة زوغ تطلب بشدّةٍ أن أستعمل الطباشير كمُثبِّت ليدي بدلاً من الراتينج». وفي أحد الأيّام انتفضتُ بشدّة إلى درجة أنّها لاحظت ذلك. «كان نيكولو، باعتباره موسيقيًا، أفضل عازف كمان بفضل ضخامة يديه المجنونة». وكانت تسمّى باغانيني باسمه الأوّل دومًا كما لو أنّه صديق حميم.

ثمّ مرّت من جديد أسابيع ولم يحدث شيء جدير بالملاحظة.

لكنّني شرعت في كتابة هذه الحوادث وأخفيت الدفتر في عمق مكتبي كأنّني أخفيه عن نفسي. شعرتُ بالخوف، بخوف جنونيّ، غير أنّني لم أبدأ البحث عن أقرباء لسيسيل إلاّ بعد مرور عشر سنوات. إنّهم أشخاص فرَّت الأشياء من بين أيديهم أيضًا. لكنّني لم أعثر على شيء واضح. لقد مرّ على هذا الأمر وقتٌ طويل، هذا ما ردّدوه.

أرغب في الذهاب إلى الفندق كي أستريح، قلت له.

«ولكنك ستعود. أليس كذلك»؟ كانت نظرته حائرة، نظرة طفل يخاف الظلام.

أجل سأعود، سأعود للعشاء.

الفصل الثامن

كنت مستلقيا على سريري. وتراءى لي فان فليت في الظلّ. تراءى لي وهو يضحك، وهو يسحب ياقة قميصه، وهو يمسك بمنظاره من خلف حاجز المصحّة المشبّك. متى أثار أحدهم شفقتي آخر مرّة إلى هذا الحدّ؟

كنت أفكّر في كيب كود[1] وفي سوزان، المرأة التي سبقت جوانا. *أدريان، هل هناك شيء يمكن أن يزعجك؟ لا شيء على الإطلاق؟ هل هزّك شيء مّا من قبل؟* «كنت آنذاك أعمل جرّاحا في الأقسام الاستعجاليّة، بيدين غارقتيْن في الجروح من الصباح إلى المساء أو أجري عمليّات على أعضاء ممزّقة. يجب ألاّ نتأثّر بهذه المشاهد. هذا ما كنت أقوله، وإلاّ فلا جدوى منّا على الإطلاق. *أجل ولكن يبدو أنك تركت روحك عذراء*»!

في الصباح الذي تلا هذه الكلمات، استيقظت باكرًا كما لو أنّه طُلب منّي إجراء عمليّة جراحيّة. وركضت فجرًا على طول الشاطئ. وفي الليل نمت على الكنبة. لا يمكن لأحد أن يظلّ نائمًا إلى جانب شخص يعامله كوحش: في صباح اليوم التالي، ذهبنا كلّ في طريقه.

(1) شبه جزيرة تقع جنوب شرق ولاية ماساتشوسيتس.

«إلى لقاءٍ»: قلنا ونحن نغادر رافعين أيدينا. كان لهذه الكلمة في ذاكرتي رنينٌ شفّاف وقاسٍ شبيه برنين مبضع أسقطناه سهوًا.

خلدت إلى النوم. وعندما أفقت رأيت السّاعة تشير إلى السّابعة. وكان الوقت ليلاً عندما اتصلت بي ليسلي على هاتفي المحمول لتخبرني بأنّني نسيت ساعتي في حمّامها.

«أعرف»، قلت، ولكن في الحقيقة أنا لم أشعر بفقدانها إطلاقا».

- أنت بخير، بصحّة جيّدة، أليس كذلك؟

- ليست لديّ أيّ فكرة، قلت: لا أعرف أيّ شيء عن حالتي.

- لقد حصل لك شيء، أو لعلّ شيئا مّا سيحصل لك قريبًا.

- كيف جرت الأمور في ما مضى، في المدرسة الدّاخليَّة؟ بالنسبة إليك. أقصد كيف وجدت هذا؟

- يا إلهي، ماذا عساي أقول لك الآن، في الهاتف؟ لا أعرف... أحيانا أعتقد أنّني وحيدة الآن من جديد صحبة الصّغير، لأنّ... لأنّ...

- لأنّنا لم نكن عائلة حقيقيّة؟ لأنّك لم تكوني قادرة على تعلُّم هذه الأشياء؟ هذا ما تفكّرين فيه، أليس كذلك؟

- لست أدري، ليس هذا تمامًا. آه يا أدريان، لست أدري حقًّا. لم تكن الأمور سيّئة إلى هذا الحدّ في المبيت. كنّا نشعر بالاستقلاليّة. فقط في المساء أحيانا: آه، اللعنة.

- هل رغبت في العزف على آلة موسيقيّة؟

- أو تطرح مثل هذه الأسئلة اليوم؟ ليست لديّ أيّ فكرة. لا

أعتقد ذلك، لسنا عازفين موهوبين. أليس كذلك؟

- ضحكت، ثمّ أردفت: «إلى لقاء، لِيس، نتواصل».

- أجل اتفقنا. وداعًا أبي.

كان فان فليبت ينتظر في غرفة الطعام الخالية بالفندق. وأمامه دورق من النبيذ الأحمر وقارورة مياه معدنيّة. لكنّه لم يتناول غير الماء.

حدّثته عن حواري مع ليسلي.

«مدرسة داخليّة»، قال، «لِيَا ومدرسة داخليّة». «ما كان لهذا أن يخطر على البال... كان يمكن لهذا أن يبدو غير معقول». صبّ كأس نبيذ أحمر وعبّه. «مع أنّ... المغاربيّ... كان عليها ألاّ تنزل هناك. ماذا نعرف نحن عن عمق هذه الأشياء، اللعنة ماذا نعرف نحن عنها؟».

طلبت أنا أيضا نبيذًا أحمر. فابتسم.

«شقيق سيسيل يعاني من صعوبات في القراءة وفي الحساب. إنّه لا يستوعب فكرة الكمّية. هذا جنون ولكنّه شيء لا يفهمه مطلقًا. وهذه الحالة تسمّى استحالة التّرقيم. لم تستطع سيسيل مقاومة خوفها من أن ترث لِيَا هذا العيب إلاّ بتعليمها القراءة والحساب منذ سنّ الرابعة. وهكذا أصبحت لِيَا تقرأ لأغاتا كريستي في سنّ السادسة وتفوّقت على الجميع في الحساب الذهنيّ. لم أثق بأنّنا على حقّ ولكنّني وجدتُني فخورًا أيضًا بابنتي التي تتعلّم بتلك السّهولة. سنوات الدراسة الابتدائيّة مثّلت فسحة بالنسبة إليها، إذ وفّقت بين واجباتها المدرسيّة وتمارين الكمان. أفترض أنّ كارولين التي تجلس إلى جانبها في القسم كانت تنقل منها مرارًا وتكرارًا في مادّة الحساب.

وأعتقد أيضًا أنّ أبويْها على علم بذلك، وأنّ الفرحة الماكرة التي رمقا بها لِيَا لاحقًا، عندما بدأت تتعثّر وترنّح، متأتّية من ذلك الأمر.

سرعان ما أصبحت لِيَا نجمة المدرسة، يلاطفها الجميع ويحسدها الجميع أيضًا. وبما أنّها تتردّد على ماري فور انتهاء الدرس، فغالبا ما يراها الآخرون برفقة كمانها. أمّا حياة لِيَا الثانية فتتمثّل لهم أيضًا عندما تعمد في حصّة الجمباز إلى رفض القيام بأيّ حركة من شأنها أن تعرِّض يديها للخطر. لم تكن تتّفق مطلقًا مع إيريكا زوغ، المعلّمة التي أخضعتها لمقارنة قاسية مع ماري، هذه المرأة التي لم تُخْفِ أنّها تعامل لِيَا باعتبارها متقلّبة المزاج وهستيريّة بكلّ بساطة. لكنّ الأمر اختلف مع الأستاذ الغضوب الذي أصبح طيِّعا بين يدي لِيَا. توقّعتُ دومًا حدوث إشارات مخيفة محتملة كلّما تحدّثَت عنه أو تحدّث هو عنها، ولكنّه كان يعبدها عن بعد. ورؤيته وهو يدوس كلّ مبادئ العدالة والمساواة كلّما تعلَّق الأمر بلِيَا تثير الشفقة. كانت كما قلت لك نجمة، نجمة حقيقيّة.

براعتها في العزف على الكمان أيضًا وعدتْها بالنجوميّة. ففي سنوات عملها الأولى صحبة ماري، كان كلّ شيء ينجح مع لِيَا. الأنغام أصبحت من أسبوع إلى آخر أكثر صفاءً وأكثر رسوخًا، الفيبراتو فقد رعشة البدايات وغدا أكثر انتظامًا واعتدالاً. أن يجد شخص مّا راحته في كلّ الوضعيّات خلال وقت قصير كهذا هو شيء جديد على ماري لم ترَ مثله على امتداد سنوات عملها الطويلة، وكان باستطاعة لِيَا أن تضحك حدَّ البكاء وهي تتذكّر مدى افتنانها بقدرة ليولا دي كولون على معرفة أين توقف يدها المنزلقة لتغيِّر الوضعيّة.

الأوتار المزدوجة تمثّل، بطبيعة الحال، كابوسَ جميع المبتدئين، وقد بدت صعبة بالنّسبة إلى لِيَا، أجل بالنّسبة إليها أيضًا. ولكنّ عملاً بلا هوادة منحها في وقت قصير الثقة اللازمة. وكلّما ازداد شيء مّا صعوبة تحوَّل إلى هاجس. الأمر يشبه تمامًا علاقتي بالشطرنج».

ذهب فان فلييت إلى الحمّام. وعندما عاد، تهيّأنا لتناول العشاء. وبذهن شارد طلب آليًا الطبقَ الذي طلبتُه. وكما الشأن في السابق، وهو وحيد على حافّة الماء، اجتاحته الذكرى، ذكرى موجعة.

«النوتات، قال، كانت لِيَا تقرؤها كما لو أنّها رموز فطريَّة نابعة من ذهنها وبات من غير المحتمل عندي أن أظلَّ عاجزًا عن الوصول إلى هذا الجزء منها، ذاك الذي أصبح، يومًا بعد يوم، يفوق الأجزاء الباقية أهميَّةً. كان يجب أن أقدر أنا أيضًا على قراءة النوتات. سألتها عمّا إذا كان باستطاعتي أن أتأمَّلها من فوق كتفها وهي تعزف. لم تقل شيئًا ورفعت قوس الكمان. وبعد بضعة موازين توقَّفت قائلة: «هذا... غير ممكن يا أبي». عكست تلك الكلمات اضطرابها وانزعاجها ولامتني لأنّني أجبرتُها على مخاطبتي بهذا الأسلوب. حصلتُ على نسخة ثانية من التَّوْلِيفَةِ الموسيقيّة وطلبت منها الجلوس في ركن على أريكة أثناء عزفها. لم تقل شيئًا وحدَّقت في الأرض. مع أنّ ماري يرافقها شخص مّا وهي تعزف هناك في غرفتها، قلت في نفسي. ولكنّها ماري، الأمر مختلف مع ماري، كلّ شيء مختلف مع ماري.

خرجتُ من الحجرة وأغلقتُ الباب. مرَّ وقت طويل قبل أن تعاود لِيَا العزفَ. فغادرتُ المنزل وذهبتُ في زيارة لكرومفولز. واقتنيت من هناك كتابَ التّرقيم الموسيقيّ للمبتدئين. رمقتني

كاتارينا وولتر بنظرة ذكيّة وحييّة: «ليس هذا بالأمر الصعب»، قالت عندما شرعتُ في تصفُّح الكتاب. اِقرأه من أوّله إلى آخره وبعد ذلك اطَّلعْ على التوليفات أثناء عزف لِيَا، في الحجرة المجاورة لو أردت ذلك. ليست في حاجة إلى رؤيته». هذا مدهش. كان يبدو أنّها تقرأ أعماقي، أعماقنا نحن الاثنيْن كما لو أنّها تقرأ كتابا».

صبّ فان فلييت لنفسه شرابًا وعبّ كأسه دفعة واحدة كما لو أنّه ماء. «يا إلهي لماذا لم أكثر من الحديث إليها ولماذا لم أستمع إلى تحذيراتها لاحقا؟».

تناول قلما، فضَّ المنديل الورقيّ وخطَّ ثلاثة أسطر رسمَ عليها نوتات. «انظر، قال، هذه بداية *مقطوعة لباخ على سلّم مي كبير.* النوتات ذاتها التي عزفتها ليولا دي كولون في المحطّة آنذاك». ابتلع ريقه. ثمّ أضاف: «وهي أيضًا النوتات نفسها التي عزفتها لِيَا مؤخّرا قبل أن تغرق في... التِّيه».

أحكم قبضته على المنديل في بطء، محطِّما النوتات المشؤومة. أترعتُ كأسَه فاحتساها وبعد لحظة عاد إلى الحديث بهدوء ووضوح.

«فعلتُ ما أملَتْه عليَّ كاتارينا وولتر. تابعتُ التّوْليفات في الحجرة المجاورة ولِيَا تعزف، ولكنّ هذه التّوْليفات ظلّت بالنسبة إليّ عجيبة على نحو غريب. واحتجت إلى بعض الوقت كي أعرف السبب وراء ذلك: لم أقدر على عزف الألحان المناسبة. ظلّت النوتات في نظري عديمة التأثير، مجرَّد رموز عجزتُ عن فعل أيّ شيء بها. وهكذا ظلّ هذا الجزء من لِيَا عصيًا عليَّ رغم كلّ الجهود التي بذلتها.

في أحد الأيّام، وبينما كانت لِيَا في المدرسة دخلت غرفتها، أخرجت الكمان من العلبة وثبّته بين الكتف والذقن، مقلّدا وضعيّة أصابعها، ثمّ قمت بأوّل حركة من قوس الكمان. وبطبيعة الحال، كان لحنًا مثيرًا للشفقة ذاك الذي صدر عن تلك الحركة، ليس أكثر من صوت احتكاك. ولكن مع ذلك، ليس هذا هو السبب الذي جعلني أنتفض، بل شعور غير متوقّع، هجمة تأنيب ضمير عنيفة، ضربٌ من التشنّج اللاّمرئي والمُشِلّ للحركة في الوقت نفسه مصحوب بإحساس بالعجز. بحركات عصبيّة، أرجعت الكمان بسرعة إلى العلبة، وتيقّنت أنّ كلّ شيء عاد كما كان من قبل. ثمّ رجعت إلى غرفتي، جلست على أريكتي وانتظرت أن تهدأ دقّات قلبي. في الخارج أسدل الليل ستاره، عندئذ أدركت أخيرًا أنّ ما استبدّ بي ليس شعورًا بالذنب كالذي يجتاحنا في العادة ونحن نفتّش في أمتعة الآخرين، بل شيئًا أشدّ خطورة وفي غاية الجدّ: في محاولة لتقليد عزف الكمان تجاوزت خطًا لا مرئيًا يفصل، أو يجب أن يفصل حياتي عن حياة لِيَا حتّى تصبح حياتها ملكا *لها* كليًا. ترك هذا الشعور أثرًا عند لِيَا حين شرحت لي بغضب كيف إنّه من المستحيل أن أقرأ النوتات من فوق كتفها وهي تعزف. والآن تذكّرت المقاومة التي فرضتها عليّ فتاة الثماني سنوات بعد عزف ليولا في المحطّة عندما رغبتُ في سحبها نحوي كما اعتدتُ ذلك.

وماري؟ قلتُ في نفسي، هنا لم يوجد الخطّ. على العكس كانت لِيَا تجهد نفسها لتصبح مثل ماري في عزفها وفي كلّ شيء. هل وُجِد خطّ آخر لم أرَه، بكلّ بساطة؟».

أخذ فان فلييت يحدّق فيَّ. لم أكن أعرف أنّه ربّما تمنّى إجابة تعبّر

عن الرأي المحايد لغريب، أو أنه يبحث عن نظرتي فقط كرجل يرغب في أن يكون معروفًا ومقبولاً على الرغم من ضيقه وعدم شعوره بالأمان. لمستُ ذراعه -من يدري لماذا فعلت ذلك؟ من يدري أكانت تلك هي الحركة المناسبة، حركة بإمكانها أن تتلاءم مع هشاشته. نسي سيجارته مشتعلة في المنفضة وأشعل واحدة أخرى. حوّلتُ نظري عنه وأخذت أحدّق في المرآة الكبيرة التي تعكس صورتينا معًا قائلا في نفسي: رجلان أمّيان في كلّ ما له علاقة بالقريب أو بالبعيد. أمّيّان في مجال الحميميّة والمسافة.

«عندما اجتازت ليَا بابنا، في ذلك المساء، تابع فان فليت، اعتقدت أنّني أراها للمرّة الأولى كأنّها شخص يتقن *فعل شيء* لن أقدر على إتيانه مطلقًا. بل هي الشخص الذي لن أكونه أبدًا: عازفة حياتُها نوتات وألحان. «ماذا حدث إذن؟ ماذا دهاك»؟ سألتني.

-لا شيء، أجبتها، لا شيء. هل ترغبين في أن أعدّ العشاء؟

لكنّها فتحت الثلاجة وقضمت قطعة نقانق باردة مع قطعة خبز. «شكرًا، ولكنّني سأذهب لأتمرّن قليلاً، يوجد مقطع ما تزال ماري غير راضية عنه». ثمّ اختفت في غرفتها وأغلقت الباب.

لم أستطع المساعدةَ إلاّ في نقطة واحدة: شرحتُ لها فيزيائيّةَ ألحان المزمار. كانت شَغُوفًا بصفاء الألحان البلّوريّ، بمحاولاتها لبلوغه منذ أوّل لمسة.

من بين المسائل التقنيّة لم توجد إلاّ مسألة واحدة كان عليها أن تقاومها حتّى النهاية وهي الزّغردة. في الغالب، لم تكن تلك الزّغردات

توحي بالخفّة الحريريّة ولا حتّى بانتظام رقّاص الإيقاع التي يفترض أن تبلغه. عندما تتواصل هذه الزّغردات وقتًا طويلاً يتسرَّب إليها الوهن وقوى مصطنعة وعصبيّة تترك انطباعًا لمجهود مضنٍ ولحالة من التوتّر. فتعمد لِيًا إلى تدليك أصابعها المتشنّجة في سخط وتغطّسها في الماء الساخن. وتدعك كرة لتقويتها وهي تشاهد التلفاز.

لكنّ ابنتي كانت سعيدة. إنّها مغرمة بالكمان، مغرمة بالموسيقى، مغرمة بموهبتها، وهي بطبيعة الحال مغرمة بماري.

«مغرمة»؟ توقّفت فجأةً يد المغاربيّ القاتمة التي أمسكت القلم. «نعم»، قلت ذلك مستجمعًا كلّ قواي لأمنح هذه الكلمة النبرةَ السوقيّة التي بدا لي أنّها يجب أن تتضمّنها، كلمة متّهم وقح يدفع بالمفتّش خلال التحقيق إلى الفشل دون رحمة. حتّى إنّني ضممت ساقي كشرّير وقح يتلذّذ بآخر ذرّة حريّة وأصغرها: ألاّ يمنح المفتّشَ أيّ كلمة واعدة.

«تريد أن تقول...».

«كلاّ»، أردفت بصوت بدا لهاثًا مكبوتًا أكثر منه رفضًا معلنًا. أخذ الطبيب يُخرج لسان القلم ويُدخله، وصدر عن ذلك صوت قويّ، أكثر قوّة ممّا يصدر عن المروحة من دويٍّ وهفيف. واحتاج إلى وقت طويل حتّى يتحكّم في غضبه.

ما طبيعة تلك العلاقة إذن؟ كيف عليّ أن أوضّحها له؟ كيف عليّ أن أوصّفها *لأيّ كان*»؟

أنا واثق من أنّ ماري تملك الكلمات المناسبة لتوصيف علاقتها

بلِيَا. ولكنّني لم أسألها عن هذا الأمر قطّ. في الواقع، لم أرغب في معرفته. أعرف ما أراه وأسمعه، ولا أدري هل ثمّة شيء آخر بعدُ يجب معرفته عدا ذلك. من المستحيل توجيه النقد إلى ماري، سرعان ما أدركت هذا الأمر. كان من الأفضل ألاّ أسأل عن شيء بخصوص ماري. من غير الممكن عدم الاستماع بتركيز مُضْنٍ إلى حديث يخصُّ ماري. وعندما أنسى شيئًا مّا بخصوص ماري مهما تكن أهمّيته يلوح الشكّ على وجه لِيَا. لو أنّ شخصًا تجرّأ على تسمية نفسه ماري فإنّ ذلك قد يغدو سببًا في تأجيج غضبها. من غير المعقول أن تمرض ماري، من المستحيل أن تحصل على إجازة. وأصبحت أتوقّع كلّ يوم أن تطلب لِيَا فستانا من الباتيك ووسائد من الشينتز. ولكن كل مايحدث بينهما لم يكن بسيطا إلى هذا الحد.

على أيّة حال، الأشياء مختلفة عمّا أتصوّره. فعندما أتوقّف أيّام الظهر الشتائيّة أمام منزل ماري لأتأمّل عزف الظّلال الذي تؤدّيه ماري ولِيَا من خلف الستائر، أشعر أنّني مستبعَد وأحسدهما على شرنقة النوتات والكلمات والحركات التي بدت لي منسوجة حولهما دون أن تحْوي داخلها أيًا من تلك الاحتكاكات والتهيجات مثلما حصل يومًا بعد يوم في المعهد، منذ أن أفهمتهم في كلمات قليلة أنّ اهتمامي سيكون في البدء بلِيَا ثمّ بلِيَا أيضًا وبعد ذلك فقط بالمخبر.

في البداية أخطأتُ مرّة وطرقتُ باب ماري. حدث ذلك خلال الخمس دقائق الأخيرة من الحصّة التي حضرتُها كمستمع. لم يسبق أن انزعجت إلى ذلك الحدّ في أيّ مكان. في حلمي، رأيت ماري ولِيَا وهما تغادران قاعة الموسيقى لا غاضبتين ولا طافحتين بالعتاب،

وإنّما حازمتين فقط، منشغلتيْن كلتاهما بالأخرى ودون أن تلقيا عليّ أيّ نظرة كما لو أنّه لا توجد سوى غرفة واحدة شاغرة. لا شكّ أنّ انسجامًا تامًّا ساد بينهما. هذا ما فكّرت فيه خلال سنتين تقريبًا. وعشت لحظات من الغيرة الحارقة لم أعرف خلالها ما الذي يؤلم أكثر: أن تخطف منّي ماري لِيَا أم أن تضع لِيَا أمام ماري حاجزًا لن أتمكّن أبدًا من اجتيازه؟

ظلّ الأمر على تلك الحال إلى أن جاء يوم كان على لِيَا أن تذهب فيه لاختيار ثلاثة أرباع الكمان من محلّ كرومفولز. لم تُسَرّ كاتارينا وولتر بوجود ماري هناك. «ماري باستور، أجل أجل ماري باستور»، قالت عندما زرتها في المحلّ. لم أتمكّن على الإطلاق من انتزاع كلمة أخرى منها حول هذا الموضوع. لم ترق لي تلك الكلمات، وفي ذلك اليوم لم أكن متأكّدًا جدًّا من كوني أحبّ التسريحة الصّارمة لكاتارينا بشعرها المعقود على رقبتها، أمّا الآن فقد أصبحت تتصرّف بشكل لائق، بل لائق جدًّا في النظرات كما في الأقوال. لا تطفُّل ولا تواطؤ، لا شيء.

جرّبت لِيَا الكمنجات الثلاث واحدة تلو أخرى. كم بدت ناضجة وعمليّة بالقياس إلى زيارتنا الأولى إلى المحلّ! عندما انتهت عمليّة الاختبار بدأت عمليّة الاختيار. الكمان الأوّل سرعان ما رُفِض. تبادلت لِيَا نظرة مع ماري لكنّ ذلك لم يكن ضروريًا، فقد أصغينا جميعًا إلى رجعه. الثاني أصدر عزفًا جيّدًا ولكنّه لا يقارن بالكمان الثالث. «هذا يبدو عجيبًا بالنسبة إلى آلة بهذا الحجم»، قالت ماري. بدا من المستحيل ألاّ تصغي إليه لِيَا هي أيضًا. وفي الواقع، بعد إدراكها أنّ هذا اللحن هو حقًّا أفضل بكثير من اللحن الذي

بصدره كمانها حتّى الآن أشرق وجهها. ولكنّها تناولت الكمان الثاني مرّة أخرى وعزفت عليه لدقائق عديدة بينما اتّكأت ماري على النضد ويداها مضمومتان. وباستحضار المشهد في ذاكرتي لاحقًا، بتُّ واثقًا من أنّها عرفت ما يحضَّر لها: «سأختار هذا»، قالت لِيَا.

افترّت شفتا كاتارينا وولتر كما لو أنّها على وشك أن تعترض، لكنّها لم تقل شيئًا. ثمّ حصل ما لم يكن في الحسبان: في ظرف بضع ثوان حدّقت خلالها في الأرض وهي ما تزال ممسكة بالكمان، رفعت لِيَا عينيها ونظرت إلى ماري بشيء من التحدّي. كنت أعرف تلك النظرة ولا أعرفها. لا شكّ أنّها فتاة عنيدة، سيسيل وأنا عشنا هذه التجربة معها مرارًا، لكنّ الأمر يتعلّق هنا بماري، ماري المنيعة، وهو ما آلم ماري باستور، آلمها حتّى إنّها أدارت السّوار حول معصمها بحركة آليّة وابتلعت ريقها مرّة أخرى.

في اليوم الموالي ذهبت لِيَا إلى كرومفولز بمفردها واستبدلت الكمان الثاني بالثالث. لم تقل شيئًا مُهمًّا. هذا ما أبلغتني به كاتارينا وولتر. هل هي نادمة؟ كلاّ! في الواقع لم تُبدِ لِيَا هذا الانطباع، قالت. بل بدت متردّدة. ثمّ أضافت: «لقد شكّت في نفسها».

بعد مرور بضعة أيّام، أصيبت لِيَا بداء الصدفيّة، وقد كلّفنا ذلك ثلاثة أسابيع هي الأكثر قسوة منذ وفاة سيسيل. في البداية التهبت أصابع لِيَا من أطرافها ممّا اضطرّها إلى التردّد على الحمّام كلّ دقيقتين ووضع أصابعها تحت الماء البارد. في الليل لم يغمض لي جفن لأنّني كنت أستمع باستمرار إلى صوت الماء وهو يسيل. في الصباح وجدتها جالسة على حافّة سريري وأطلعتني، وعيناها جاحظتان، على الجلد

الذي بدأ يفقد لونَه ويتصلّب. بقيت في المنزل وألغيت مشاركتي في أحد المؤتمرات. وظللت لساعات أتّصل هاتفيًا برفاق قدامى أصبحوا الآن أطبّاء، إلى أن حصلت أخيرًا على موعد مع أحدهم وهو مختصّ في الأمراض الجلديّة. تأمَّل الطبيب جلد لِيَا الذي اكتسب لونًا رماديًا وبدأ أيضًا في التآكل، وتحسَّسه. إكزيما بسبب الحساسيّة. هل هو الكمان؟ إذن لعلّ الراتينج هو السّبب، قال. اجتاحني شعور بالفزع، كأنّه شخّص مرضًا خبيثًا. كانت لِيَا تحبّ هذه المادّة الصمغيّة اللزجة ذات اللون البنّيّ الغامق، تلك التي يُدعك بها قوس الكمان، وأحبّت انعكاسها الذهبيّ عند تعرّضها للضّوء، حتّى إنّها عمدت في البداية إلى لحسها خفية. هل هذه هي النهاية؟ أليس هذا شيئا غامضًا؟

اطَّلعتُ بتعصّب لا أحبّ تذكُّره على الكتب المتخصّصة في أمراض الحساسيَّة، واكتشفتُ مدى جهلنا بهذا الموضوع. أطنان من المراهم تراكمت في الحمّام وبات اتصالي الهاتفيّ اليوميّ بالطبيب يثير سخرية كاتباته. تفطَّنت إلى ذلك من خلال الضحك الذي يُفلت منهنّ. وكانت الصيدلانيّة أيضًا ترفع حاجبيها في دهشة وهي تراني عائدا للمرّة الثالثة في اليوم الواحد. وعندما حدّثتني عن التوتّر وعن المرض النفسيّ الجسديّ وعن المعالجة المثليَّة[1]، غيّرتُ الصيدليّة. أنا أؤمن بالخلايا، بالأسباب، بالكيمياء، وليس بحكايات بارعة يرويها أصحابها كأنّهم يملكون العلم اللّدنيّ.

مرَّت دقيقة قاسية أرغمتُ خلالها لِيَا على تذكُّر كلّ الأشياء التي لمستها في الأيّام الماضية، لاسيّما تلك التي لم تعتد لمسها من قبل.

(1) شكل من أشكال الطب البديل يعتمد على قانون أبقراط: المثل يعالج المثل.

ووجب أن تعتمد على أنفها أيضًا في التذكّر. لكنّ أبحاثي المتزمّتة دفعتها إلى البكاء.

وفجأة تذكّرتُ أنّ مقاعد قاعات الدرس لم تكن لها الرائحة المعتادة نفسها. فذهبنا لنتأكّد على عين المكان، وبعد نقاش مع الحارس اتّضح كلّ شيء. في الواقع، لقد غيّر الحارس مادّة التنظيف. جلبتُ عيّنة من المادّة الجديدة وقام الطبيب باختبار الحساسيّة. كان هذا هو المنتج الذي تسبّب لها في الإكزيما وليس الراتينج. فكتبت مكوّناته وألصقت الورقة على الثلاّجة وظلّت هناك حتّى اصفرَّ لونها.

أردت أن أحتفل بالخبر السعيد ودعوت ليَا إلى عشاء لطيف. لكنّها ظلّت منحنية أمام طبقها وهي تحكّ أطراف أصابعها الخشنة الفاقدة للحسّ على مفرش المائدة. وما يزال يُخيّل إليّ حتّى الآن أنّني أسمع صوت ذلك الاحتكاك اللطيف.

على امتداد أسبوع، بدت ليَا كأنّها ترتدي قفّازات بلوريّة. إذ تمسك بكمانها مرّات عديدة في اليوم ولكن دون أمل في معاودة العزف عليه. ومن ثمَّ بدأت قشرة الجلد في التّطاير وظهر الجلد الجديد والدم الأحمر ينبض تحته. لم يعد باستطاعتها لمس شيء آخر. وأخيرًا عندما سقط الجلد الميّت مثل مجموعة كشتبنات متشظّية، ركضت ليَا في أرجاء الشقّة وحاولت تسكين الألم في أطراف أصابعها بالنفخ عليها وسارعت مرارًا وتكرارًا لترى ما إذا كانت أصابُعها ستتحمّل لمسَ أوتار الكمان. أيّام بأكملها عشناها، كما يبدو لي اليوم، كأنّنا في سجن جدرانُه لا مرئية شيَّده حولنا خوفُنا الأبديّ من رؤية ظهور مأساة كهذه مرّة أخرى.

وثمّة سجن آخر بعد ذلك: لقد عُلِّقت دروس الموسيقى مع ماري. وبصوت مخنوق اختلط فيه الفزع بالدموع أعلمتني لِيَا أنّ شخصًا آخر كان عند ماري في قاعة الموسيقى أثناء الحصص المخصَّصة لها هي، في حصصها هي. عندما حان الوقت المحدَّد أخيرًا، وحين أوصلتُها إلى ماري لاحظت أنّ يديها وأطرافَ أصابعها المحمرَّة بشكل غير طبيعيّ تبلّلت بالعرق وأنّ بُقعا حمراء تناثرت على عنقها من شدّة التأثّر.

«هل سبق أن تعرَّضت لِيَا لمشكلة في يديها؟» سألني المغاربيّ. السؤال فرض عليَّ احترامَه، لا يمكنني إنكار ذلك. فأجبته «كلاّ». ظلّ صامتًا برهةً، وقد أصبح ضجيج المروحة مزعجًا حقًّا. «كلاّ»، قلت مرّة أخرى رغمًا عنّي. وأخفيت عنه أيضًا قصّة الملاهي والحلقة الذهبيّة.

لامني زملائي على عدم ذهابي إلى النَّدْوة لأقدّم آخر نتائج أبحاثنا بسبب الإكزيما التي أصابت لِيَا. بسبب *إكزيما*! وقبل كلّ شيء لاموني على إلغاء مشاركتي دون أن أرسل روث أداماك مكاني. «هل يمكن أن تنسى ذلك مرّة أخرى حقًّا»؟ تساءلت روث وفي صوتها قسوة تثبت أنّني أمعِنُ في الهزيمة.

حتّى في رئاسة الجامعة، بدا الإحباط على الجميع. مع ذلك لا وجود لأيّ خطر حقيقيّ حتّى الآن. ما دمت لا أسرق المعالق الفضيّة، فلا أحد باستطاعته أن يلومني على شيء. وفي تلك الفترة لم يكن بإمكاني معرفة شيء عن الأحداث المزعجة التي لا شكّ أنّها ستقودني يوما مّا إلى فعل ذلك».

الفصل التاسع

«أوّل ظهور لليَا أمام الجمهور هو يوم نهاية السنة الدراسيّة لتلاميذ الأقسام الابتدائيّة، تلاميذ الصفّ الرابع تحديدًا. دعاها مدير المدرسة، وهو رجل شرس ومخيف، إلى مكتبه وقدَّمت لها السكرتيرة شايًا وبسكويتًا. وبعد ذلك سألها المدير عمّا إذا كان يمكنها أن تعزف شيئا في ذلك اليوم. لا شكّ أنّها شعرت بزهو شديد فقبلت العرض على الفور. وبحماس منقطع النظير تملَّكها إلى أبعد الحدود، كما لو أنّها مصابة بالحمى، دخلت إلى مكتبي وأنا في اجتماع. وذرعتُ الرِّواق ذهابًا وإيابًا برفقتها حتّى خمد لهيب هذا الفزع. ثمّ أرسلتها إلى ماري، وعندما عادت في المساء كانت تعرف أيّ مقطوعة ستعزف.

إلى حدٍّ تلك اللحظة، لم أعرف الرّهبة قطّ. فقبل محاضراتي الأولى كنت، بدلاً من ذلك، مبتهجًا أكثر من كوني مرتعدًا. وعندما وجدت نفسي للمرّة الأولى في قاعة محاضرات، بدا لي ترتيب المكان سخيفًا أكثر من كونه مثيرًا للقلق، وهو المكان الذي ألفته في الجانب الآخر من القاعة طيلة الفترة التي كنت فيها طالبًا. وبما أنّ الأمر لم يعد متعلّقًا بي، فقد عرفت الرّهبة في تلك اللحظة.

تعلَّمت أن أمقت هذه الرّهبة وأخشاها. وتعلَّمت أيضًا أن أحبّها

وأحنُّ إليها عندما تختفي. فهي تجمعني أنا وليَا وتفرّقنا أيضًا. كانت يدا ليَا النديّتان تصبحان بمثابة يدي. ذهولها وعصبيّتها يجتاحانني أيضًا. وفي بعض الأحيان تهتزّ أعصابنا مثل أعصاب شخص واحد. وعلى أيّة حال ما كان للأمور أن تسير على نحوٍ مغاير: فليَا تسقط في هاوية، تشعر أنّني تخلّيت عنها عندما يُخيّل إليها أنّني لا أشاركها قلقها. ومع ذلك أصرّت تمام الإصرار على أنّها هي التي تملك الأسباب وراء خوفها لا أنا. لم تطالب بذلك عبر الكلمات، فنحن نكاد لا نتحدّث عن ذلك الجنون المحموم الذي يلفّنا. غير أنّها سرعان ما تغادر الغرفة فورًا عندما تلمحني واقفًا في نافذة الشرفة أدخّن إحدى سجائري النادرة. وعلى الرغم من كلّ شيء فهي ما تزال طفلة صغيرة. هذا ما أردّده بيني وبين نفسي، ماذا تنتظر منها إذن؟

في لحظات مشابهة لتلك أستشعر الوحدة التي تركتها سيسيل في أعماقي. أستشعرها مثل برد دفين.

وفي مساء الحفل، عندما خرجت ليَا من الحمّام، انقطع نفَسي. لم تبدُ، في تلك اللحظة، فتاةً في الحادية عشرة من عمرها بل سيّدة شابّة، لَيْدِي تنتظر أن تُسلَّط عليها الأضواء. اخترنا الفستان الأسود معًا، وهو فستان في غاية البساطة. ولكن أين تعلّمت وضع المساحيق وتسريح شعرها بتلك الطريقة؟ من أين لها أحمر الشفاه ذاك؟ كانت مستمتعة بدهشتي. التقطتُ لها صورة وضعتها في محفظتي ولم أستبدل بها صورة أخرى مطلقًا.

لماذا لا نملك القدرة على إيقاف الزمن؟ لماذا لا نستطيع مواصلة تلك السهرة الثقيلة والعاصفة في قلب الصيف؟ قبل أن تسرق منّي ليَا

كلّ تلك الأنظار وكلّ تلك الأيدي المصفّقة، الأيدي المرفوعة مباشرة على مرأى منّي، دون أن أملك القدرة قطُّ على معارضتها؟

لا أحتفظ بذكرى متماسكة لتلك السّهرة، كأنّ عنف المشاعر حطّمها إلى شظايا ولم تتبقّ منها إلاّ قطع متناثرة. ركبنا سيّارة أجرة باتجاه المدرسة. كان علينا ألاّ نتعرّض لأيّ حادث سير في ذلك المساء. وبمرورنا أمام المحطّة قلت في نفسي: لقد حدث ذلك منذ ما يقلّ عن ثلاثة أشهر وها هي اليوم تُحيي حفلها الأوّل. لا أدري إن فكّرت لِيَا في الأمر نفسه هي أيضًا، لكنّها أمسكت بيدي. تلك اليد كانت نَدِيّة، وبلمسها لم يخطر بالبال أنّ تلك اليد بالذات ستعزف قريبًا بأصابع واثقة موسيقى باخ وموزارت. عندما شعرتُ برأسها على كتفي ظننت لحظةً أنّها ترغب في العودة على أعقابها. وتلك فكرة محرِّرة ظهرت باستمرار في نومي المضطرب للّيلة التالية وقد صحبها شعور بالعجز.

الصورة الأخرى التي مازلت أحتفظ بها في ذاكرتي هي لماري باستور وهي ترسم بسبّابتها إشارة الصّليب على جبين لِيَا. لم أصدِّق عينيّ. وكنت في غاية الاضطراب وأنا أرى لِيَا ترسم إشارة الصّليب. لم يسبق لابنتي أن عُمِّدت قطّ، وهي لم تمسك الكتاب المقدَّس قطّ بين يديها في ما أعلم. وها هي الآن ترسم إشارة الصّليب بل ها هي ترسمها بحركة عفويّة وأنيقة كما لو أنّها اعتادت فعل ذلك طوال حياتها. لَزمني وقتٌ طويلٌ لأُدرك أنّ تلك الحركة ليست، كما اعتقدنا، محاولةً من ماري لتجعل لِيَا كاثوليكيّة، بل طقسًا يجمعهما هما الاثنتيْن، حركة تجعلهما واثقتين من أنّ عاطفة واحدة أكبر منهما

معًا تجمعها. وعندما أدركت ذلك، أخيرًا، بقي لي منه، مع ذلك، شعور خفيف بالتجرُّد والخداع. في ذلك المساء بدأت هذه الرؤية تنتعش في داخلي قبل أن تغطّيها الأحداث التي كانت تُعرض على مسرح القاعة الكبرى مرّة أخرى.

صعدت لِيَا الدرجات القليلة وهي تمسك ثوبها بيدٍ مخافة أن تتعثّر على الحاشية. في وسط المسرح، على بعد بضع خطوات من البيانو، توقّفت وانحنت عدّة مرّات أمام الجمهور المصفِّق. لم يسبق لي أن رأيت هذا المشهد قطّ، ولم أرفع نظري عن حركاتها الرشيقة. هل ماري هي التي علّمتها هذا؟ أم أنّها ببساطة حركات فطريّة؟

تركت لها ماري الوقت الكافي، فكان على لِيَا أن تقف بمفردها على المسرح في مواجهة الجمهور. ثمّ صعدت ماري على خشبة المسرح في حذر، دون أن تحدث ضجيجًا، وجلست أمام البيانو. كانت ترتدي فستانا مرتفعًا من الباتيك الأزرق الليليّ كما في أوّل لقاء بيننا. شعرتُ، للحظة، أنّها نقلتا معًا قاعة الموسيقى بمنزل ماري إلى هناك. كان ذلك شعورًا جميلاً لأنّه يعني أنّ لِيَا ظلّت تحت رعاية ماري كما لو أنّها تتمرّن في شقّتها، حتّى وهي على خشبة المسرح. ولكنّه شعور خاطف سرعان ما احتلّ مكانَه شعورٌ آخر: هناك في الأعلى، على الرغم من وجود ماري وقفت لِيَا وحيدة مع كمانها وفنّها، فتاة صغيرة رغم مظهرها وسلوكها كامرأة ناضجة، لم تأتِ إلى هذا العالم إلاّ قبل إحدى عشرة سنة ولا أحد يستطيع مساعدتها لو اتفق أن تتعثّر.

ألقيتُ محاضراتٍ عديدة أمام عدد كبير من العلماء، وخلال مباريات الشطرنج أيضًا، وجدتُني على خشبة مسرح كنت فيه

أنا الوحيد الواثق من نفسه. ولكنّ هذا لم يمثّل شيئًا أمام العبء الذي جعلته وحدة لِيَا وهي على خشبة المسرح يجثم على صدري، وبالخصوص خلال الثواني التي سبقت عزف النوتات الأولى. أطلقت ماري نوتة لا La فدوزنت لِيَا كمانها. وبعد فترة استراحة عدّلت توتُّر قوس الكمان، وفترة استراحة أخرى كي تمسح يدها بثوبها. ألقت نظرة على ماري والقوس مرفوعٌ وأخيرًا بدأت بموسيقى باخ.

في تلك اللحظة بالذّات تساءلتُ عمّا إذا كانت ذاكرتها سترتقي إلى مستوى أدائها. لكن لاشيء، لا شيء حقًّا أثبتَ العكس. الذاكرة لم تكن قطّ موضع اهتمام. لطالما بدا لي من الطبيعيّ جدًّا أن تحفظ لِيَا مقطعًا موسيقيًا عن ظهر قلب. وقد بدا لي هذا أشدّ بساطة من قدرتي على حفظ مباريات الشطرنج ولعبها دون تبصّر. من أين يأتي هذا الشكّ المفاجئ إذن؟

لم أعد أتذكّر الموسيقى على الإطلاق. ذاكرتي أصبحت خالية من الأصوات، مُترَعة بالإعجاب القلق الذي تابعتْ به عيناي حركاتِ لِيَا النشيطة، أصابعها الممسكة بالكمان في ثقة وجرأة تحاكي بها أصابعَ ماري التي حفظتُها في ذاكرتي منذ المساء الأوّل. سبق أن رأيت هذا المشهد آلاف المرّات قبل الآن، ومع ذلك أمام كلّ تلك النظرات الغريبة بدا لي في تلك اللحظة مشهدًا مختلفًا، أكثر جدارة بالإعجاب، أكثر غموضًا من العادة. كانت تلك هي لِيَا، ابنتي التي تعزف هنا!

غمرت القاعةَ موجةُ تصفيقٍ محموم. لكنّ أكثر من أطال التصفيق هو ماركوس جيربير الهزيل، بوجهه الملتهب، وملابسه التي

بدا فيها أكثر جدارة من غيره بالصعود على المسرح. كانت لِيَا لطيفة معه أحيانًا ومتضايقة منه أحيانا أخرى كلّما رغب في اصطحابها إلى المدرسة. أشفقت عليه لأنّها ستستغني عنه قريبًا.

ظلّت ماري جالسة أمام البيانو بينما انحنت لِيَا لتحيّة الجمهور. لاحقًا، عندما جافاني النوم، شغلني شيء من الصعب فهمه. فقد انحنت لِيَا على نحوٍ يوحي بأنّ ذلك التصفيق من *حقّها* هي، كما لو أنّ على العالم أن يهتف لها، هذا كلّ ما في الأمر. أزعجني الأمر، أو بالأحرى ضايقني، أكثر من رغبتي في عدم البوح به. لم يحدث هذا كدليل على الغرور أو العُجب مثلما ظننت في البداية، كلاّ. العكس هو الصحيح: لقد كانت لِيَا في هيئتها، وفي حركاتها ونظرتها، تعبّر عن شيء ما تزال تجهله تمامًا وإلى حدّ مّا لن تعرف عنه شيئًا أبدًا حتّى النهاية، وهو ألاّ نتركها بأيّ حال من الأحوال وحيدة مع موهبتها ومع ما ستجنيه منها من شغف بلا تخوم. وأنّ على الآخرين ألاّ يستقبلوا عزفها من دون مبالاة مهما حصل، وأنّ كارثة حقيقيّة ستحلّ لو أنّ المستمعين كفّوا عن حبّهم لها وإعجابهم بها. أدركت ذلك بعد فوات الأوان. ما رأيته هناك على خشبة المسرح واستشعرته مثل خطر أصمّ كان ينذر بكلّ المآسي التي ستقع بعد ذلك في أعماقها إثر خطوتها الأولى أمام الجمهور في ذلك المساء.

المقطع الثاني هو رُندة لموزارت. وهنا حدثت المأساة. عزفت لِيَا مقطعا إضافيًا فتدخّلت اللازمة التي تتكرّر غالبًا في موضع غير موضعها. وذلك خطأ طبيعيّ جدًّا ما كان لأحد أن يلحظه لو لم يوجد عزف بيانو مصاحب يعوّض الأوركسترا التي تصوّرها موزارت.

النوتات التي عزفتها ماري وليَا لم تعد منسجمة، وأصبحت متنافرة، نتجت عنها فوضى إيقاعيّة. رفعت ماري يديها عن ملامس البيانو وحدَّقت في لِيَا بعينيها الواسعتين والسوداوين. هل عبّرت نظرتها تلك عن الوجوم؟ أم عن اللّوم؟ لومها عن خيانة الإتقان الذي حاولت أن تدفع إليه لِيَا ساعةً بعد ساعةٍ وأسبوعًا بعد آخر؟

لم أحبّ تَيْنِكَ العينيْن. إلى حدّ تلك اللّحظة واصلتُ استراق النظر إلى ماري. إنّها تعجبني وهي جالسة بثوبها الداكن العجيب ويديها الرقيقتين والقويّتين الموضوعتين على لوحة الملامس، ووجهها مركّز على عزفها المشترك مع لِيَا. لكأنّني تخيّلتُني بمفردي معها، في عالم خالٍ من لِيَا، لأعود إلى الواقع حيث تصنع طفلتي الكبرى بداياتها وقد اجتاحني شعور عنيف بالخيانة. تلك ليست سوى قاعة احتفالات في مدرسة ومع ذلك...

في تلك اللحظة صدّتني عينا ماري. قرأتُ فيهما اتهامًا غامضًا، اتهامًا موجَّهًا إلى فتاة في الحادية عشرة من عمرها أخطأت في عزف مقطع موسيقيّ. أم أنّ ذلك ليس اتهاما؟ هل كانت ماري مضطربة فحسب؟ هل تبحث خلف نظرتها الحزينة عن استئناف لِيَا عزفَها كما بدأته؟ لِيَا نفسها، بعد نظرة قلقة ومشوَّشة ألقتها على ماري، عزفت المقطعَ المكرّر الذي لا طائل منه حتّى النهاية. أجل هذه هي الكلمة الصائبة. *حتّى النهاية*، كما نذهب إلى النهاية حتّى عندما لا يكون لهذا أيّ معنى. فقط لأنّ التوقُّف سيكون أسوأ. خلال الليل قلت في نفسي: *قطعًا، لا أريد مطلقًا أن أرى ابنتي تذهب هكذا حتّى النهاية*. هذه الفكرة استبدَّت بي الليل كلّه ولم تكفَّ لاحقًا عن العودة حتّى

النهاية. واليوم أيضًا اجتاحتني من جديد فكرةٌ عديمة الفائدة، شبحٌ يخرج من زمن ضائع.

فجأة بدا كأنّ ماري أدركت ما حصل. تواصلت بعض النوتات المتردّدة والمتنافرة ثمّ ساد انسجام لم ينقطع حتّى النهاية. عزفت ليَا ما تبقّى بصوت صافٍ دون ارتكاب أخطاء ولكنّ اللحن بدا متراخيًا كما لو أنّ استمرارها في العزف هكذا دون مصاحبة ماري أنهك قواها كلّها. أو ربّما تهيّأ لي ذلك فحسب. من يدري!

كان التصفيق أكثر حماسًا منه بعد المقطع الأوّل. بل كان هناك دَوْسٌ بالأقدام، وصفير على شرفها أيضًا. أرهفتُ السمع لما يحدث: هل هم مكرهون على التصفيق؟ هل يفعلون ذلك من منطلق الواجب؟ هل صفّقوا بحرارة ودون انقطاع ليهوّنوا على ليَا، كي يثبتوا لها أنّ ذلك الخطأ ليس بالأمر المهمّ وأنّها عزفت بشكل جيّد على الرغم من كلّ شيء؟ أم أنّ أولئك الفتيان والفتيات كانوا طبيعيّين وعفويّين جدًّا في حكمهم، وأنّ خطأ ليَا لا أهمّيّة له عندهم؟

انحنت ليَا وهي أشدّ تردّدًا وتصلّبًا بالقياس إلى هيئتها بعد الانتهاء من عزف المقطع الأوّل. ثمّ بحثَت عن نظرتي. كيف بإمكان أحدهم مواجهة نظرة ابنته ذات الأحد عشر عامًا، هذه النظرة المتردّدة التي تنشد الصفحَ لفتاة تكبّدت للتوّ أولى حماقاتها العلنيّة؟ حمَّلتُ نظرتي كلّ ما أحمله في داخلي من اعتداد بالنفس والثقة والفخر. وبينما كانت عيناي تلتهبان، تفحَّصتُ وجهها. هل تعي ما حصل؟ كيف ستتخلّص من هذه الورطة؟ رجفة أجفانها تدلّ على أنّها تصارع

إحباطَها وغضَبها؟ عندئذ اقتربت ماري من ليَا، جلست بالقرب منها ووضعت يدها على كتفيها. فأحببتُها من جديد.

لقد عزفت ليَا المقطع عن ظهر قلب، لكنّها حملت معها التوليفات الموسيقيّة. وعندما عدنا إلى المنزل وضعت الدفتر على طاولة المطبخ، خلافًا لعادتها. وفي طريق العودة لم تقل كلمة واحدة. كنت أتذكّر كم ظلَّت صارمة، لحظة داعبت ماري شعرها وهي تودِّعها وتجنّبتُ أنا ملامسَتها. للمرَّة الأولى رأيت ابنتي في حالة تعلَّمتُ فيها بعد أن أحذَرها، كما لو أنّ أبسط اتصال حتّى إن لم يتجاوز الكلمات قد يدفع بها إلى الانفجار».

سكت فان فليبت وحدَّق في الأرض. بدت نظرته التائهة واللاذعة في آنٍ كأنّها تخترق الأشياء كلّها.

«وفي آخر الأمر انفجرَتْ فعلاً، انفجرت إلى ألف شظيّة».

كان يشرب بجرعات كبيرة وأخذَ خيطٌ من النبيذ الأحمر يسيل من زاوية فمه ويقطر على ياقة قميصه.

«درستُ تَوْليفات روندو موزارت على طاولة المطبخ طوال الليل، كوشيل 373. لن أنسى أبدًا هذا الرقم، كأنّه موسوم في ذاكرتي. وجدت مقطعين شككت في أنّ النّشاز تسرَّب إليهما لكنّني لم أجرؤ على السؤال. وضعت التَّوْليفة الموسيقيّة على خزانة المدخل حيث كانت ليَا تضعها أحيانا فور عودتها إلى المنزل لتحملها بعد ذلك إلى قاعة الموسيقى. لكنّها لم تلمسها، كأنّ التَّوْليفة غير موجودة. في النهاية رفعتها بنفسي. إنّها التَّوْليفة الوحيدة التي تخلّصت منها عندما انتقلتُ إلى الشقّة الصغيرة.

أثار الحدث أوَّل صدع دقيق كشعرة في ثقة ليًا بنفسها. احتاجت إلى أسابيع عديدة قبل أن يصبح باستطاعتنا الحديث في الموضوع. وعندما حان الوقت أطلعتني على السبب: لم تستطع كبحَ جماح الشعور الذي حرَّضها على رمي كمانها أمام الجمهور إلاّ بصعوبة. وهو ما أثار فزعي أكثر بكثير من الهفوة التي ارتكبتها في العزف. أليس ما يحصل لابنتي خطيرا جدًّا؟ أليس الطموح الذي أشعلته ماري داخلها شبيهًا بحريق لن يقدر أحد على إطفائه أبدًا؟».

الفصل العاشر

«ركبنا قطار الليل باتجاه روما. طال وقوف لِيَا أمام عربات النوم والحيرةُ تملؤها. فأن توجد قطارات تحوي أسِرَّة نستطيع النوم عليها لنستيقظ ونحن في مكان آخر مختلفٍ تمامًا هو أمرٌ بدا لها شبيهًا بالسِّحْر. وأن أجعلها تعيش هذا السِّحْر حقًّا هي الوسيلة الوحيدة التي خطرت ببالي للقضاء على ما غرقت فيه من فتور إثر الخطإ الذي اقترفته في عزف الرُّندة. في الأيّام الأولى لم تغادر السرير وأسدلت الستائر كأنّ مرضًا شديدًا ألمّ بها. لم ترغب حتّى في الحديث إلى ماري عندما تتصل بها هاتفيًا. أمّا علبة الكمان فأُهمِلت ونُفيت في الخزانة.

انتظرت أن تردَّ الفعل ولكن ليس بذلك العنف. وعلى الرغم من كلّ شيء، فقد صفّق لها الجمهور على نحوٍ محموم. والدا كارولين صفّقا هُما أيضًا طويلاً. وصعد مدير المدرسة إلى المنصّة وحاول تقبيل يدها فسحبتها بشكل وقح. لكنّ وجه لِيَا الذي ازداد تحجُّره اتخذ من الجمود قناعًا. ودون أن أنعم بالنوم، ظللت أحدِّق في الظلام، محاولاً طرد ذلك الوجه الخالي من الحياة والطافح بالمرارة. عرفتُ هذا الوجه منذ أحد عشر عامًا ولم يبدُ لي غريبا قطّ ولو لثانية واحدة.

لم أكن لأصدّق أنّ بإمكان ذلك أن يحدث يوما مّا. وعندما حصل غابت الأرض للحظة من تحت قدَمَيّ.

استعاد الوجه سمته الطبيعيّة عندما تناولنا فطور الصباح في عربة الطعام. وكلّما غصنا في الصيف الإيطاليّ الملتهب واستسلمنا لسحر المباني والساحات والأمواج امّحت آثار الإرهاق التي تركتها التمارينُ المكرَّرة دون هوادة على ذلك الوجه. كنت ألاحظ أنّ لِيَا أصبحت امرأة ناضجة تقريبًا وبات مظهرها يثير هتافات الإعجاب. لم نتحدّث ولو مرّة واحدة عن الموسيقى ولا عن الزُّندة.

في البداية كنت ألقي من وقت إلى آخر جملة بخصوص ماري، ولكنّ الكلمات تظلّ دون صدى كأنّها لم تُنطق قطُّ. وكلّما مررنا من أمام أحد الأكشاك تمنّيت أن تشتري لِيَا بطاقة بريديّة ترسلها إلى ماري. لكنّها لم تفعل.

ويحدث أن تنسى أحيانًا شيئا مّا لا علاقة له إلاّ بتفاصيل لا أهميّة لها كاسم الفندق الذي ننزل فيه، رقم خطّ الحافلة، اسم مشروب مّا. لم أهتمّ لذلك. لا شيء علق بذاكرتي... كان الجو حارًا على نحوٍ رائع، وبيرن مع روث أداماك بعيدة على نحو رائع أيضًا.

الكنيسة التي انبعثت منها الأصوات توجد في مكان صغير وفردوسيّ. والبوّابة مفتوحة. وفي الخارج أناسٌ جالسون على المدارج يصغون إلى الموسيقى. تعرّفت لِيَا على المقطع قبلي: إنّها موسيقى باخ التي سبق لماري أن عزفتها مساء لقائنا الأوّل. لم تكن رجفةً تلك التي عبَرت جسدها، بل بالأحرى ضربًا من التصلّب، توتّرًا مفاجئًا. تركتني لِيَا هناك واختفت داخل الكنيسة.

جلستُ في الخارج مُفكّرًا في لحظة مروري بالسيّارة من أمام اللوحة النحاسيّة التي تحمل اسم ماري باستور. تمنّيتُ أنّني لم أرَها مطلقًا. كان يمكن لمثل هذا الأمر أن يقع بسهولة تامّة، قلت في نفسي، لو أنّ سيّارة لفتت انتباهي، أو لوحة إشهار لامعة ألهتني بوميضها، أو اصطدم بي أحد المارّة لما تمكّنت من رؤية اللوحة، ولما تخلّت عنّي لِيَا.

عندما خرجت لِيَا كان وجهها يرتجف، وعندما جلسَت إلى جانبي انفجرت الأشياء التي كتمتها: خوفها من أن تخذل ماري، الخوف من الحفل المقبل. ضمنتُ لها ماري فأخذت دموعُها تجفّ ببطء. اقتنت ما يقارب اثنتي عشرة بطاقة بريديّة ومضينا للبحث عن طوابع بريديّة. وفي مساء اليوم نفسه وضعَتْ في صندوق الرسائل ثلاث بطاقات أرسلتها إلى ماري. حاولت الاتصال بها لتعلمَها بإرسال البطاقات لكن لا أحد ردّ. حجزتُ مقعدين في طائرة الغد، وبعد أن حطَّت الطائرة في زيوريخ اتصلت لِيَا بماري. وعندما وصلنا إلى المنزل أخرجت الكمان من وراء الخزانة وذهبت لأخذ أوّل درس بعد مرور ثلاثة أسابيع. وعزفتْ نصفَ ليلة كاملة. لقد عاودتها الحمّى من جديد!»

كنّا في ردهة الفندق أمام المصعد عندما تمنّيت لفان فلبيت «ليلة سعيدة»، فردَّ عليها بإيماءة من رأسه. فُتح باب المصعد. وقف فان فلبيت أمام الخليّة الكهروضوئيّة، وانتظرته وهو يستجدي كلماته.

«كنت هناك في تلك القاعة أصغي للشيء الذي أصبح الأهمّ في حياتي: عزف لِيَا، ظهورها الأوّل أمام الجمهور الذي اكتشفت

أنّ أشياء كثيرة متوقّفة عليه. وفي تلك اللحظة فقط بدأ خيالي يجنح ويبحث لنفسه عن عالم خالٍ من لِيَا، عالم برفقة ماري وحدها. هل جرَّبتَ هذا أنت أيضًا: عندما يجنح الخيال في اللحظة الحاسمة ويسلك طريقه الخاصّ دون خضوع لأيّ رقابة، موحيًا إليك بأنّك أنت أيضًا شخص آخر مختلف تمامًا عن الذي اعتقدت أنّه أنت؟ فقط أثناء لحظة يمكن لأيّ شيء أن يحدث فيها داخل روحك. كلّ شيء عدا هذا: أن يخدعك خيالك الجامح فجأةً»؟

الفصل الحادي عشر

لم ينجح سومرسيت موم[1] في إغوائي فوضعتُ الكتاب جانبًا. فتحت النافذة وأرهفت السَّمع إلى اللّيل. لم أعرف كيف أجيب عن سؤال فان فلبيت الذي أحنى رأسه جانبًا ونظر إليَّ بعينين نصف مُغمضتين وتواطؤ حزين ساخر. ثم أطلق الخليَّة الكهروضوئيّة فأُغلق باب المصعد. هل تصرَّف على هذا النحو فقط لأنّ هذا السؤال لم يكن منتظَرًا على الإطلاق؟ أم أنّ هذه الحميميَّة المذهلة هي التي انتزعت منّي الكلام؟ حميميَّة تتجاوز كثيرا صفتي كمستمع؟

ليليان، ليليان التي كانت تمسح العرق عن جبيني وأنا أُجري عمليّة، ليليان التي تعرف دومًا بدقّة ما هي الحركة المقبلة، أيّ آلة سأحتاج إليها، ليليان التي تسبقني بتفكيرها حتّى إنّنا لم نحتَجْ إلى الكلام، فيتمّ تعاوننا في انسجام أخرس، مرَّ شهران أو ثلاثة ونحن على تلك الحال. نظرتها الزرقاء الصافية البارزة من تحت القناع، يداها الرشيقتان والهادئتان، لهجتها الإيرلنديّة، وهي تنطق كلمة «كبير»، إيماءة رأسها كلّما التقيتها في الرواق، طقطقة قبقابها، إلقائي نظرةً عديمة الجدوى على حجرة الممرّضات، السيجارة بين شفتيها

(1) كاتب مسرحي وروائي إنجليزي.

المكتنزتيْن، الإجابة الساخرة عبر نظرة طويلة أكثر ممّا ينبغي، زيارة واحدة إلى مكتبي وهذه الكلمة، «كبير» المدهشة على الدوام، كما سبق أن سمعتها في دَبْلِنْ، الانتظار الطويل نسبيًا أمام الباب وهي تغادر القاعة، حركة ردفيها العفوية واللاّمحسوبة، طريقتها في غلق الباب برفق وصمت، كأمل، كوعد.

بعد ذلك جرت العمليّة الاستعجاليّة، ليلة جاءت ليسلي إلى العالم. في البداية هالني وجه جوانا المتعب، شعرها الملتصق على جبينها بفعل العرق، صرخة ليسلي الأولى، ومن ثمّ في منزلي، وقوفي أمام النافذة المفتوحة، رائحة الثلج في بوسطن، أحاسيس مبهمة، أمّا الآن فالأشياء أصبحت حتميّة. نعاس بدلاً من نوم عميق، ثمّ نداء إلى القسم الاستعجاليّ. خمس ساعات قضيتها برفقة عيني ليليان الزرقاوين البارزتين من تحت القناع. لست أدري أكان وقوفها أمام الباب لحظة خروجي محضَ صدفة. لم أسألها عن ذلك قطّ. لم أعد قادرًا على الخروج عند السَّحر دون أن أفكّر بذلك اليوم الذي سرنا فيه معًا حتّى وصلنا إلى منزلها، كان -ويا لَدهشتي- على بعد شارعين من شارعنا. أخذنا نسير في صمت ونحن نتبادل النظرات من وقت إلى آخر. تمنّيت لو أنّها أمسكت بذراعي، لكن عوضًا عن ذلك، ظلّت تقفز قفزاتها الطفوليّة، وهي تصعد وتنزل حدود الرصيف، وتبتسم ابتسامتَها المعتذرة والمستفزّة التي تفترّ عن سنٍّ أوضح بقليل من الأسنان الأخرى تحت نور المصباح. وما إن جلسنا على الدرج أمام بيتها، حتّى اقتربت منّي ووضعت رأسها على كتفي. لعلّ تلك الحركة تعبير عن إرهاق مشترك، عن سرور متبادل إثر نتيجة العمليّة

الناجحة. كان يمكن أن تبدو أكثر من ذلك. لهاثنا الأبيض وهو يسيل: «أنا أعدّ تشيكس لذيذة». «فعلاً أنا أصنع أفضل تشيكس بالمدينة». لاسيّما التشيكس بالفراولة. إنّها خرافية!»، والضحك المشترك الذي هزّ جسدينا في تناغم. توقّفتُ على قرص الدرج، وأغمضتُ عينيّ ويداي مضمومتان في جيبَي معطفي، ملتقطًا صوتها الذي يأتي من فوق: «إنّ التشيكس التي أعدّها لذيذة حقًّا».

كانت تشبه إلى حدّ مّا قطًّا شريدًا وهي جالسة هناك على الكنبة وقد ضمَّت ساقيها، وحلّت شعرها الأشقر، وأمسكت بالقدح الكبير بين يديها والمصّاصة بين شفتيها. شيء مّا يوحي بالحريّة والتيه كان يفيض منها. شيء مّا مختلف جدًّا عمّا في جوانا من طموح وكفاءة، جوانا التي كانت ستصنع منها لاحقًا سيّدة أعمال مشهورة. ماذا في تلك النظرة الزرقاء ذات التركيز الخارق؟ هل هو التّفاني؟ أجل إنّها الكلمة المناسبة: *التّفاني*. هذا التّفاني الذي يلهمها حركاتها الثابتة خلال العمل، حدسَها الآلاتِ التي سأحتاج إليها، هذا الإخلاص الذي أراه أيضًا كلّما التقت نظراتنا من تحت القناع.

لا يمكن أن أكون صاحيًا، فلا شيء يبدو لي كما كان، وعندما سأستيقظ للمرّة الأولى، سيكون كلّ ما مضى مجرّدَ نومٍ بائس.[1]

كانت تحفظ عن ظهر قلب قصائد عديدة لوالت وايتمان، ونسيت أين ومتى ألقت هذا البيت، في ذلك المساء، بعينين مغمضتين وصوتها يغمره الدخان والكآبة. التّفاني أجل. انتابتني الرغبة في أن أعيش استسلامًا كذلك الاستسلام، تضحية كتلك، بينما كان النهار

(1) أبيات للشاعر الأمريكي والت ويتمان.

يطلع خلف الستائر وشاحنات يزداد عددُها من حين إلى آخر تسير محدثة ضجيجًا قويًا على الطريق السيّارة القريبة منّا. وبينما اجتاحتني هذه الرغبة، اندلع في داخلي فزع كبير وتراءى لي شَعر جوانا الملتصق على جبينها. *حمدا لله لقد انتهى الأمر*. وسمعت صرخة ليسلي الأولى.

خشيت تفاني ليليان وشغفها كخشيتي لنفسي. شعرتُ أنّ هذا سيكون شيئًا مختلفًا تمامًا عن كلّ ما عشته إلى حدّ تلك اللحظة مع سوزان وجوانا وبعض الأشخاص الآخرين العابرين، وبأنّني سأغرق وأختفي فيها لأستيقظ في لحظة مّا بعيدًا عن جوانا وعن ليسلي. آه نعم وبعيدًا عن نفسي أيضًا. على الأقلّ بعيدًا عن نفسي التي عرفتُها حتّى ذلك الوقت.

لم أعرف قطّ ماهيّة الإرادة بهذه الدقّة إلاّ عندما فتحت عيني ونظرت إلى ليليان قائلا: «عليّ أن أغادر، إنّها... عليّ أن أغادر فحسب». فتذبذبت نظرتها وارتجفت أطراف فمها كما يحصل لشخص أدرك مسبقًا أنّه سيخسر وأنّ هذه الخسارة ستمزّقه لا محالة.

كنّا في المدخل وأحدنا يضع جبينه على جبين الآخر، عيوننا مغمضة وقد شبك كلانا يديه على رقبة الآخر. شعرتُ أنّ كلّ واحد منّا، نحن الاثنيْن، ينظر خلف جبين الآخر كأنّنا في نفق من أفكار وأحلام وانتظارات، النفق الطويل لمستقبلنا الممكن والمستحيل في آنٍ معًا، ننظر داخل النفق مثلما نتمثّله تمامًا. إنّه نفق الآخر ونفقنا نحن في آنٍ. وانزلق أحد النفقين في الآخر واتّحدا ليصبحا نفقًا واحدًا نسير فيه حتّى آخره، هناك حيث يضيع في الالتباس. نتنفّس في تناغم عابريْن، محرقين حياتَنا المشتركة العصيَّة علينا لأنّها لم تكن ممكنة بالنسبة إليّ.

مسحت ليليان العرق عن جبيني خلال العمل لمدّة أسبوع آخر. وفي صباح يوم الاثنين حملت لي سكرتيرتي ظرفا وهي متردّدة، لأنّها تعلم أنّه مرسل من طرف ليليان... ورقة صغيرة، فقط قطعة ورق لونها أصفر باهت كتب عليها: *«أدريان حاولت، حاولت كثيرًا ولكنّني لا أستطيع، لا أستطيع فحسب. محبّتي. ليليان»*.

لا أملك صورة لها، والعشريّات الثلاثة التي مرّت محت ملامحَها. لكنّني احتفظت بصورتين دقيقتين لها في ذاكرتي، لا بسبب حوافّهما الهشّة بل لأجوائهما: صورة تظهر فيها جالسة إلى الطاولة في قاعة الممرّضات تدخّن سيجارة، وأخرى تجلس فيها على الكنبة وساقاها مضمومتان والمصّاصة بين شفتيها. والتقطتُ صورة للسلّم الذي جلسنا عليه سابقًا أمام منزلها عند السَّحر. التقطتها قبل أن نغادر إلى بوسطن، وقد تساقط الثلج طوال الليل وتراكم على الدرابزين وعلى الدرجات. إنّها صورة من حكايا الخيال! وفي عيد ميلاد ليسلي أفكّر دومًا في هذا المشهد. في ذلك اليوم فاتني أن أخونها.

بعد مرور سنة اتصلت بي ليليان في المصحّة. لقد غادرت بوسطن وذهبت إلى باريس لتلتحق بجمعيّة *أطبّاء بلا حدود* وأمامها مهمّات في أفريقيا والهند. أصابني هذا الخبر بطعنة في القلب. إنّه شيء مّا كنت أنا أيضًا سأفكّر فيه. وفي الليل تعلّلتُ بعد اتصالها بعمل استعجاليّ وبقيت في المصحّة. إنّ هذا العمل يناسبها تمامًا. وقد حسدتُها على تناغم حياتها المتقلّبة، التناغم كما تخيّلته. *«على طول الحانة، بوجوه تتشبّث بيومها المعتاد. على الأنوار ألاّ تنطفئ: على الموسيقى ألّا تتوقّف أبدًا»*. سبق لها أن قرأتْ هذه الأبيات لويستن

هيو أودن في ذلك المساء وهي جالسة على الكنبة. هذه الأبيات التي لم يكن لها أيّ تأثير غير إثارة جوٍّ مُبهم، شيء مّا خاصّ، شبيه بلحن يصاحب لوحة لإدوارد هوبر. ولم أكتشف إلاّ لاحقًا أنّ هذه الأبيات مقتطفة من قصيدة سياسيّة بامتياز تصوِّر اعتداء ألمانيا على بولونيا، وهذا الأمر يناسبها جدًّا أيضًا: فبالإضافة إلى التفاني كان في نظرتها الزرقاء غضبٌ، غضب موجَّه ضدّ الجبناء والأشرار في هذا العالم. وهكذا وضعت يديها الرشيقتين والهادئتين وذهنها المتّقد في خدمة الضحايا.

في فترات غير منتظمة جرت بيننا اتصالات هاتفيّة أخرى، هي عبارة عن محادثات غريبة، قويّة متغيّرة، وتلك الكلمة: كبير. تحدّثت عن الجوع وعن آلام أخرى، ثمّ عمدت، من جديد، إلى وصف حالتها النفسيّة. كأنّ ما تلامس ونحن في مدخل منزلها ليس جبهتانا وحسب بل شفاهنا أيضًا. أخبرتها باسم المصحّة السويسريّة التي كنت سأعمل بها. وهناك أيضًا تلقّيت مكالمات هاتفيّة منها. وعندما حدّثتني عن *منظّمة أطبّاء بلا حدود* انتابني شعور بأنّني أخطأت في تحديد القارّة. وعندما توقّفنا في مطار كلوتن قلت في نفسي: أنا الآن أشدُّ قربًا منها. كان أمرًا غير معقول، فلعلّها موجودة في مكان لا يعلمه إلا الله. ومع ذلك فهذا ما اعتقدته حقًّا. أفزعني هذا الشعور وألقيت نظرة سريعة على ليسلي التي تقف بجانبي. عندما توقّفت الاتصالات لاحقًا، بعد مرور سنوات، اتصلتُ في أحد الأيّام بباريس لأعرف أخبارها. وعلمت أنّها تعرّضت لحادث قاتل خلال إحدى مهمّاتها. عندئذ أدركت أنّني شاركتُها حياتَها طيلة تلك الفترة.

والأشهر التي لم يحصل فيها أحدنا على أخبار الآخر، الأشهر التي لم أفكّر خلالها فيها حقًّا لم تغيّر شيئًا. حياتنا المشتركة تواصلت في صمت، متخفّية، ودون انقطاع.

السؤال الذي طرحه عليّ فان فلييت أمام المصعد المفتوح أربكني، لأنّه جعلني أدرك أنّني مازلت أعيش هذه الحياة السريّة برفقة ليليان، مع أنّني لم أعد مجبرًا على إخفائها عن أيّ شخص منذ وقت طويل. «حادث مميت»، هذا ما قاله لي الرجل الفرنسيّ في الهاتف. شيء مّا في داخلي رفض تصديق الأمر، وهكذا واصلت طريقي معها، كما لو أنّها ما تزال تعيش حياتها الهائمة، حياتها وحياتي وحياتنا معًا.

تذكّرتُ وداعاتي لجوانا، الوداعات النهائيّة في المطارات. «*أودّ أن أقول لك شيئا أدريان: أنت رجل مخلص، أنت حقًّا رجل مخلص*»، لا أعرف لماذا ولكن بدا ذلك شبيهًا بإثبات عيْب في طبعي عانت منه حدَّ الألم. كأنّها قالت: رجل بلا خيال، رجل مملّ. داهمتني رغبة في النظر من خلال الشرفة البانوراميّة، ورؤية المرأة التي كانت زوجتي، إحدى عشرة سنة، وهي تطير نحو بلدها الأمّ ولكنّ هذه الفكرة زعزعتني فعدلت عنها. وفي إحدى المرّات، وأنا في منزلي، أخرجت صورة منزل ليليان بدرجه المغطّى بالثلج.

نمتُ بملابسي وأنا أرتجف. قبل أن أستيقظ بقليل، رأيت ليليان تعبر ردهة المصحّة مطقطقة قبقابها. وفي تلك اللحظة كانت ترتدي الباتيك وتسبَح في الشينتز.

استحممتُ، غيّرت ملابسي وعبرت سانت-ريمي عند السَّحر.

مكثت بعض الوقت أمام الفندق الذي ينزل فيه فليبت. التقطت بعض الصور ثمّ نمت قليلاً حتّى حانت ساعة ذهابي لآتي به.

الفصل الثاني عشر

عندما غادرنا الفندق كان مشهد بروفانس غارقًا في ضوء شتويّ طباشيريّ خالٍ من الظلّ. وكان بإمكان ألوان كلّ مساحة شبيهة بلوحة مائيّة أن تنصهر مع اللون الأبيض. وتراءت لي مرّة أخرى الطرق اللانهائيّة المتذبذبة بفعل الحرارة، تلك التي سِرت فيها سابقًا رفقة جوانا وليسلي في غرب أمريكا. *تغيير الجوّ*، إنّها عبارة سرعان ما نالت إعجابي، لأنّها تعبّر في كلمتين عن التجربة الأمريكيّة النموذجيّة، عن أبعادها العظيمة. ضوء صَلِف علا السماءَ الشاهقة، ضوء لا يساوي إلاّ اللحظة الراهنة، لا الماضي ولا المستقبل، ضوء يُعمِي كلّ رغبة في معرفة من أين أتينا وإلى أين نذهب، ضوء يخنق تحت عنفه الصارخ كلَّ الأسئلة عن معنى الأشياء وترابطها. أيُّ فرق بينه وبين الضوء الخافت في ذلك الصباح! ضوء ناعم ولطيف يسرّ الناظرين ولكنّه، مع ذلك، قاسٍ لأنّه يجرِّد كلّ شيء من سِحره الخادع ليُخرج بلا رحمة كلّ التفاصيل حتّى أبشعها لكي يتمكّنَ العالم من الظهور على حقيقته، ضوء سخّر للتشجيع على إدراك هادئ جريء ونزيه لكلّ الأشياء، مهما كانت غريبة أو شخصيّة.

في مقهى الأمس، كان النادل يرتدي صُدرته المفتوحة والمتدلّية

من كلّ جانب، وقميصه متّسخ برماد السّجائر، وهو يسعل. كلاّ لا أرغب في استبدال حياته بحياتي.

في أفنيون أرجعت السيّارة التي استأجرتها، وفي مقابل ذلك ناولني فان فلييت مفاتيح سيّارته. كان الأمر مختلفًا عن الأمس، بالقرب من ميدان الخيول في كلمارو. هناك صارحني بأنّه على غير ما يرام، ويمكن الاعتقاد أنّه يعاني من الغثيان. في تلك اللّحظة لم يحتَجْ إلى تقديم أعذار أو شرح. أعطاني المفاتيح ببساطة. كنت واثقًا من علمه بأنّني أعرف السبب. والتقت أفكارنا من جديد، كما هو الحال بالأمس عندما لعق الكلب يده، وكلّ منّا متأكّد أنّ الآخر يفكّر في يدي لِيَا الخائفتين من كلّ شيء ماعدا الحيوانات.

قريبا منّا، في موقف السيّارات، حبيبان يتشاجران. هو يتحدَّث الألمانيّة وهي تتحدّث الفرنسيّة. وهذه الطريقة في التأكيد على اللغتين المختلفتين شبيهة بتبادلِ للأسلحة.

«كانت لِيَا تتحدّث معي دومًا بالألمانيّة وتتحدّث مع سيسيل بالفرنسيّة. أو غالبًا ما تفعل ذلك، وبالخصوص عندما تغتابني مع سيسيل، قال فان فلييت عندما انطلقت السيّارة. وهكذا تحوَّل حبّي للغة الفرنسية التي تتحدّثها سيسيل إلى كره لفرنسيَّة لِيَا».

عاشت لِيَا وسط حُمَّى نجاحاتها، وأصبحت انتصاراتها في التحكّم بالصعوبات التقنيّة تتعاقب دون انقطاع. الزغردات أيضًا صارت أكثر اعتدالاً. أصبح الأب والبنت في تلك اللحظة يسكنان الجدران التي تحوَّلت إلى مكان جديد بعد أن اجتاحها موج الألحان، مكان بات نادرا ما يُذكِّر بغياب سيسيل. وهذا يثير انزعاج الأب

أكثر من لِيَا. من وقت إلى آخر، وعلى ما يبدو دون سبب معيَّن، أصبحت لِيَا ترغب في معرفة كلّ شيء عن أمّها، فيشعر فان فلييت أنّها تقارنها بماري.

«كنت ألاحظ أن لا شيء ممّا قلتُه صحيح: كلّ شيء خاطئ. اللعنة. بعد تلك المحادثات ظللت صاحيًا وأنا أفكّر بلقائنا الأوَّل في السينما. حدث ذلك قبل نَيْلي شهادةَ الدكتوراه بفترة قصيرة. *رجل وامرأة* مع جان لويس ترانتانيان[1] الذي قاد سيّارته بسرعة جنونيّة من ريفييرا إلى باريس طيلة ليلة كاملة بسبب امرأة. عطر سيسيل الذي كنت أستشعره بقربي بدا لي هو ذاته عطرَ المرأة التي تظهر على الشاشة. وفي اليوم الموالي بحثت عنه في كامل المدينة حتّى عثرت عليه، عطر من ديور. خلال الفاصل ظللنا جالسيْن ونحن نتذمّر من هذه العادة السيّئة في قطع فيلم من أجل بثّ إشهار لبيع المثلّجات. وفي الشارع تبادلنا النظرات مرّة فترةً أطول بالقياس إلى ما نفعله في العادة خلال لقاءات تحدُث مصادفة. عندما أفكّر أنّ تلك اللحظة هي التي حسمت كلّ شيء بما في ذلك لِيَا وسعادتها والكارثة التي نتجت عن كلّ هذا؛ السينما الملكيّة بلوبنستراس، سهرة صيفيّة حارّة، بعض الضباب على حدقات عيوننا. يا إلهي!

«مارتن، أيّها الرومانسيّ الوقح!»، قالت خلال لقائنا الموالي عندما تحدّثتُ عن وجه ترانتانيان الغائر بفعل الأرق، طوال الطريق إلى باريس، وأنّه، بقيادته للسيّارة على ذلك النحو دون توقّف، أعطى

---

(1) ممثل ومخرج فرنسي.

كلّ شيء، قطعًا كلّ شيء. «لم أعتقد أنّ *بإمكان* أمر كهذا أن يوجد حقًّا»! «كانت تنطق اسمي بالنبرة الفرنسيّة نُطقًا لم يفعله أحد من قبل. وكان هذا يروق لي. هل هي الوقاحة؟ لا أدري لماذا تقول هذا ولا ما إذا ظلّت على رأيها. لم أسألها عن ذلك مطلقًا. هناك العديد من الأشياء الهامّة التي لم أسألها عنها قطّ. ولم أنتبه إلى ذلك إلاّ عندما بدأت لِيَا تطرح عليّ أسئلة».

كانت ماري أهمّ من الآخرين، أهمّ من الوالد نفسه، الوالد الذي لا تعود إليه لِيَا من جديد إلاّ عندما تكون على خلاف مع ماري وتشعر أنّها أُهينت، فتشتهي رؤية مشهد السباقيتي الساخنة وهي تسيل على مضرب التنس[1].

«كانت لِيَا تكبر بسرعة، وأصبحت ابنة لأبٍ طويل القامة لا تخطئه العين. وقد حانت لحظة إعطائها كمانَها الأوّل كاملاً. ذهبنا إلى زيوريخ وإلى لوسارن وزرنا عوّادًا مشهورًا في سانت-غال. استاءت كاتارينا وولتر لأنّ عرض كرومفولز لم يقنعني. وشعرتْ ماري بأنّها استُبعدت عندما عدنا حاملَين آلة تسُرُّ الناظرين، والأجمل منها اللحن الصادر عنها. كان الكمان يكلّف ثروة، وعندما ذهبتُ إلى البنك لأبيع أسهُمًا بالخسارة تساءلت وأنا أرتعش: ما الذي أنا بصدد فعله؟ ومازلت إلى اليوم أشعر بأنّني أخطو الخطوات الأولى في الشارع، يملؤني الخوف كما لو أنّ الإسفلت يمكن أن ينهار تحتي في

---

(١) مشهد من فيلم «الشقة» إذ استعان جاك لومون بمضرب تينيس ليقدّم عليه السباقيتي التي طبخها لشيرلي ماك لاين.

أيّ لحظة. شيء مّا انزلق داخلي ولكنّني لم أرغب في معرفته. وعوضًا عن ذلك صمَّمت على تنظيم حفل في المنزل.

ونحن جالسان إلى طاولة المطبخ، حاولنا أن نعدّ قائمة بأسماء المدعوّين، لكنّنا عجزنا عن إنجازها. ماري باستور عندنا؟ الآن فقط، وفي وقت استيائها؟ ضمَّت لِيَا شفتيها وأنجزت رسومات بإصبعها على الطاولة. سعدتُ بهذا المشهد. كارولين؟ إنّها تعرف منزلنا. ولكن هل ستأتي كضيفة مدعوَّة إلى حفلة؟ وربّما رفاق دراسة آخرين أيضًا؟ أعدت غلق دفتري. ليس لدينا أصدقاء.

أعددت أرزا بالزعفران. وعقب غداء صامت ذهبت لِيَا إلى غرفتها لتعزف مرّة أخرى على الكمان الذي صدر عنه رجع دافئ وذهبيّ. وبعد مرور بضع دقائق، وبما أنّه ليس لدينا أصدقاء فإنّ العزف فقَد كلّ أهميّة».

اكتشف فان فليبت طموحَ لِيَا، تعَصُّبها وبرودها أيضًا عندما تصدَّى لها أحدهم. لقد خرّ ماركوس جربر صريعًا منذ زمن بعيد، فتى آخر وقع في غرام المراهقة ذات الأربعة عشر عامًا وارتكب خطأ مرعبًا هو إهداؤها كمانا في عيد ميلادها. ردُّ فعل لِيَا كان قاسيًا. وفي مناسبات مشابهة شعر الأب بالحيرة. ولكن بعد درس موسيقي مرَّ على نحوٍ سيء عند ماري، عادت إلى المنزل باكية والتجأت إليه وقد عادت الطفلة الصغيرة التي تقول، من وقت إلى آخر، أشياء غريبة لامنطقية نسبيًّا.

«ثمّ حدثت قصّة باغانيني. فالوضعيّات التي يتطلّبها لا إنسانيّة وقد شرحَتها لي لِيَا. باستطاعة *يد الشيطان*، كما كانت تسمَّى، أن

تلمس الوتر مع وجود فارق لا يصدّق. وكان يكتب ليدين بذلك الحجم. بدأت لِيَا تمارين الإطالة لكنّ ماري منعتها. فواصلت فعل ذلك خفية وقرأت كتبًا حول نيكولو. ولم تتوقّف إلاّ عندما منعتها ماري نهائيًا.

عرفتُ أنّ الفشل هو مصير هذا الأمر. وثقتُ من ذلك على الدوام. التعصب، البرود، الأحاديث الغريبة. كان عليّ أن أتحدّث مع ماري عن كلّ هذا وأسألها عمّا إذا لم تلحظ هي أيضًا مدى ما أصبح عليه الوضع من خطورة. ولكنّني... في النهاية هذه هي ماري، لم أرِد... لم أرِد أيضًا أن يصمت كما لِيَا ويختفي رجعه من منزلي. وإلاّ لكان الصّمت رهيبا. ولاحقًا سمعت هذا الصمت المرعب، هذا الصمت المميت. واضطررتُ إلى أن أستمع إليه من جديد هذا المساء.

كلّ كيلومتر يقرّبنا الآن من هذا الصّمت الذي يسكن شقّته الجديدة، الشقّة الصغيرة كما وصفها في السابق. ودون أن أدرك السبب وراء ذلك، تخيّلتها بائسة يزدحم دَرَجُها بالروائح الكريهة. ودون وعي خفّضت في سرعة السيّارة.

«ذات مرّة، قبل موعد أوّل مسابقة ستشارك فيها لِيَا، استيقظت عند الفجر وقلت في نفسي: لقد نسيت حياتي منذ ظهور ليولا دي كولون. لم أعد أفكّر إلاّ في حياة لِيَا. ودون أن أحلق ذقني، ذهبت إلى المحطّة عبر الطرقات المقفرة. ثمّ نزلت السلّم المتحرّك ببطء وهو ما يزال ساكنا، وحاولت تمثُّل ما يعنيه أن أكون أنا نفسي قبل أن يفرض الكمان سلطته التامّة على حياتي. هل في وسعنا أن نعرف كيف كانت الأشياء في ما مضى لحظةَ ندرك كيف أصبحت لاحقًا؟ هل بإمكاننا

معرفة ذلك حقًّا؟ أم أنّنا لسنا قادرين إلاّ على تذكّر ما وقع بعد ذلك وأنّ ذهننا المشوّش يصرّ على التشبّث بالماضي؟

وصلتُ إلى الجامعة عبر المصعد، ودخلتُ إلى المعهد الخالي والصامت في تلك الساعة من الصباح. فتحتُ البريد وقرأت رسائلي الإلكترونيّة. كانت كلّ الرسائل تخاطب شخصًا كنتُه ولم أكنه قطّ بالرغم من ذلك. بعد أن رددتُ على رسالتين مستعجلتين، أغلقت المكتب. العناوين المكتوبة أمام اسمي على الباب بدت لي في ذلك الصباح سخيفة جدًّا وفي غاية الإضحاك. في الخارج بدأت المدينة تستيقظ. ولاحظت وأنا مضطرب أنّ شيئا مّا يشدّني إلى مونبيجو، حيث كبرت في شقّة للإيجار. الحياة المنسيّة التي بحثتُ عنها لا تبدو إطلاقًا حياتي العمليّة وإنّما الحياة، تلك الحياة التي تسبقها، تلك التي كانت مخفيّة في العمق.

ظلّت العمارة على هيئتها السابقة، وهناك، في الطابق الثالث، نضجت موهبتي الأولى: الرغبة في أن أصبح مزيّف عملات. كنت أفكّر، وأنا مستلقٍ على سريري، في كلّ ما يجب أن أقدر عليه للوصول إلى الهدف المنشود. لكن لا علاقة لهذا بأنّ الجدّ الأكبر كان موظّفًا هولنديًّا محتالاً في البنك، هرب إلى سويسرا، ولم أعلم بذلك إلاّ بعد مرور فترة طويلة. وأنا صغير، كانت الأوراق النقديّة تسلب لُبّي. وأجد مجرّد استبدال قطعة شوكولا مقابل ورقة ملوّنة أمرًا عجيبًا. ألاّ يطاردنا أحدٌ ولا يرمى بنا في السجن بعد مغادرة المحلّ حاملين الشّوكولا، هذا هو الشيء الذي أثار في داخلي حيرة لا متناهية. ولشدّة دهشتي عمدت، باستمرار، إلى إعادة التجربة. بدأت أسرق أوراقًا

نقديَّة من العلبة التي تضع فيها والدتي نقودها. وأصبت بدهشة عميقة عندما اكتشفت أنّ هذا في غاية السهولة ولا يمثِّل أيّ خطر. كانت أمّي تجوب البلاد صحبة رؤسائها في مجال الموضة، ونادرًا ما تبقى في المنزل، مقارنة بوالدي الذي يقوم بجولته لدى الأطبّاء لعرض منتجات صيدلانيّة. وذهبت لاحقًا لمشاهدة الأفلام التي تتحدّث عن التزوير وعن تزوير اللّوحات أيضًا. أصبت بالخيبة وامتلأت حقدًا لرؤية وسائل الدفع وهي تزداد عسرًا وتصبح صعبة المنال. وما كدتُ أتعلّم كيف أعمل على الحاسوب حتّى انتقمتُ بوضع خططٍ للسَّطْو على بنك عبر موقعه الإلكترونيّ. كان ذلك مذهلاً، لم يعد أمامي الآن إلاّ الضغط على الزرّ لنقل الأرقام التي لا وجود لها في الواقع. وجدت هذا أشدَّ غرابة من قصّة الشُّوكولا.

عندما عاد والدي من جولته كمندوب مبيعات، بدا مرهقًا وسريع الانفعال. لم يملك القوّة ولا الرغبة في العناية بولده، ذلك الطفل الذي كانت ولادته غير متوقّعة. ولكن، مع ذلك وُجد طريق قاد أحدَنا نحو الآخر: إنّه الشطرنج. ونحن نلعبه، باستطاعتنا أن نكون معًا دون أن نُجبَر على الكلام. كان والدي لاعبًا عصبيًّا، صاحب إلهامات برّاقة ولكنّه يفتقد التصميم الضروريّ لتحقيقها في مواجهة منافسين ذوي أذهان مقدِّرة للعواقب مثلي. ولذا يُمعن في الخسارة في غالب الأحيان. والشيء الذي أشعر بالامتنان له من أجله هو أنّه لا يغضب مطلقًا من هزائمه، ويفتخر بانتصاراتي.

واصلنا اللعب حتّى ونحن في المستشفى. أظنّ أنّه كان سعيدًا لأنّ حياته المحمومة كبائع تنتهي عندما يفقد قلبه الرغبة في ذلك.

ظلّ أمامه الوقت الكافي ليشهد حصولي على شهادة الدكتوراه في وقت مبكّر. ابتسمَ قائلاً: «دكتور مارتن فان فلييت. هذا يبدو جيّدا. هذا يبدو جيّدا جدًّا. لم أتصوّر أنّ بإمكانك تحقيق ذلك، أنت الذي لا يبرح نوادي الشطرنج». والدتي التي استغنى عنها رؤساؤها انتقلت للعيش في شقّة أصغر. قبل أن أودّعها بعد زيارتي الأسبوعيّة، تردَّدت على غرفتها بحجّة مّا، واضعًا بعض الأوراق النقديّة في العلبة. «ولكن أنت نفسك في حاجة إلى المال»، تقول من وقت إلى آخر. وأجيبها «إنّني أطبعها بنفسي». فتردّ في دهشة: «مارتن مارتن»! كان لها الوقت لتشهد ولادة لِيَا. «من يصدِّق؟ أنت أب الآن»، صاحت. أنت الذي كنت المنعزل الصامد دومًا»!

على الطريق الفيديراليّة التقينا رجلين يلعبان الشطرنج بقطع ضخمة تصل حتّى ركبهما. أوشكت الجولة على الانتهاء وكان الرجل سيخسر لو قام بالحركة البديهيّة ويحصل على البيدق الذي بات في متناوله. ألقى عليَّ نظرة حائرة فهززت رأسي عندها حرَّك الحجر أمام البيدق. الشابّ الذي تابع حوارنا الأخرس حدَّق فيّ مليًّا: من الأفضل عدم التصرّف معي على هذا النحو. ليس أمامنا إلاّ الخسارة.

خسر المباراة بعد خمس حركات أمليتها على الرجل العجوز. كان باستطاعة هذا الرجل أن يرافقني لشرب كأس عن طيب خاطر، ولكنّني بصدد البحث عن حياتي. وتابعت طريقي نحو المعهد مرورًا بجسر كرشنفلد. كان التلاميذ الذين يصغرونني بربع قرن، يتدفَّقون نحو أقسامهم. وحين أغْلِقت أبواب قاعات الدرس وجب عليّ أن

أدرك، وأنا مضطربٌ، أنني مُقصًى، والحال أنني حقّقت في ما مضى الرقم القياسيّ في الهروب من المدرسة.

دخلتُ إلى القاعة الكبرى الخالية التي انبعثت منها رائحة الورنيش القديم. كم من مباراة موازية شاركتُ فيها شهِدَتْها هذه القاعة؟ لم أعد أذكر. عمومًا لم يسبق لي أن خسرت إلاّ ثلاث مباريات. «أنت تخسر دومًا أمام فتيات، هكذا يقول الآخرون بلهجة ساخرة. ودومًا ضدّ فتيات بتنانير قصيرة».

أكثر الأشياء متعة هو اللعب أمام بِيت كايزر، أستاذ الجغرافيا، عدوّ هانس لوتي اللدود. كان كايزر شخصًا عديمَ الخيال، ذا فكّ سفليّ كبير، للجلد المترهّل فوقه بريقٌ، ويشعر بأنّه، قبل كلّ شيء موظّف سامٍ في الدولة. ويفضّل أن يُدَرِّس مرتديًا بذلة رسميّة حاملاً خنجرًا. والجغرافيا بالنسبة إليه تتمثّل في معرفة كلّ الممرّات الجبليّة السويسريّة. وغالبًا ما يناديني: «فلييت». من حيث المبدأ، لم يكن هذا يثير اهتمامي. فعندما يكون اسم أحدهم كايزر فإنّ من المحزن، بطبيعة الحال، أن يضطرّ إلى مناداة خصمه بفان فلييت. وعندما يفعل ذلك في نهاية الأمر، أقول إنّ جبل سوستن يمرّ تحت نهر اللآر أو إنّ سمبلون تربط كاندرستاغ بكاندرستاغ. هو أيضًا خسر كلّ مسابقة في النظرات. وإنّها لحفلةٌ حقيقيّة أن نلاحظ، كما في كلّ مرّة، أنّه سلّم بخسارته مرّة أخرى. كان هذا الرجل يكرهني، وأعتقد أنّ ذلك يعود بالخصوص إلى ما يتردّد عنّي من كوني الشخص الأكثر وقاحة، الشيطان الأكثر مكرًا في المعهد، هو الأشدّ ذكاء من عديد الأساتذة. وهذا أمر يجب تقبّله للأسف. خلال إحدى المباريات مررت أمام رقعة شطرنج كايزر

دون أن أنظر إليه. رفعت حاجبيَّ بطريقة مسرحيّة ولعبت بحركات سريعة بشكل ملحوظ. حاول أن يعارض التقرير الطبيّ الذي يعفيني من الخدمة العسكريّة لاعتقاده أنّني أتمارض. والأمر بالفعل كذلك.

في نهاية ذلك الصباح توجّهت إلى مدرسة لِيَا. وصلت خلال فترة الاستراحة. وعوض أن أذهب للبحث عنها كي آتيَ بها كما كان في نيّتي وتوضيح سبب مغادرتي المنزل في ساعة مبكرة جدًّا، وقفتُ على بعد مسافة منها لأتأمّلها. رأيتها تقف إلى جانب عدد من الدرّاجات الهوائيّة وتمسح بيدها أحد المقابض وهي مستغرقة في أفكارها. اليوم يبدو لي أنّ ذلك المسح الذي لا طائل منه كان نذير حركة غامضة كالتي لمحتها تقوم بها، عندما عثرتُ عليها خلف حزمة الخشب في مأوى سانت-ريمي.

في تلك اللحظة عادت أدراجها وذهبت للالتحاق بمجموعة من التلميذات اللواتي كنّ يستمعن إلى فتاة ذات شعر غزير شديد السواد. بدا أنّ الفتاة الشابّة تحبّ الخيول والتخييم وموسيقى الغيتارات الصاخبة. فتاة شبيهة بجان دارك، بجسد طالبة جامعيّة من كاليفورنيا. إنّها كلارا كالبارماتان من ساس فيي. كان باستطاعتها أن تمسك درّاجتها الجبليّة بإصبع واحد، وعمومًا بدت قادرة على فعل كلّ شيء. ولكنّها تشكو من نقطة ضعف واحدة: اسمها، أو بالأحرى كرهها لاسمها. فهي تريد أن يناديها الآخرون *ليلي*، *ليلي* ولا شيء غير ذلك. وعندما يرفض أحدهم مناداتها بهذا الاسم تعتبر ذلك بمثابة إعلان للحرب.

ثمّة تناقض صارخ، تناقض لا يُقهر بين المراهقتين، تناقض يتجلّى بطرق مختلفة: هنا بشرة ليلي التي دبّغتها الشمس وهي مفعمة بالصحّة في مُقابل بشرة لِيَا المرمريَّة التي تهبها في الغالب سمةً من به سقم. مشية ليلي الرياضيّة التي تنبئ في كلّ لحظة بالحركة السريعة لوركين متزلّجين، مقابل ارتباك لِيَا في سيرها أو وقوفها. حتّى لَيُخيّل إلينا أنّها نسيت أين تركت أعضاءها. نظرة ليلي الثاقبة والزرقاء بأجفانها الثابتة التي كانت لها شراسةُ ضربةٍ قاضية في مقابل نظرة لِيَا الحزينة والخفيّة، تلك التي يفيض السحر من ظلٍّ رموشها الطويلة. جمال خارق أسمر وبسيط لملكة جبالٍ، لبطلة تزلّج على الماء مقابل الجمال الشاحب والأرستقراطيّ والهشّ لجنيّة من الألحان تحفظ توازنها على حافّة الهاوية. كانت ليلي تقاوم حتّى النهاية، كشمس ساطعة على شارع رئيسيّ مغطّى بالغبار وملتهب بفعل الحرارة. وفي مقابل ذلك تتظاهر لِيَا بعدم قبول الصراع لتقرّر كلّ شيء بعده، بحركة مفاجئة وماكرة نابعة من كمين في الظلّ. أم أنّ هذا ليس إلاّ ما يصوّره لي خيالي البائس جدًّا؟ ألن تنتصر على كلارا كالبرماتان بأناقة سيسيل بدلاً من الاستعانة بمكري؟ بلمسات سيف لا مرئيّ؟

في الساعات التالية مررت من أمام الأماكن التي سبق أن ارتدتُها وأنا طالبٌ، وأطلت الوقوف أمام قاعات نادي الشطرنج القديم الذي لم يعد موجودًا. في ذلك المكان، موَّلت جزءًا من دراستي. لعبتُ في الغالب على نحو أعمى ضدّ خصوم عديدين واضعًا في جيبي بعد ذلك نصف المداخيل.

في إحدى المرّات، ولم يحدث ذلك إلاّ مرّة واحدة، انهارت ذاكرتي

ونسيتُ كلَّ تفاصيل السَّهرة، وتوقّفت عن اللعب مدّة ستّة أشهر. في المساء زاد عدد زياراتي لوالديَّ على خلاف العادة. كانا فخورَين بي على نحوٍ مخيف، فخورَين بابنهما الذي يتابع دراسته ويسيطر على حياته باستقلاليّة في مثل هذه الرّوعة. كان ذلك مؤثّرا وتمنّيت بشدّة أن ينسياه دفعة واحدة، أن يكونا لمساء واحد، لمساء واحد فقط، الأبوَين الأقوى والملاكَين الحارسين لابن ضعيف ومتردِّد. وكنت أعترض دومًا رسائل الإنذار المرسلة من المدرسة. فعندما يكون الواحد منّا طفلَ شوارع فإنّ لديه كلّ السلطة على صندوق الرسائل. كيف لهما أن يعرفا أنّ كلّ شيء ليس مطابقًا للمظاهر؟

كانت بداية الظهيرة. لِيَا لن تتأخّر في العودة إلى المنزل وينبغي أن أصل قبلها. ولكنّني رغبتُ في الذهاب إلى السينما. رغبتُ في أن أعيش تكرار ذلك الماضي مرّة أخرى، وأجلس في بداية الظهيرة، ذات يوم مشرق، في قاعة مظلمة، منتظرًا العرض الأوّل ومستمتعا بالشعور الذي يغمرني وأنا أفعل ما لم يفعله أحد».

كنت أرى كورتيناي وهو يركض، ثمّ جالسًا في غمرة الانتصار أمام خطّ الوصول خلال عروض الظهيرة، وما بعد الظهيرة وفي المساء.

«لم أتابع شيئًا من الفيلم. في البدء، فكّرت في لِيَا التي ستجد الشقّة في تلك اللحظة فارغة كما في الصباح. ولكنّني أدركت شيئًا فشيئًا أنّ الأمر متعلّق بشيء مّا أكثر أهميّة. تخيّلت الصورة التي ستكون عليها حياتي لو لم توجد لِيَا، لو لم أعتن بها، ولم أطبخ لها، ولم أخش عليها من عودة الأكزيما، ولم أصغِ لتمارينها على الكمان. لقد

اختفى الارتباك نهائيًا. تخيّلتُني أقود السيّارة كامل الليل لأجد نفسي بعد ذلك أمام بيت ماري باستور. فخرجت من السينما راكضًا، وعدتُ إلى المنزل».

الفصل الثالث عشر

بالقرب من فالنس، توقّفنا في موقف استراحة لأتمكّن من تنشيط ساقي. ريح شماليّة قارسة تعصف من وادي الرون، ولا مجال للحديث. بقينا واقفَين والريح تخفق سروالينا وتسلخ وجهَينا اللّذين بدآ يلتهبان من شدّة البرد. «هل باستطاعتنا الاستراحة في جنيف»؟ تساءل فان فلييت. «أرغب في زيارة إحدى المكتبات. مرَّ وقت طويل منذ اختفاء مكتبة بايوت من بيرن».

أراد أن يؤخّر اللحظة التي يعود فيها إلى منزله، حيث يُجبَر على الإصغاء إلى الصمت، بسبب غياب ألحان ليَا. «الصمت، لقد تبعني إلى هناك!»، هذا ما قاله متحدّثا عن منزله الجديد.

ظننتُ أنّ لانتقاله من منزل إلى آخر سببًا عمليًا. الآن، هو يعيش وحيدًا. ربّما حاول الفرار من الماضي أيضًا. ومع ذلك فثمّة شيء مّا في صوته، لعلّها نبرة غيظ، كما لو أنّ أحدًا أرغمه على إيثار هذه الشقّة الأكثر صغرًا من السابقة، كما لو أنّ شيئا مُلِحًّا مارس عليه سلطته. لا شكّ أنّ هذا الشيء الملحّ عظيم، قلت في نفسي. فان فلييت ليس رجلاً ينفر من منزله مهما يكن السبب.

«ويوجد أستاذ الموسيقى جوزيف فالتتان، قال عندما استأنفنا

المسير، رجل قصير القامة، صاحب هيئة مهملة، غير مثير للاهتمام. يرتدي أطقما رماديّة وصدريَّة وربطات عنق عديمة اللون. شعره خفيف، ووحدهما العينان استثنائيّتان: عينان ذواتا لون بنّيّ غامق، نظرتهما حائرة على الدوام وثاقبة. وكان يرتدي خاتم شعارات في غاية الضخامة يثير سخرية الجميع لأنّه لا يناسبه إطلاقًا. لقّبه التلاميذ بـ «جُو»، وهو اسم لا يليق به على الإطلاق. ولهذا السبب بالذات لقّبوه بهذا الاسم. عندما يقف على المسطبة ويدير جوقة التلاميذ الموسيقيّة، يوشك دومًا على أن يبدو سخيفًا. هو ببساطة قصير جدًّا ونحيف جدًّا. ويبدو مع كلّ حركة من حركاته معترضًا على هيئته المتواضعة جدًّا. ولكن عندما يتّجه نحو البيانو تفسح المزحات الساخرة المجالَ لصمت جليل. عندئذ تصبح اليدان رشيقتين وقويّتين وحتّى الخاتم يغدو لائقًا عليهما.

كان يحبّ لِيَا. يحبّها بكلّ كيانه الخجول الذي لا يجرؤ على المجازفة به خارجًا إلاّ في الموسيقى، رجل عجوز مغرم بفتاة جميلة. الأمر هكذا تقريبًا ومع هذا فهو ليس كذلك. لا يقترب منها كثيرًا. على العكس، يتقهقر عندما تأتي. وتلك مسافة طافحة بالإعجاب وبالقداسة وأعتقد أنّ باستطاعته أن يحتدَّ لو رأى شخصًا يضايق لِيَا. «كان ينادي ليلي بالآنسة كالبرماتان. وأشعر أنّه يفعل ذلك بسببي أنا»، هذا ما ردّدته لِيَا. وبعد اجتيازها امتحان البكالوريا، أصبحت تذكره في بعض الأحيان فنشعر أنّها تحنّ إلى عاطفة هذا الرجل البعيد وإعجابه بها.

هو وماري لا يحبّ أحدهما الآخر. ليس بينهما عداوة ظاهرة

ولكنّهما يتجنّبان إلقاء التحيّة خلال الحفلات المدرسيّة. وإذا اتّفق أن يوجدا معًا في القاعة فيمكن أن نقرأ ما يدور في ذهنيهما: لو غاب الآخر لكان الأمر أفضل.

كانت لِيَا تُحرز تقدُّما من حفلة إلى أخرى. لم تعد ترتكب أخطاء مطلقًا مثلما حدث أثناء عزفها للروندو. لكنّ البقع الحمراء التي ترصّع رقبتها قبل صعودها على المسرح لم تختفِ. وخلال فترات الاستراحة تمسح يديها على فستانها. ولكنّ ثقتها بنفسها أخذت تكبر. ومع ذلك، كنت أتألّم وأرتجف مع كلّ مقطع صعب تعزفه. وحفظت كلّ المقاطع لشدّة ما أصغيت إلى عزفها وأنا في المنزل.

في السادسة عشرة من عمرها، عزفت لِيَا مع الأوركسترا المدرسيّة *كونشيرتو على الكمان على سلَّم مي كبير*. كانت تحدّثني عن التمرينات وشفتاها مضمومتان. الفتاة، عازفة الكمان الأوّل في الأوركسترا تكبر لِيَا بسنتين وتُكنّي نفسها بعازفة الكمان الأولى. وكان من الصعب عليها تقبُّل لِيَا كعازفة منفردة رغم أنّ رجع كمانها أقلُّ جمالاً من رجع كمان لِيَا. وعندما التقيت بهذه الفتاة وجهًا لوجه بعد الحفل ألقت عليّ نظرة قرأت فيها: حدث كلّ هذا فقط لأنّك تملك المال الوافر لتقتني لها هذه الآلة».

ارتكبت لِيَا، وهي تعزف، خطأين صغيرين جعلا ماري تنتفض. مع ذلك كان هذا انتصارًا صارخًا صاحبه صخب من التصفيق والدوس بالأقدام. امتلأت عينا ماري بالدموع وأمسكت بذراعي على نحوٍ لم تفعله في أيّ وقت مضى. أحدهم التقط صورة للِيَا وهي في فستانها الأحمر الطويل الذي اختارته صحبة ماري». ابتلع فان

فليبت ريقه. ثمّ أضاف: «إنّها واحدة من تلك الصور التي لم أعرف في النهاية ما إذا كان يجب عليَّ رميها أو تمزيقها أو الاحتفاظ بها».

قبل العودة إلى جنيف، وفور اقترابنا من ليون، قال فان فليبت مخترقًا الصمت: «سجَّل جُو لِيَا في مسابقة سانت-موريتز. *ولَيته لم يفعل ذلك. ليته لم يفعل ذلك!*».

الفصل الرابع عشر

قبل أسبوعين من بداية المسابقة، حصلت لِيَا على إجازة من المدرسة. وقضت معظم وقتها عند ماري التي ألغت كلّ دروسها الأخرى. أخذتا تتمرّنان على عزف سوناتا لباخ وتصغيان دون توقّف لطريقة إسحاق برلمان[1] في عزف هذه السوناتا. أحيانا تتمرّنان حتّى ساعة متأخّرة من الليل ممّا يُضطرّ لِيَا إلى البقاء في منزل ماري. «لا حظّ لنا في الفوز أمام كمان الذي صنعه ستراديفاري»، لا شكّ أنّ هذا ما قالته يوما مّا بخصوص كمان برلمان. ولا شكّ أنّ صدى هذه الكلمات يتردّد في أعماق فان فلييت.

كان كابوس عودة الإكزيما يقضّ مضجعه ويحدث أن يستيقظ أحيانا مبلّلا بالعرق لأنّه رأى لِيَا فوق خشبة المسرح وهي تحاول، دون جدوى، تذكّر الموازين الموالية.

«وصلنا إلى سانت-موريتز قبل يومين من بداية المسابقة. حدث ذلك نهاية شهر جانفي في يوم تساقط فيه الثلج دون توقّف. كانت غرفة لِيَا تتوسّط غرفتي وغرفة ماري. وفي قاعة الرقص التابعة

(1) عازف كمان إسرائيليّ.

للفندق انتهت التحضيرات التقنية، وشعرنا بالفزع لرؤية كاميرات التلفاز. صعدت ليَا على خشبة المسرح وظلّت هناك وقتًا طويلاً. وكانت، من وقت إلى آخر، تمسح يديها على فستانها. لقد أرادت أن تتمرّن في تلك اللحظة، هذا ما قالته فيما بعد. ثمّ صعدت إلى غرفة ماري.

اليوم أيضًا بإمكاني أن أستشعر لفْح الثلج على وجهي كما في تلك الفترة. الثلج الذي ساعدني على تحمّل تلك الأيّام. استأجرت خشبة تزلّج ومضيت في جولة استمرّت ساعات. لطالما قمت أنا وسيسيل بمثل هذه الجولات. رسمنا، في صمت، دربَينا جنبًا إلى جنب في الثلج المتراكم بعيدًا عن المسافات المعتادة. وفي إحدى هذه الرحلات تحدّثنا للمرّة الأولى عن الأطفال.

أمّا أنا فمن المستبعد تمامًا أن يكون لي أطفال، قلت. فتوقّفت سيسيل قائلة. «ولكن لماذا؟».

منذ وقت طويل استعددتُ لمواجهة هذا السؤال. وضعت يديَّ على العصيّ، وحدّقت في الأرض محاولاً صياغة الحجج التي جهّزتها من قبل.

– لا أرغب في تحمُّل هذه المسؤوليّة. لا أعرف كيف يمكن تحمّل مسؤوليّة أحدهم. أنا لا أعرف حتّى كيف أتحمّل مسؤوليّتي بنفسي».

لم أذهب مطلقًا أبعد من هذه الجمل. وما أزال إلى اليوم أجهل موقف سيسيل منها. أكانت فهمَتْها أم صدَّقتها. بعد مرور سنة كاملة

على زواجنا أخبرتني بأنّ ليَا في طريقها إلى هذا العالم. وقد مثّل ذلك صدمة لي. لكنّ سيسيل أصبحت ملاذي ولم أرغب خسارتها.

مرَّت تسع سنوات على غلقي بابَ غرفتها في المستشفى برفق، كما لو أنّه ما يزال بإمكانها أن تسمع ذلك. «بخصوص ليَا عِدني بأن...» هذا ما قالته قبل وفاتها. «أجل، قاطعتها، أجل طبعًا». بعد ذلك ندمت على أنّي لم أتركها تكمل جملتها. الآن أيضًا، وبينما تنفث الريح على وجهي نُدَفَ الثلج، شعرت بالاختناق. فعدت إلى الفندق وأنا أقود السيّارة بسرعة جنونيّة.

خلال حفلها الأوّل استبدَّ الارتباك بليَا مثل مرض عضال لا نملك شيئًا حياله. وخلال السنوات الستّ التي مرَّت، تعلَّمتْ في غضون ذلك كيف تراوغه إذا اضطرّت إلى الوقوف أمام الجمهور، وذلك بإتيان كلّ أنواع الأشياء التي تحملها على الكدّ. وحين يتعلّق الأمر بالعزف لفائدة المدرسة فإنّ وجود كلارا كالبارماتان بين الجمهور مصحوبة بكامل زمرتها يساعدها على ذلك، أمام ذهولي الكبير. وكان الألق الذي بإمكان ليَا أن تضفيه على الحفل يثير حَنَقَ ليلي. وهي تفوز، بطبيعة الحال، بكلّ المباريات سواء على ميدان العدّائين أو في المسبح. ولكنّها تشعر بأنّ هذا لا يكفي. وقد وَعَت ليَا ذلك فكانت تفقد خجلها، فتستمتع بالوضع، وتتغلّب على كلّ الصعاب التقنية كما لو أنّ شيئا لم يحدث، حين تبصر ليلي وهي مسترخية في الصفوف الأولى مرتدية ثيابها المهلهلة.

في سانت-موريتز اختلف كلّ شيء. ففي حال فوزها بهذه المسابقة سيصبح بإمكانها أن تبدأ مسيرة عازف منفرد. كنت أعارض

مثل تلك المسيرة لأنني أرفض رؤية لِيَا فريسة للارتباك، لغضبها ضدّ الصّحافة، لخوفها من أن تتعرَّق يداها. ولكنّني قبل كلّ شيء، لم أُرِد أن أخشى عليها من ذاكرتها. وكان خوفي في محلّه. فمنذ الخطإ الذي ارتكبته في عزف الروندو لم يطرأ أيّ شيء خطير. لا شيء ممّا يمكن مقارنته بفشلي في الشطرنج. لم تكن النوتات تغرق في نسيان مفاجئ، لم تعد الأصابع متصلّبة ومتردّدة. ولكن في أحد الأيّام، وبينما هي تعزف سوناتا لموزارت بدأت بالحركة الثالثة قبل الثانية ومرّة أخرى بعد الحركة الثانية حسبتْ أنّها وصلت إلى النهاية. أمّا جُو فكّان عزفه على البيانو في غاية الروعة. وبابتسامته المليئة بالدفء، بابتسامة أبويّة، انتزع من الخطإ خاصّيته المُربكة فأردفت لِيَا معتذرة: «عفوًا». وقد زارني هذا المشهد في الحلم بعد ذلك، ولم أرغب قطّ في سماع هذه الكلمة: «عفوا»، مطلقًا.

في غرفة الطعام بالفندق، جلس المتسابقون العشرة تحت الثريّات، متظاهرين بعدم انشغال بعضهم ببعض. كانت الطاولات العشر متباعدة جدًّا، والأشخاص الذين سيحاولون في اليوم الموالي أن يتنافسوا في العزف على الكمان يتحدّثون إلى معلّميهم، مبدين حيويَّة وحماسًا بدا لي مبالغا فيها، كأنّهم يريدون أن يثبتوا أنّ وجود بقيّة المتبارين لا يشغلهم في شيء.

لاذت لِيَا بالصمت وأخذت، من وقت إلى آخر، تلقي نظرة على الطاولات الأخرى وقد ارتدت الفستان الأسود ذا الياقة العالية، الفستان الذي اشترته بصحبة ماري وأنا أتنزّه على الثلج. الفستان نفسه الذي سترتديه أيضًا خلال حفلتها وستخفي ياقتُه الطويلةُ

البقعَ الحمراء التي ترصّع رقبتها بفعل تأثّرها الشديد. فجأة ضاقت لِيَا ذرعًا بهذه البقع. ثمّ إنّها عدلت هي وماري عن شراء الفستان الموعود، فستان بحمّالة، وذهبتا للبحث عن موديل آخر. وقد أضفى الفستان الجديد على رأسها ذي الشعر المرفوع صرامة رهبانيّة تذكّرني بماري كوري.

كنّا أوّل من غادر غرفة الطعام. عندما أغلقت لِيَا باب غرفتها خلفها بقيتُ مع ماري في الرواق. وتلك هي المرّة الأولى التي رأيتها تدخّن فيها.

- ألا ترغب في فوز لِيَا؟ قالت.

انتفضتُ كما لو أنّ أحدهم فاجأني وأنا أسرق.

- هل أبدو شفّافًا إلى هذا الحدّ؟

- فقط عندما يتعلّق الأمر بلِيَا، قالت وهي تبتسم.

كنت سأسألها ببساطة عن أمنياتها وعمّا ترى من حظوظ لِيَا في الفوز. زد على ذلك، وددت أن أسألها عن أشياء عديدة. ولا شكّ أنّها لاحظت ذلك على وجهي لأنّها رفعت حاجبها. «إذن إلى غدٍ»، قلت ذلك وذهبت.

عبر نافذة غرفتي وقفت أتأمّل سانت-موريتز وقد جلببها الليل وغطّتها الثلوج. ولم تزل غرفة لِيَا مضيئة. أخذت أكرّر الجمل التي قلتها سابقا لسيسيل بخصوص المسؤوليّة. لقد بتُّ أجهل تمامًا أكنت على خطإ أم على صواب. وكان النهار يطلع عندما نمت أخيرًا.

الفصل الخامس عشر

في طريقنا إلى جنيف، لاح الغروب خلف الغيوم الداكنة. نام فان فلييت مديرًا رأسه نحوي وقد فاحت منه رائحة الكحول والسجائر. وهو يتحدّث عن عرض لِيَا في سانت-موريتز، أخرج قارورته وأشعل سيجارة جديدة بشُعلة سيجارته السابقة. لا يحقّ لأحد أن يدخّن في سيّارتي، فأنا لا أطيق ذلك، وهذا يشكّل خطرًا لاسيّما إذا لم أنعم بالنوم. ضاق نفَسي وشعرت بالدخان ينفذ إلى ملابسي. ولكن لم يعد هذا يزعجني الآن. لم يعد لهذا أيّ تأثير.

حدَّقتُ فيه. لم يحلق ذقنه ذلك الصباح، وكان يرتدي القميص الذي مزَّق ياقته البارحة وهو يبرطم أمام سيّاح رغبوا في رؤية غرفة فان غوغ بالملجإ. إنّه قميص غير مكويّ غُسل ألف مرَّة، ذو لون مبهم وأزراره العليا مفتوحة، تعلوه سترة سوداء مجعَّدة. وكان يتنفّس عبر فمه وأنفه في الوقت نفسه، وحشرجة خفيفة ترافق نفَسه، يبدو أنّها تسبّب له صعوبات في التنفّس.

بدا، وعيناه مغمضتان، كأنّه في حاجة إلى الشعور بالأمان. إنّه لا يشبه على الإطلاق رجلاً رغب سابقًا في أن يصبح مزوِّر عُملة، رجلاً سبق أن سحق خصمه في الشطرنج على الطريق الفيديراليّة،

لأنّ هذا الخصم تجرّأ على التحديق فيه. بل هو شبيه بشخص أخافَ روث أداماك، رغم أنّه لم يعترف بذلك قطّ. وقبل كلّ شيء، هو يشبه شخصًا لم يرغب في تحمُّل مسؤوليّة طفل، لأنّه يظنّ نفسه عاجزًا حتّى عن تحمُّل مسؤوليّة نفسه، رجل جَلَدَه كلام الدكتور ماريدجان مثل ضربات سوط حتّى إنّه لم يعد بإمكانه الحديث عن الدكتور إلاّ كما يتحدَّث عن *المغاربيّ*.

حاولتُ تخيُّل توم كورتيناي وهو نائم، متسائلاً كيف سيكون الحال لو أنّه تقاسم حياته مع فتاة يفترسها شغف خطير بالكمان. في غضون ذلك، غرق فان فلييت في شكّ عميق. «حتّى في مخبري لم أعد أتمتّع بكفاءة مثلما هو الأمر في السابق»، قال.

تقدّم المتسابقون بحسب الترتيب الأبجديّ. وهذا يعني أنّ لِيَا ستكون المرشَّحة قبل الأخيرة.

«كانت شاحبة وابتسامتُها هشَّة عندما شاركتنا الجلوس على الطاولة لتناول فطور الصباح. لا أحد أُجبر على الاستماع إلى المتسابقين، ولكنّ لِيَا رفضت بشراسة عندما عرضتُ عليها أن تقوم بجولة بدلاً من البقاء هناك. في ذلك اليوم، لم ترغب في سماعي، وفي لحظة مّا انتابتني رغبة في مغادرة الفندق دون تقديم شرح والذهاب إلى مطار كلوتن وركوب الطائرة الموالية. في الواقع، بقيت طوال الوقت بالقرب منها عندما انطفأت الأضواء، دون أن نتبادل أيّ كلمة أو نظرة واحدة. ومع ذلك حدسْتُ ما خطر ببال لِيَا. سمعتُه في نفَسها واستشعرته في طريقة جلوسها وفي تحرّكها على الأريكة. كانت تلك

ساعات من العذاب، وفي الوقت نفسه ساعاتٍ سعِدتُ فيها بسبب القرب الذي تخلقه القراءة الصامتة لما يحدث داخلها.

كان عزف المتسابقين الأوَّلين جافًّا وسطحيًا. وشعرت أنّ ليًا ارتاحت لهذا الأمر. في البداية بدوتُ سعيدًا لإحساسي بذاك. لكنّ القسوة المختبئة خلفَ هذا الاسترخاء أشعرتني، بعد فوات الأوان بالفزع. ومنذ تلك اللحظة، أصبحت هذه المشاعر متناقضة، شبيهة بتلك التي تملَّكتني سابقًا. كانت نقاط ضعف الآخرين طافحة بالأمل، والارتياح المسموع في نفَس ليًا العميق ينضح قسوة.

هل تملَّكني الشعور ذاته وأنا أمام رقعة الشطرنج، في مواجهة شخص مّا، عندما تكون المجازفة مهمّة؟ تراءى لي والدي وهو يغيّر مكان الأحجار بيديه اللتين تكسوهما بقع الشيخوخة، وأتاني صوته وهو يتنهَّد باستسلام مصطنع لحظةَ إدراكه أنّ الهزيمة حتميّة: «ولكن كيف تتدبّر أمرك»؟ وفي أحد الأيّام، وأنا أُخضِع الملك لإسقاطه، استولى على القطعة بحركة رشيقة وعنيفة ثمّ أوقفها من جديد. لم يكن الرجلَ القادر على شرح هذه الحركة ولكنّ وجهه بدا فجأة أبيض وبارز التقاطيع كما لو أنّه نُحت على الرخام. وفي تلك اللحظة أدركت أنّه يُخفي وراء تعبه وملَله كبرياء عنيدًا. لقد علَّمني بأسلوبه الصامت والمنهك معنى الرغبة في الانتصار، دون أن تتضمّن هذه الرغبة أيّ استعدادٍ للقسوة. أكثر من عشرين سنة مرّت منذ أن صافحني لآخر مرّة في غرفته بالمستشفى وضغط على يدي بقوّة خلافًا للعادة كأنّه شعر بأنّه سيرحل إلى الأبد في تلك الليلة.

هو الذي لمتُه في ما مضى على غيابه الدائم دون إظهار ذلك حتّى في أعماقي الغائرة. لم أشتق إليه مثل اشتياقي لحظةَ جلوسي إلى جانب ابنتي التي تمنّت بشدّة هزيمة الآخرين. كيف ينقل شخص تجاربه إلى طفله؟ ماذا نفعل عندما نكتشف في داخله قسوة تثير فينا الفزع؟

اثنان من المتسابقين الخمسة الذين قدَّموا عرضًا في الصباح تغيّبوا أثناء الغداء. الثلاثة الآخرون انحنوا على صحونهم في خجل وصمت. لقد أدركوا، دون شكّ، أنّ عروضهم لم تكن مبهرة وعليهم الآن أن يتحمَّلوا نظرات خصومهم الذين أصغوا هم أيضا إلى عزفهم. أخذت أتنقّل بنظري من واحد إلى آخر: أطفال عزفوا مثل الكبار، وهم في تلك اللحظة يتناولون حساءهم كالأطفال. يا إلهي كم هو قاسٍ هذا المشهد! قلت في نفسي.

أدرك الآباء أيضًا أنّ ذلك ليس كافيًا. أخذت إحدى الأمّهات تداعب شعر ابنتها وربَّت أبٌ على كتف ابنه. وفجأة أدركتُ بعد ذلك أنّ من القسوة دومًا أن تقع نظرات الآخرين علينا، حتّى وهي نظرات متسامحة. فهم بذلك يصنعون منّا نجومًا. لن يعود من حقّنا أن نكون نحن، بل ينبغي علينا أن نكون هناك من أجل الآخرين الذين يصرفوننا عن أنفسنا. والأدهى من ذلك أنّ علينا التظاهر بأنّنا أشخاص شفّافون. هذا ما ينتظره الآخرون. ومع هذا، فقد لا نكون كذلك قطّ في الواقع. قد نفضّل حقًّا ألاّ نصبح أبدًا أشخاصًا شفّافين ونختبئ في غموض نافع».

تذكَّرتُ نظرة بول الذاهلة من تحت القناع، تلك النظرة التي جعلتني أنطوي على نفسي. وتذكَّرتُ أيضًا وجه الممرّضة التي غضّت

بصرها. مجرَّد أنّها لا تحتمل النظر إليّ في لحظة الضعف تلك هو أشدّ مرارةً من فزع بول.

«بدأت فترة ما بعد الظهيرة بمفاجأة. إذ صعدت على المسرح فتاة اسمها عجيب، صولفجاغ. وجهها الذي تناثرت فوقه بقع النمش لا يبدو أنّه يجيد الابتسام. كان فستانُها يتدلّى عليها مثل كيس، وذراعاها نحيفتان حدَّ إثارة الشفقة. وعن غير وعي، انتظرتُ منها عزفًا واهنًا، لحنًا باردًا يبعث فينا شعورًا بالحزن.

وبعد ذلك، حدث هذا الانفجار! ملحّن روسيّ أجهل اسمه، ألعاب ناريّة مع تغيّر في الوضعيّات، غليساندو[1] وأوتار مضاعفة تقطع الأنفاس. وأخذ شعر الفتاة الذي بدا غير نضيف ومنسدلاً في شكل خصلات يطير فجأة، والعينان تقدحان شررًا والجسم النحيل يستسلم للضَّغط الموسيقي. ساد الصمت المطبق وتجاوز التصفيق كلّ ما سمعناه في الصباح. أدرك الجميع هذا الأمر: الساعةَ بدأت المسابقة.

تسمَّرت لِيَا في مكانها ولم أشعر بنفَسها. راقبتُ ماري التي يبدو أنّ نظرتها تقول: بهذا سنقيِّم عزفها. أغمضت لِيَا عينيها وببطء أخذت تفرك أصابعها واحدًا على آخر. شعرت بشيء مّا يدفعني إلى تمرير يدي في شعرها، ووضع ذراعي على كتفيها. متى بدأت في كبح جماح إغراءات كهذه في أعماقي؟ متى قبّلتها آخر مرّة، ابنتي؟

(1) مصطلح موسيقيّ يعني الانتقال الممتدّ أو المتّصل من نوتة إلى أخرى.

متسابقان آخران قبل أن يحين دورها. تعثَّرت الفتاة بأسفل ثوبها، وأخذ الصبيّ يمسح يدَيه على بنطاله دون توقّف، وعلى وجهه يُقرأ القلق خوفًا من انزلاق أصابعه الرَّطبة على الأوتار. شعرت لِيَا بالارتياح ووضعت ماري ساقًا على ساقٍ. وعندما بدأ الصبيّ العزفَ غادرتُ القاعة.

عندما وقفتُ، لم أنظر إلى لِيَا ولا إلى ماري. ليس ثمّة شيء قابل للشرح. كان ذلك هروبا، هروبًا من قلق أولئك الأطفال الذين جعلناهم يعتقدون أنّ من المهمّ المجيء إلى هناك للعزف على مرأى ومسمع من خصومهم ومن لجنة التحكيم. عمر أكبرهم سنّا عشرون سنة وعمر أصغرهم ستّ عشرة. **فُتوَّة موسيقيّة!** المدينة بأكملها امتلأت بهذه الحروف التي بدتْ جميلة وجليلة، شبيهة بالبرنيق الذهبيّ الذي يلوّن ما ترصَّدهم من خوف، ومن طموح خانق وأيدٍ متعرّقة. بعيدًا عن الطريق، غُرت في الثلج. وعندما لمحت من بعيد رتلاً من سيّارات الأجرة تنتظر، تذكّرت مطار كلوتن. لِيَا ستلاحظ مكاني الخالي وهي فوق المسرح. برَّدت وجهي بالثلج، وبعد نصف ساعة لحقت بالجمهور وبنطالي مبلّل بالثلج الذائب. كانت لِيَا في قاعة الانتظار. وعندما جلستُ لم تقل ماري شيئًا.

الفصل السادس عشر

«مرّت ستّ سنوات على جلوسي في قاعة المدرسة الكبرى ومشاهدتي ليَا وهي تقف على المسرح لأوّل مرّة. هل يحدث للجميع ألاّ يُمحى خوفٌ كبير مطلقًا، بل يختفي خلف الديكور ليظهر لاحقًا في كامل قوّته البكر؟ هل يحدث هذا لك أيضًا؟ ولماذا يختلف الحال عندما يتعلّق الأمر بالفرح والأمل والسعادة؟ لماذا تكون الظلال أشدّ قوّة من الضوء؟ هل بإمكانكم أن تشرحوا لي هذا، اللعنة؟».

لا شكّ أنّ نظرته كانت طافحة بالسخرية، نظرة رجل ما يزال باستطاعته أن يحتفظ بمسافة حتّى بينه وبين حزنه ويأسه. نظرة كتلك التي رأيتها البارحة أمام المصعد المفتوح، نظرة كنظرة توم كورتيناي وهو وحيد أيّام الزيارة التي لم يزره فيها أحد. لكنّ فان فلييت نقصته القوّة وأخذت نظرته تتحوّل إلى نظرة مليئة بالألم وانعدام التفاهم، نظرة فتًى يبحث عن مساندة في عينَي والده. كما لو أنّني شخص يمكن الاعتماد عليه في استجداء رجاء كهذا بكلّ ثقة.

«تبدو حازمًا جدًّا في مئزرك الأبيض، قالت ليسلي يوما مّا، ومع ذلك لا يمكننا الاعتماد عليك».

سعدتُ باقترابنا من حاجز على الطريق السريعة وبأنّ عليّ البحث

عن النقود لدفع رسم المرور. وحالما استأنفنا المسير أصبح صوت فان فلييت أكثرَ ثقة.

«عندما انطفأت الأضواء وصعدت ليَا على المسرح رسمت ماري إشارة الصليب بإبهامها في العتمة. لعلّ ذلك ما صوَّره لي خيالي ليس أكثر، ولكنّ الصمت بدا أكثر اكتمالاً منه قبل بداية عزف المتسابقين الآخرين. إنّه صمت يليق بالأديرة، قلت في نفسي، دير محاصر بقوى لا مرئيّة. ربّما اعتقدت ذلك لأنّ ليَا، وهي بثوبها الأسود ذي الياقة العالية وشعرها المرفوع، بدت مثل عازفة مبتدئة، فتاة تركت كلّ شيء خلفها لتتفرّغ كليّا لقدّاس الألحان الجليل.

بحركة أكثر إبطاءً من العادة وضعت ليَا المنديل الأبيض على مسند الكمان، جرَّبت العزف، أصلحت الأوتار، ثمّ جرَّبت العزف مرّة أخرى. أخذت الثواني تطول وأنا أفكّر في الروندو وفي ما أسرَّت لي به: رغبتها في رمي الكمان على الجمهور. تأكَّدَت مرّة أخرى من قوّة أوتار القوس وأغمضت عينيها، ثبَّتت أصابعها على القوس ثمّ وضعته على الأوتار. ضوء المصابيح بدا كأنّه أصبح أكثر إشعاعًا. ما سيحدث في تلك اللحظة سيقرّر مستقبل ليَا. ونسيتُ أن أتنفّس!

كم كانت لابنتي القدرة على عزف موسيقى كتلك! موسيقى ذات صفاء ودفء وعمق كبير! بحثت عن كلمة مناسبة لتوصيفها، وبعد لحظة وجدتها: *مقدَّسة*. عزفَت سوناتا لباخ فبدت كأنّها تبني معبدًا مع كلّ نوتة تعزفها. جاءت الألحان متقنة كذلك: واثقة، صافية، وراسخة. ألحان تخترق الصمت الذي يصبح أكبر وأعمق كلّما طال العزف. أخذت أفكّر في الألحان التي عزفتها ليولا دي

كولون في المحطّة، في أولى النوتات النشاز التي عزفتها ليَا في منزلنا، في سلامة النوتات التي عزفتها ماري خلال لقائنا الأوّل. مسحت ماري العرق عن وجهها بمنديل. وأخذت أستنشق عطرها وأشعر بحرارة جسدها. فهي التي جعلت من ابنتي الصغيرة امرأة تعرف كيف تملأ بذلك الجمال الصّاعق قاعة الرقص تلك في الفندق. أمسكتُ يدَها برهةً وضغطت عليها فاستسلمت لي».

شرب فان فلييت وسالت بضع قطرات على ذقنه. يمكن لهذا المشهد أن يبدو غريبا لكنّ هذه القطرات، هذا الدليل على نقص في التحكّم بالنفس، جعلني أخمِّن سلفًا إلى أي حدّ يمكن لذلك الانهيار أن يكون مفزعًا، ذلك الانهيار الذي ساقته تلك اللحظة المجيدة في قاعة الرقص بسانت-موريتز إلى حدود إقامة ليَا بنزل سانت-ريمي، حيث شاهد فلييت ابنتَه خلف الكمّ الهائل من الألواح، تائهة في أفكارها، وهي تحكّ بإبهامها طرف سبابتها. *إنّ روحها مكسورة*، قال الطبيب في ما مضى، الطبيب المغاربيّ.

«كما قلت لك: كانت موسيقى مقدَّسة»، تابع فان فلييت ثمّ صمت من جديد برهةً، قبل أن يستأنف حديثه: «عندما عرفت المزيد عن الأمر لاحقًا، اعتقدت، أحيانا، أنّها عزفت كما لو أنّها تبني لنفسها كاتدرائيّة خياليّة من الألحان، كاتدرائيّة يمكن أن تصبح ملجأها لو سئمت الحياة. خامرتني هذه الفكرة خلال الرحلة إلى كريمونا بالخصوص. فلم أبرح الكاتدرائيّة، كما لو أنّ الأمر كلّه يتعلّق بهذا المبنى الخياليّ». ابتلع ريقه ثمّ أردف قائلا: «كان ذلك جميلاً، من الجميل أنّ هذا الجنون لازمنا، صباحًا وبعد الظهر ومساءً. كأنّما كان باستطاعتي، هكذا،

أن أتقرَّب إليها بطريقة فريدة في التفكير والإحساس أصبحت في غضون ما حدث آنذاك خاصّة بلِيَا. في الواقع، حسدت أحيانا لِيَا سرّا على نزواتها وتصرّفاتها الغريبة التي تجعلها تحيد عن كلّ ما هو عاديّ وعقلانيّ. في الحلم، حدث أن رأيتُني برفقتها خلف كوم الخشب بسانت-ريمي. بدَت حوافُّ كلّ شيء، حتّى تلك الأشياء الخاصّة بنا، تسيل وتتحلَّل كما لو أنّها رسم مائيّ ألوانُه شاحبة ومخفّفة جدًّا. كان حلمًا ثمينًا حرصت على أن أستبقيه حتّى منتصف النهار».

هذا هو الرجل الذي أنقذته كتب عن ماري كوري ولويس باستور، هذا ما اعتقدته، الرجل الذي جعل منه ذكاؤه العلميّ والخوارزميّ أصغرَ أستاذ في جامعة بيرن.

«انحنت لِيَا فتذكرتُ انحناءها الأوّل بعد عزف الروندو. لقد حدّثتك عن سبب حيرتي في ذلك الوقت: ألقت التحيّة كأنّه ليس للعالم خيار آخر إلاّ الهتاف لها، كأنّ باستطاعتها أن *تطالبهم* بهذا التصفيق. المرأة الشابّة التي أخذت مكانَ الفتاة الصغيرة طالبت هي أيضًا بالشيء نفسه. أمّا الآن فقد أصبح هذا الانحناء يبدو لي أكثر خطورة من ذي قبل. وفكّرت أنّه باستطاعتنا أن نشرح للفتاة الصغيرة أنّ المستمعين أحرار في حكمهم. أمّا لِيَا ذات السّبعة عشر عامًا، لِيَا الواقفة على خشبة مسرح قاعة الرقص بتلك الطريقة فلن يستطيع أحد شرح ذلك لها. لا أحد على الإطلاق.

هل كان تصفيقهم لها مُدويًّا وطويلاً أكثر من تصفيقهم لصولفجاغ؟ كنت أعرف أن لا شيء آخر يدور في رأس لِيَا، وهي تنحني لتحيّي الجمهور بطريقتها المختصرة وشبه الآمرة، والخرقاء

نسبيًا. وأعرف أنّها تعيش كلّ ثانية على الأمل القلِق في تواصل التصفيق دون أن يخفت حتّى الثانية الموالية، ثمّ ثانية بعد أخرى إلى أن بدا واضحا جدًّا أنّ هذا التصفيق تجاوز الهتافات الحماسيّة التي أثارها عزف صولفجاغ.

هذا ما رغبتُ في ادّخاره لابنتي: هذا الانتظار المتواصل لردّ فعل الجمهور، هذه الحاجة المحمومة إلى التصفيق والاعتراف، هذا العطش إلى الإعجاب، وسمّ الخيبة عندما يصبح التصفيق أكثر ضعفًا واختصارًا ممّا حلمنا به.

كان وجهها مغطّى بشريط من العرق عندما لحِقت بنا بعد ذلك. لا أرغب في الاستماع إلى ألكسندر زكرياس، المتسابق الأخير، قالت بتصميم يُستشعر من خلفه الخوف والتأثّر. فغادرنا الفندق وخرجنا في العاصفة الثلجيّة الشديدة. لا ماري ولا أنا، تجرّأنا على أن نسألها كيف عاشت عزفها، لأنّ كلمة واحدة في غير محلّها ستجعلها تنفجر. وبينما كانت أحذيتنا تُحدث صريرا على الثلج، ظللتُ أفكّر في تلك اللحظة التي قاومت فيها لِيَا فجأةً محاولتي في سحبها نحوي وهي في محطّة بيرن.

«أرغب في أن أصبح مثل دينو ليباتّي»، قالت بعد وقت قصير. لاحقًا، حدّثتني ماري عن عازف البيانو الرومانيّ. وتساءلنا عمّا قصدته لِيَا بقولها ذاك. هل خلطت بينه وبين جورج إينسكو عازف الكمان الرومانيّ؟ اقتنيت اسطوانة لدينو ليباتي، وبالإصغاء إليها وحيدًا في منزلنا حاولت أن أتخيّل طريقة عزف ليباتّي لو أنّه كان عازف كمان؟ أجل، قلت في نفسي،أجل، هذا هو بالضبط. ومع ذلك، كنت أطارد

شبحًا، واحدًا من تلك الأشباح العديدة. في النهاية، لم يتبقَ إلاّ أشباح حدَّدت أفعالي، جيش عرمرم من الأشباح. لقد خلطت لِيَا حقًّا بين ليباتّي وإينسكو. ورفضت تصديق ذلك ضاربة بقدمها على الأرض. أطلعتها على الاسطوانة، ففتحت النافذة على مصراعيها ورمت بها في الخارج بكلّ بساطة. فأحدث اصطدام غلاف الاسطوانة بالإسفلت قعقعة مرعبة».

سكت فان فليت بُرهةً. وسمعت في هذا الصمت صدًى بعيدًا لفزعه السابق. ثمّ أردف قائلا: «ولكن حدث هذا بعد أن دخل دافيد ليفي في حياتها ليحطِّم كلّ شيء فيها».

الفصل السابع عشر

مع ظهور دافيد ليفي بدأ تسلسل زمنيّ جديد في حياة الأب والبنت معًا. وبذكر هذا الاسم، يبدأ أيضًا فصل آخر في قصّة فان فلييت، أو بالأحرى في طريقة سرده الحكاية. فما جدَّ هو قبل كلّ شيء العنف والفوضى اللّذين تحدَّث بهما عن سبب حَنَقِهِ منذ سنوات. لقد عرض إلى حدّ هذه اللحظة أحداثًا في تسلسل يوحي بأنّه مُخرجٌ مسرحيّ للذكرى. لاحقًا، بدت لي أعماق فان فلييت كأنّها خالية إلاّ من نهر مندفع من الصور والأفكار والمشاعر تحمل معها، وهي تفيض على الضفاف، كلّ ما كانه هذا الرجل أيضًا. حتّى إنّه نسي إخباري بنتيجة المسابقة واضطررتُ إلى تذكيره بها.

«ساد القاعةَ صمتٌ مطبق عندما صعد رئيس لجنة التحكيم على المسرح ليعلن عن نتائج المداولات. كانت حركاته متردّدة وبدا جليًّا أنّه يشعر بالأسف من أجل المتسابقين الذين سيخذلهم. وضع نظارته وفضَّ بعناية بالغة الورقة التي تحمل أسماء الفائزين الثلاثة الأُول. سيبدأ بالجائزة الثالثة: ضمَّت لِيَا يديها المتشنّجتين وبدا نفَسُها كأنّه انقطع. بينما أخذت ماري تقضم شفتيها.

احتلّت صولفجاغ ليندستروم المرتبة الثالثة. فاجأتني هذه الفتاة

من جديد وأثبتت لي أنّ أحكامي المسبّقة وضيعة. توقّعتُ أن تشعر بالإحباط، أن يفترّ ثغرها عن ابتسامة صغيرة وشُجاعة بالرغم من كلّ شيء. لكن على العكس، كان وجهها المليء بالنمش منيرًا وبدت مستمتعة بالتصفيق وهي تحيّي الجمهور بلطف، حتّى الفستان بدا في تلك اللحظة لائقًا جدًّا بها. صولفجاغ أشدّ تفاهة من الجميع. هي التي باستطاعتها أن تكون أقلّهم سحرًا، ولكنّها في رأيي أكثرهم استقلاليّة. وعندما قارنتها بابنتي المتوترة جدًّا وقعتُ أسيرًا لفتنتها.

فيما يخصّ المرتبتين الأولى والثانية، قال الرئيس، قضت لجنة التحكيم وقتًا طويلاً في المشاورات. فقد ترك المتسابقان انطباعًا حسنًا بحماسهما التقنيّ بالإضافة إلى عمق عزفهما. أخيرًا اتُّخذ القرار التالي: فاز ألكسندر زكرياس بالمرتبة الأولى وليَا فان فلييت بالمرتبة الثانية.

وهذا ما حصل: بينما وقف زكرياس فجأةً مندفعًا نحو المسرح، ظلّت ليَا جالسة في مكانها. فاستدرت نحوها. لن أنسى نظرتها التائهة مطلقًا. هل كان تصرُّفها ذاك يعبّر عن فراغ خيبة منعتها من الحركة؟ أم إنّ النقمة والغضب كانا يشدّانها إلى كرسيّها؟ وضعت ماري يدها على كتفها في إشارة لها بأن تقف. فوقفت أخيرًا وصعدت على المسرح بحركات مرتبكة.

توقّفت موجة التصفيق التي حيّت زكرياس، فيما بدت موجة التصفيق الثانية التي خُصّت بها ليَا ضعيفةً، كأنّ في ذلك تعبيرًا عن الاستنكار. تحت تأثير المفاجأة ربّما أو العناد أيضًا، أمسكت ليَا بيَدَيْ المتسابقين الآخرين وانحنت معهما. آلمني هذا المشهد، آلمني كثيرا أن أرى ابنتي هناك في الأعلى بين عازفَي الكمان الشابّين اللّذين كانت

ذراعاهما تجبرانها على تنفيذ تحيّة لم ترغب في القيام بها. لاحظ الجميع أنّ تحيّتها أكثر اختصارًا وجفاءً من تحيّة المتسابقين الآخرين. بدت وحيدة جدًّا هناك، في الأعلى، وحيدةً ومنبوذة، نبذت نفسها بنفسها، وتذكرتُ ذلك المساء ونحن في المطبخ بعد اقتناء كمانها الأوّل الكبير، عندما خلُصنا إلى أنّنا لا نملك أصدقاء يمكن أن نحتفل معهم باقتنائه.

بعد ذلك لاذ فان فلييت بالصمت ونام أخيرًا. وبوصولنا إلى جنيف، قدتُ السيّارة مباشرة باتجاه فندق أعرفه. لم يكن أمر الوقوف أمام مكتبة مطروحًا بالنسبة إليه. فما ينشده هو عدم العودة ابتداء من ذلك اليوم، عدم العودة إلى منزله الصامت، المنزل الذي هجرته موسيقى لِيَا.

أيقظته وأريته الفندق ثمّ أردفتُ قائلاً: «أنا متعب جدًّا ولا أستطيع المتابعة». فنظر إليّ وهزّ رأسه. لقد عرف أنّي اكتشفت الأمر.

«تلك هي آخر رحلة لي إلى سانت-ريمي»، قال خلال العشاء. ثمّ أضاف متأمّلا البحيرة. «أجل أعتقد أنّها الرحلة الأخيرة».

كان يمكن لهذه الكلمات أن تعكس شعورًا بالتحرُّر من وجوب الرجوع المستمرّ إلى المكان الذي سبق أن رأى فيه لِيَا منزوية خلف أكوام الخشب. كان يمكن لهذه الكلمات أن تعني نهاية الصراع ضدّ المغاربيّ أخيرًا. ولكنّها يمكن أن تدلّ على شيء آخر أيضًا. أخذت أتأمّل اللهب وهو يلتهم ورق سيجارته. لقد جلس على نحوٍ جانبيٍّ، ولا يمكن أن يُقرأ على وجهه ما منحه لهذه الكلمات. هل هذه الكلمات الرَّخوة تعبير عن استنتاج مّا أم هي إعلان عن شيء آخر؟

سحق سيجارته. وتابع الحكاية: «لم أرَه يتّجه نحو طاولتنا، أقصد ليفي. لقد ظهر فجأةً إلى جانبنا دون أن يلقي التحيّة، واثقًا من نفسه كرجل يملك العالم. وتوجّه إلى لِيَا بالحديث: «إنّه قرار جائرٌ. لقد دافعتُ عنك». كان يملك صوتًا رخيمًا، صوتًا جهوريًّا حتّى وهو يتحدّث برفق. ابتلعت لِيَا لقمتها ورفعت عينيها نحوه: بذلة رماديّة اللون حيكت من قماش أنيق، وتفصيلة رائعة، سترة تتدلّى منها سلسلة ساعة، شعرٌ كثٌّ ورماديّ، لحية صغيرة، نظّارة ذهبيّة ومسحة شباب خالد على وجهه. «عزفك عظيم خلاّب، إنّه أعجوبة!» لمحتُ بريقًا يلمع في عيني لِيَا. وعندئذ أدركت أنّها ستذهب معه، ستتبعه إلى اللغة الفرنسيّة، لغة سيسيل التي لم تتمكّن من الحديث بها منذ زمن طويل.

ليفي، لقد سرق منّي ابنتي بأخذها إلى هذه اللغة. ومنذ ذلك الحين، أصبح لفظ عظيم يؤثّث معجمها اليوميّ هي أيضًا، كلمة لم يسبق لي قطّ أن سمعت سيسيل تنطقها من قبل. ليست هذه الكلمةَ فقط، بل أضيفت إليها كلمات أخرى، كلمات نادرة منتقاة، كوّنت فضاء جديدًا بدأت ابنتي تسكنه.

ليفي بنغمته المتقطّعة المليئة بالإعجاب، نغمته الصامتة، أمرٌ بدا لي تصرّفًا مصطنعًا، متكلّفا وسخيفًا. أسلوبه ذاك في الحديث كافٍ وحده ليحذّرني منه. بعد مضيّ وقت طويل، وخلال لقاء تغيّرَ كلّ شيء بعده فجأةً، أدركتُ أنّ هذا الأسلوب متأصّل فيه تمامًا كسترته وسلسلة الساعة والحذاء الإنجليزيّ. كأنّه رجل يظهر من قصر فرنسيّ، يحفظ عن ظهر قلب بروست وأبولينار. وحيثما ذهب، سيحيط به دومًا قصر، بِبُسط وأثاث من لوح نفيس ولامع. وإذا

اضطرّ إلى الشقاء يوما مّا فسيكون شقاءَ سيِّد قصرٍ لامبالٍ ووحيد، على رأسه ستغدو الأسقف الخشبيّة العالية شيئًا فشيئًا متعفّنة وفاسدة، والثريّات النحاسيّة والبلوريّة باهتة ومتقعة.

«هل تسمحين لي بنزهة قصيرة»؟، قال ذلك مع أنّه لاحظ جيّدًا أننّا جميعًا بصدد تناول الغداء، لِيَا ونحن. كان ذلك جليًا. «بكلّ سرور»، ردَّت لِيَا وهي تنهض من مكانها.

أدركتُ على الفور أنّ الوضع سيغدو، منذ ذلك الوقت فصاعدًا، على هذا النحو: من أجله ستقف في منتصف الغداء، في منتصف أيّ شيء آخر. أمسك بيدها وخطَّط لتقبيلها. فتجمَّدتُ في مكاني، مع أنّ عشرة سنتيمترات على الأقلّ تفصل شفتيه عن يد لِيَا. ولم يكن هذا التصرّف سوى طقس، ذكرى شاحبة لقبلة، تواطؤ خالص. ومع ذلك...

التفت نحونا، وألقى علينا نظرة خاطفة، فاتحة تحيّة. «ماري، سيّدي».

وضعت أنا وماري ملاعقَنا جانبًا ودفعنا بالصحون أمامنا، كأنّ الزمن توقّف أمام أعيننا. استدارت لِيَا نحونا قبل أن تذهب، وفي نظرتها أثرٌ لتأنيب الضمير. ثمّ خرجت برفقة ليفي. غادرت الحياة التي عاشتها مع ماري ومعي لتدخل في حياة ستتقاسمها مع رجل لم تكن تعرف عنه شيئًا قبل خمس دقائق، رجل سيقودها إلى المرتفعات المدوِّخة ولاحقًا إلى حافَّة الهاوية. كانت معدتي ثقيلة مثل كتلة رصاص، وفي رأسي يسود صمت مخنوق، خالٍ من الأفكار.

عبْر باب غرفة الطعام الزجاجيّ، لمحنا ليفي الذي ينتظر لِيًا في البهو. كانت ترتدي معطفها وهي قادمة نحوه. أمّا شعرها الذي تركته مرفوعًا طوال الوقت فقد تهدَّل في تلك اللحظة على كتفيها. بدا الشعر المرفوع شبيهًا بطاقة مكبوتة وخانعة، كأنّها نوع من الزهد لأنّ كلّ طاقتها انصبّت في الماضي على كمانها ووهبته كلّ حبّها. أمّا الآن، وقد فردت شعرها فلم تعد تهدي العالَمَ خبرتَها فحسب، بل جسدها أيضًا. ظننتُ أنّ عزفها قد يفقد قوّته. ولكن حدث العكس: جرسه في حدّ ذاته اكتسب شيئًا مّا ماديًّا وعنفا حسيًّا منقطع النظير. في الغالب كنت أشعر بحنين إلى تحفُّظها البارد والمقدَّس. إنّه يليق جدًّا وبامتياز بهذا الجمال الرهبانيّ، هذا الجمال الذي جرفه في تلك اللحظة موجُ شعرها الطويل.

عبرَت الردهة رفقة ليفي وخرجت في الليل.

لن يعود أيّ شيء كما كان في السابق. شعرت بدوار خفيف، كما لو أنّ غرفة الطعام والفندق والمكان بأكمله تفقد حقيقتها المنيعة، حقيقتها المعتادة لتصبح مجرّد زخرف لكابوس.

عندئذ فقط، لاحظت مدى تغيّر وجه ماري. لقد احمرَّ كما لو أنّ الحمَّى اجتاحته. وغشيت ملامحَها قسوةٌ صارمةٌ. *ماري!* كان أحدُهما يعرف الآخر. النظرة التي ألقاها عليها في برود ودون أن يبتسم، نظرة عادت لتحيّتها من وراء الزمن الضائع. ذكرى معتمة ومريرة تجلّت فيها ولكن أيضًا الرغبة في ترك كلّ شيء يرقد في سلام، نسيان كلّ شيء.

«هل هو عازف كمان أيضًا»؟ سألتها. فخبّأت وجهها في يديها وأصبح نفَسها متقطّعًا. ثمّ نظرت إليّ. ولم أتمكّن من فهم تلك النظرة الغريبة إلاّ عندما تذكّرتها: كان فيها ألم ومرارة، ولكن شعلة من الإعجاب أيضًا، وربّما أكثر من ذلك.

«إنّه عازف الكمان، قالت. عازف الكمان السويسريّ. سويسرا الفرنكوفونيّة بالخصوص. لم يوجد من هو أفضل منه في تلك الفترة، قبل عشرين سنة. هذا ما اعتقده أغلب الناس، وممّا لا شكّ فيه أنّ هذا هو رأيه أيضًا. سبق لوالده الثريّ أن اقتنى له كمانا من صنع أماتي. ولكن ليست الآلة هي المهمّة، اليدان أيضًا مهمّتان. كان باستطاعة المنظّمين أن يبيعوا كلّ حفلة يحييها بخمسة أضعاف أو عشرة أضعاف ثمنها. دافيد ليفي، للاسم حينئذ ألقٌ خارق للعادة».

أشعَلتْ سيجارة ثمّ فرَكَت القدّاحة مرارًا بإبهامها دون أن تقول شيئًا.

«ثمّ جاء حادث جينيف. حصلت فجوة في ذاكرته أثناء عزفه إيقاعَ أويستراخ لكونشيرتو بيتهوفن دفعته إلى مغادرة القاعة بسرعة، وضجّت الصحف بهذا الخبر طويلاً. بعد هذه الحادثة لم يقدّم أيّ عرض أمام الجمهور ولم نعد نسمع أحدًا يتحدّث عنه مدّة سنوات عديدة. وسرت شائعات أنّه خضع لعلاج نفسيّ. وقبل حوالي عشر سنوات، بدأ يشتغل بالتدريس. أصبح أستاذًا استثنائيًا، وكلّ جاذبيّته تتجلّى الآن في حصصه. قدّم دروسًا أكاديميّة ببيرن. وفجأة، توقّف عن العمل دون أن يدرك أحدٌ السببَ وراء ذلك. انعزل في بيته

بِنوشاتيل. ومن وقت إلى آخر، كنت أسمع أحدَهم يتحدّث عن شخص يتلقّى دروسًا على يديه. ولكن هذه استثناءات دون شكّ. وخلال العامين أو الثلاثة أعوام الأخيرة انقطعت أخباره. ولم أعرف مطلقًا أنّه سيكون عضوًا في لجنة التحكيم هذه».

أيقنتْ أنّه سيقترح على لِيَا أن يقدّم لها دروسًا في الكمان. «من الطريقة التي نظر بها إليها»، قالت. ووثقت أيضًا من موافقة لِيَا. «أنا أعرفها. ستكون هذه هي المرّة الثانية التي أخسر أمامه».

بعد ذلك، أوشكت في أحيان كثيرة على سؤالها عن ماهيّة الهزيمة الأولى. وهل هي السبب الذي منعها من تقديم عرض كعازفة منفردة، أو من العزف في الحفلات. ولكن في اللحظة الأخيرة، حذّرني شيء مّا في داخلي من ذلك. لمرّة واحدة فقط، وحدث ذلك في وقت متأخّر جدًّا، وهكذا لم أعرف الإجابة مطلقًا.

عندما وقفنا أمام غرفتها، نظرت وقالت: «لن تجري الأمور كما تتصوّر، أعني بينه وبين لِيَا. أنا واثقة من ذلك. هو ليس رجلاً من هذا النوع».

ليس رجلاً من هذا النوع. كم مرّة سأكرّر هذه الجملة في السنوات القادمة!

في اليوم التالي، اصطحبها ليفي إلى نوشاتيل في سيّارته الجاغوار الخضراء.

«هكذا، بإمكاننا أن نبدأ العمل في الحال»، قالت لِيَا عندما دخلت غرفتي بعد عودتها من نزهتها بصحبته وقد بلّل الثلجُ شعرها. لم

أعرف أنّ المحافظة على هدوء الأعصاب يمكن أن تكون مرهقةً إلى هذا الحدّ. لقد لاحظت ذلك. «إنّه... لا مشكلة أليس كذلك؟».

نظرت إليها، وفجأة بدت لي تلك السحنة المألوفة جديدة كليًا. كان وجهها هو الذي تشكَّل من خلال وجه الفتاة الصغيرة التي سبق أن أصغت إلى عزف ليولا دي كولون في المحطّة حابسةً أنفاسَها... ملامح فتاة، ملامح مراهقة وملامح شابّة طموحة التقت الساعةَ برجل تمنّت أن تحقّق معه مستقبلاً لامعًا. كلّ هذا يُقرأ على وجهها في آنٍ.

هل كان عليّ أن أمنعه عنها؟ هل ذلك من حقّي؟ ما الذي سيولّده ذلك بيننا؟ لست واثقًا من عدم إقدامها على ذلك بالرغم من كلّ شيء. عَلَت الحمرةُ وجهَها، فكانت تلك الطاقة، وذلك الأمل. لم أعد أعرف ما قلته. عندما قبّلتني على خدّي بقيت في مكاني كما لو أنّني تمثال خشبيّ. وعند الباب ترَدَّدَتْ لحظةً وأشاحت بوجهها. ثمّ غادرت.

في تلك الليلة، قضّيت أغلب وقتي أمام النافذة متأمّلاً سقوط الثلج. تساءلتُ في البدء كيف ستخبر ماري بهذا الأمر. ثمّ انتابني فجأةً شعورٌ مبهم بأنّها لن تخبرها. ليس بسبب لامبالاتها بل بسبب نقص في الثقة وشعور بالخوف وسوء نيّة، ولأنّها لم تعرف، ببساطة، كيف تعثر على الكلمات لتعبّر عن ذلك. وعلاوة على هذا كيف تقول ذلك للمرأة التي هي بمثابة أمّ لها، المرأةِ التي ظلّت مدّةَ تسع سنوات دليلَها ونجمتَها. كلّما فكّرت في الأمر ازداد يقيني بأنّها ستهجر هذه الأمكنة دون أن تتحدّث إلى ماري.

أحسست بألم في المعدة. وتراءت لي لِيَا في روما وهي تكتب بطاقات بريديّة لماري وتحاول الاتصال بها هاتفيًا لتعلمها بإرسالها إليها. أيّ جبن سيسمنا لو أنّ الأمور سارت على هذا النحو! ردّدتُ كلّ الأعذار الممكنة، لكنّ الشعور لم يتغيّر. كان يجب أن تمرّ سنوات عديدة قبل أن يُمحى نهائيًا. «الهولنديّ لا يفرّ من أيّ شيء»، هذا ما اعتاد أبي قوله كلّما شعر بالجبن في مكان مّا. وهذا ضرب من الكيتش، شيء عبثيّ، لاسيّما أنّه تصرّف في الغالب كإمّعة، وأنّنا لم نعد هولنديّين منذ أمَد بعيد. في تلك الليلة، ظللتُ أفكّر في شعاره الأحمق الذي كان يعجبني رغم أنّه يزيد الأمور خطورة.

مرَّ كلّ شيء كما تخيّلته، رأيته وهو يتهيّأ للجلوس إلى جانب ماري على مائدة فطور الصباح التي لم توجد عليها ملعقة ثالثة. «إنّها لم تتجاوز السابعة عشرة من العمر»، قلت. وهزّت ماري رأسها. ولكنّها تتألّم، يا إلهي، كم آلَمها ذلك.

بعد بضعة أيّام، عندما تلقّت لِيَا علبة صغيرة تحوي الحلقة الذهبيّة -الحلقة فقط دون كلمة واحدة- تراءى لي وجه ماري وهي جالسة على طاولة فطور الصباح، بوجه متعب، مُحبَط ومطفإ.

حدَّقت لِيَا في الحلقة دون أن تلمسها. حدَّقت فيها دون قدرة على الخلاص منها، وفي نظرتها فزَعٌ حذِر. ثمّ نهضت وقد قلبت كرسيّها وركضت إلى غرفتها وأجهشت بالبكاء مثل طفل صغير.

شعرت بأنّ عليّ اللحاق بها لأهوّن عليها. ولكنّ هذا غير ممكن، غير ممكن ببساطة. أحسست بالاضطراب حتّى إنّي تركت طفلتي باكية، وحيدة في الشقّة وعبرت كامل المدينة حتّى وصلت إلى حيّ

مونبيجو. هناك، عندما كنت شابًا، رغبت، وأنا مستلقٍ على سريري في أن أصبح مُزيِّفَ عملة. *لا أرغب في تحمّل هذه المسؤوليّة. لست أدري ماذا نفعل لتحمّل مسؤوليّة شخص مّا*. لماذا لم تحترمي رغبتي تلك، قلت مخاطبًا سيسيل، مع أنّني جادّ، كان يجب أن تستشعري ذلك جيّدا، لماذا؟

استطعت أن أتحقّق من مدى خطورة الإهانة التي تعرّضت لها ماري عندما لحقنا بسيّارتي الرابضة بموقف السيّارات في سانت- موريتز. وبمرورنا قربَ سيّارة جاقوار خضراء، أخرجت ماري محفظة المفاتيح وتناولت منها المفتاح الأكثر حدّة، وبحركة سريعة خدشت طلاء السيّارة ثمّ عادت أدراجها وجرّت المفتاح على طول السيّارة، من الجناح الخلفيّ إلى الجناح الأماميّ. لم أصدّق عيني وألقيت نظرة من حولي للتأكّد من أنّ أحدًا لم يرَنا. فقط زوجان عجوزان حدّقا فينا. أخفت ماري المفاتيح وبدت كأنّها تقول: بإمكانك أن توقفني، الأمر عندي سيّان الآن.

«في سيّارة كهذه رافقتَه هذا الصباح»، قالت عندما انطلقت بالسيّارة. «ولم تُضِفْ كلمة، لم تضف كلمة واحدة».

إنّها رحلة خرساء، خلالها كانت ماري تمسح، من وقت إلى آخر، الدموعَ الصامتة التي تنهمر من عينيها.

تشبّث أحدنا بالآخر. أجل أعتقد أنّها العبارة المناسبة: تشبّث أحدنا بالآخر. حدث هذا بشيء من العنف الغاضب الذي يشبه عاطفة ساذجة. حتّى نحن اعتقدنا ذلك في البداية، إلى حدّ أصبح من المستحيل معه إنكار اليأس الذي اختبأ خلف تلك المشاعر.

مساء عودتنا من سانت-موريتز، ذهبت إلى منزل ماري، وجلست على الكنبة ذات الوسائد العديدة من الشينتز اللامع. كانت ترتدي فستانا من الباتيك ذا لون وردي فاتح وباهت، موشّى برسومات آسيويّة دقيقة تبدو كأنّها رُسمت بريشة فنّان. وكما في مساء أوّل لقاء بيننا، انتعلت خفّين ليّنين من الجلد يبدوان كأنّهما صُنِعا من جلد ثانٍ. وما إن دخلت حتّى وضعت حقيبتها على الأرض دون أن تنزع معطفها. سارت نحو البيانو حيث وُضعت توليفات ليَا. أبعدتها عن التوليفات الأخرى وجمعتها بعناية بالغة في حزمة متساوية تمامًا. ثمّ حملتها خارج الغرفة. تردّدَت لحظة فاعتقدت أنّها ستعيدها إليّ لأحملها معي مادام لا أحد سيعزفها في هذا المنزل بعد الآن. ولكن بعد ذلك، ذهبت إلى غرفة أخرى. وسمعتُ صوت درج يُفتح».

توقّف فان فليت والتفت نحو البحيرة وعيناه مغمضتان. لا شكّ أنّ المشهد الذي تراءى له من جديد في هذه اللّحظة ظهر أمامه آلاف المرّات من قبل. كان مشهدًا في غاية العنف. والآن أيضًا مازال هذا المشهد يؤلمه كثيرًا حتّى إنّه أصبح يتردّد في الحديث عنه.

«كانت ليَا تستعين دومًا بمنديلٍ، منديلٍ أبيضَ تضعُه على ذقنها. هي تملك عددًا كبيرًا من هذه المناديل التي عثرنا معًا على محلّ يمكن أن نقتنيها منه. أحد هذه المناديل ظلّ على حافّة النافذة. وعندما عادت ماري إلى الغرفة، لمحته وهي تجول بنظرها في أرجائها. أخذَته، وأنا متأكّد من أنّها غير راغبة في أن أشاهد ما حصل خلف الباب الذي ما يزال في مجال بصري إذّاك. ولكنّ رغبتها كانت أقوى من كلّ شيء: استنشقت رائحة المنديل ودفنت فيه أنفها فجأةً ثمّ رفعت يدها

الأخرى وضغطت بها على المنديل بأكمله على وجهها. ترنَّحت قليلا ووقفت هناك مستسلمة على نحو أعمى لرائحة لِيًا».

لم يطلعني قطّ على صورة لماري. ومع ذلك فأنا أراها ووجهها مدفون في المنديل. يكفي أن أغمض عينيّ لأراها على الفور. كانت لها عينان صافيتان، عينان جموحتان حيثما نظَرَت.

«سعينا إلى أن نعرف هل الحروف المرسومة على فستانها يابانيّة أم كوريّة. أطفأت ماري الضوء فشعرنا بما تركته لِيًا من فراغ في هذه الغرفة التي سبق أن ملأتها بألحانها. ثمّ تشبّث أحدنا بالآخر على نحو مفاجئ وعنيف ولم نفترق إلاّ عندما طلع النهار».

كان يبتسم كما يبتسم توم كورتيناي وسط المأساة. «الحبّ من أجل حبّ شخص ثالث، الحبّ بعفويّة متبادلة، جدار ضدّ وجع لحظات الوداع، حبّ غير موجَّه في الواقع إلى الآخر، حبّ تأخّر تسع سنوات بالنسبة إليّ، الحبّ المعتم بفعل وعيي بهذا التأخير ممّا أتلف شيئًا فشيئا لونَ المشاعر. وماذا عنها هي؟ ألستُ ببساطة الخيطَ الذي ربطها بلِيًا الضائعة؟ الضامنَ لعدم خروج لِيًا من هذا العالم إلى الأبد؟ مرَّ وقت طويل لم نمارس فيه الحبّ نحن الاثنان. هل في اشتهائها لي رغبة في إطفاء اشتهائها للِيًا؟ لست أدري. هل نعرف في وقت مّا أيّ شيء؟

قبل ستّة أشهر لمحتها من بعيد. هي الآن تبلغ من العمر ثلاثة وخمسين عامًا، وهي ليست عجوزًا لكنّها تبدو مرهقة ومطفأة. «أشكرك لأنّك أتيتني بلِيًا»، هذا ما قالته في آخر لقاء لنا. هذه

الكلمات خنقتني. زارتني في الحلم. ومازلت إلى اليوم أستيقظ، من وقت إلى آخر، معتقدًا أنّني سمعت هذه الكلمات في الحلم.

هل أدركت ما حصل مع لِيَا ومن ثمّ معي أنا؟ فهي ماري دون سواها، المرأة التي بحثت دومًا عن الوضوح. المرأة التي بها شغفٌ للفهم، المرأة التي رغبت باستمرار في معرفة لماذا يفعل الناس ما يفعلونه وبشكل مفصَّل. ولكن، لعلّها لم ترغب في الفهم هذه المرّة، مثل جدار عازل للألم والإهمال. ماعدا كلمات الوداع تلك، لم نتحدّث مطلقًا عن لِيَا ولو مرّة واحدة. في البداية، حضرت لِيَا بيننا بغيابها الصاخب. وشيئًا فشيئًا امّحى هذا الغياب أيضًا. أصبحت لِيَا وهْمًا في حجرات ماري».

عاد فان فلييت من الحمّام. وطلبنا قارورة الخمر الثالثة التي عبّ النصيب الأكبر منها.

«لا أريد أن أحمِّل ليفي المسؤوليّة. فهو مجرّد مصيبة بالنّسبة إلى لِيَا، مصيبة كبرى. وكما يمكن أن يحصل لأيّ واحد منّا، فإنّ لقاء شخص آخر قد يكون مصيبة».

ولكنّي لم أتمكّن من رؤية الأشياء على هذا النحو إلاّ الآن. في ذلك الوقت اختلف الأمر جدًّا. وكان ذهابها لنوشاتيل كلّ يومين يدفع بي إلى المرض. *إنّه ليس رجلاً من هذا النوع*، هكذا قالت ماري. وأعتقد أنّها على حقّ. ظللت في حالة تأهّب، باحثا عن دلائل. كانت تشتري ملابس ولا ترغب في أن أصطحبها، تضع عطرًا وأحمر شفاه تزيله دومًا قبل دخولها إلى المنزل. لقد رأيتها تفعل ذلك. كانت تكبر

وتظهر عليها علامات الأنوثة أكثر فأكثر. وكلّما عادت من عنده بدت كأنّها محاطة بهالة من اللَّباقة، ذلك الألق الباذخ الذي تخيّلته وقد غلّف كامل مدينة نوشاتيل. لَكأنّ المدينة أصبحت تتغلّف بشيء من الصَّدإ، بأكسدة اجتاحتها جرّاء عزف لِيَا وليفي معًا. كنت أكره هذا الصدأ المغرور والنتن الذي تفوح منه رائحة المال الكريهة. وأكره نجاحات لِيَا التي لا يمكن إنكارها. وأكره سماعَها وهي تقول: «حسنًا سأذهب» بنبرة لمستُ فيها الفرنسيّة التي ستتحدّث بها معه. وأكره اشتراكها في القطار وجدول أوقاتها الصغير المهترئ. وأكره ليفي، دافيد ليفي الذي تناديه دافيد، بنبرة فرنسيّة. في أحد الأيّام وقد فقدتُ السَّيطرة على نفسي، بحثت في حاجياتها فوجدت دفترًا كتبتْ على إحدى صفحاته ولمرّات عديدة: **لياه ليفي.**

ومع هذا لم يحدث شيء ممّا خشيته، ولو أنّه حدث للاحظتُ ذلك. لا أعرف ولكنّني كنت سألاحظه. وبدلاً من ذلك، استقرَّ في داخلها شيء مّا هدّأ من روعي حتّى إنّه أشعرني بالسعادة، أجل: انزعاج صامت، صامت جدًّا كذاك الذي نستشعره عندما يستحيل تحقيق أمل مّا نرجو تحقيقه منذ وقت طويل بفارغ الصّبر على الرغم من أنّنا فعلنا كلّ شيء لإزاحة العوائق الممكنة والمستحيلة عن طريقه.

«اليوم لن أذهب»، قالت في أحد الأيّام ولمستُ هذا الانزعاج في صوتها.

أخجل من الحديث في هذا الأمر، وشعرت بالخجل أيضًا أمام نفسي وأنا ذاهب إلى السينما لأحتفل بالحدث.

بعد مرور يومين عادت إلى المنزل، وبدخولها ألقت التحيّة قائلة: «مساء الخير».

شعرتُ بأنّني أخرق، لا كبيرنيّ[1] ثقيل الدم -ولكنّه وضع صعب، إنّه في غاية الصعوبة- بل مثل هولنديّ ثقيل ومتعجرف امتلك، على وجه الخطإ ودون أن يستحقّها، ابنةً لامعة تنحدر من عالم القصور الفرنسيّة البرّاق. إنّه خطأ، خطأ محض كشف عنه ظهور ليفي. بخطى ثقيلة وبطيئة تسكّعت عبر قاعات الجامعة وارتكبت خطأ تلو آخر. كنت أنطق اسمي بالفرنسيّة سرًّا، وخلال بعض الوقت محوت من اسمي حرف «ج» حتّى يغدو توقيعي فرنسيًا.

وفي انتظار أن تتحوّل عواطفي إلى النّقيض، أصررت على أن أتحوّل إلى الهولنديّ القاسي والمتعجرف الذي ولّده في داخلي، مثل حقيقة واقعيّة جدًّا، ألقُ ليفي، ألق ليفي الخياليّ. وقد منحني والداي، بوفائهما الغريب لهولندا -وفاء لا طائل منه- اسمًا ثانيا: غِيريت. اسمي الكامل هو مارتن غيريت فان فلييت. لطالما كرهت هذا الاسم الحادّ والمتصدّع، اسم شبيه بمنشار له دويّ، ويُحدث أزيزًا وهو ينخر الطلاء فيتشظّى. وها أنا أخرجه الآن. كنت أستخدمه للتوقيع فأحصد نظرات حائرةً ومستفهمة أواجهُها بعُبوس، رغم أن لا أحد سألني حقًّا.

كنت أهمل هيئتي ما استطعت، بارتداء بناطيل محدَّبة على مستوى الركبتين، سترات رثّة، قمصان مدعوكة ونعال بالية. وظلّ

(1) نسبة إلى العاصمة السويسريّة بيرن.

هذا غير كافٍ. ذهبت إلى أمستردام حيث لعبت دور الهولنديّ بفضل بضع نُتَف نيرلنديّة بائسة جعلتني أبدو سخيفًا أكثر من مرّة. هناك، جلست على سريري دون أن أنام وقد أصبحتُ غريبًا على ليَا وعلى نفسي أيضًا. كنت أفكّر في جدّي الأكبر، موظّف البنك المخادع الذي دفع بأفواج من الناس في هذه المدينة إلى الإفلاس. وحسبتُ أنّني أرغب في التحوّل إلى مزوّر عملة. وكثيرا مّا تأمّلتُ الماء يجري من تحتي وأنا فوق الجسر. من العبث تجربة ذلك: الجسور كانت منخفضة جدًّا.

لِيَا لا تقول شيئًا، وإن تمنّيت في سرّي أن تجيد تأويل هذه الإشارات. فأيّ معنى سيكون لكلّ هذا الرياء، إذا هي لم تعترف بما هي عليه: إنّها محاولة للسيطرة على ألمي بتحطيم نفسي؟ فما نفع هذا الأمر إذا جهلت أنّ عليّ، في حزني، الاستجابةَ لسقوطي الوهميّ بالاعتداء على نفسي، لأنّ ألمًا عاطفيًا نُساهم في افتعاله أسهل احتمالاً من ألمٍ يباغتك هكذا، دون سابق إنذار؟

في تلك الفترة لم يشغلها إلاّ ليفي ولم تُقِم إلاّ في نوشاتيل. في بيرن، كانت تسجّل حضورها دومًا وهي على أُهبة الذهاب إلى المحطّة. فجأة -أو لعلّي تخيّلت ذلك على أيّة حال- أخذت تنطق اسم *بومبليز* بطريقة جعلت الكلمة تحدث تأثيرًا سخيفًا يبعث على الضحك، سُخف لم يعد مشوبًا بالعاطفة مثلما هو الحال عندما تنطقه سيسل، وإنّما بالازدراء. أجل إنّه مهين: كيف بإمكاننا العيش في حيّ يحمل اسمًا كهذا الاسم؟ كان هذا أمرا مستحيلا. الأمكنة الجديرة بأن تؤخذ على محمل الجدّ حملت أسماء فرنسيّة وفوقها يلمع اسم وحيد

ملكي: **نوشاتيل**. وأحيانًا تخيّلتُ ليَا على رصيف المحطّة، تنتظر القطار الذي سيعيدها إلى بيرن. وتعدُّ، في حزن، الساعاتِ التي تمرّ قبل أن تتمكّن مرّة أخرى من النزول من ذلك القطار على رصيف نوشاتيل. فبدت لي مغمورة بشعور بالقرف تعبّرٌ عنه بضرب قدمها على الإسفلت في إيقاع بشع وغير منتظم، إيقاع الفقدان والغضب، الانتظار المُضجِر والتفاهة المنفِّرة التي اكتسبها كلّ شيء لم يسلِّط عليه دافيد ضوءه.

في أحد الأيّام، بعد مرور أكثر من سنة على إقامتي بسانت-موريتز سمعتُ لحنًا آخر يخرج من غرفتها عندما عدت إلى المنزل.

استجاب جسدي لذلك اللحن بشكلٍ أسرع من فكري، وأغلقتُ الحمّام على نفسي -لقد اقتنى لها كمانًا جديدًا- لا يوجد تفسير آخر. الآلة التي اشتريناها معًا في سانت-غال لم تعد تليق بتلميذة دافيد ليفي. جاهدتُ نفسي عليّ أكتشف الفرق بين الألحان الجديدة والألحان القديمة. ولكنّني لم أستطع الإصغاء جيّدًا إلى اللحن المنساب عبر البابَين. انتظرت أن يهدأ نفَسي وانتظرت مرّة أخرى خلف باب ليَا، وفي نهاية الأمر طرقته. كانت هذه عادتنا منذ زمن بعيد وسارت الأمور على أحسن ما يرام. وحده مجرَّد الطرق على ذلك الباب اتّخذ معنى آخر بسبب ليفي. كان عليّ أن أتوسّل حتّى يُسمح لي بالدخول إلى عالم غريب. وفي تلك اللحظة التي فصلني فيها الباب المألوف عن الألحان الجديدة التي تخترق الخشب، الألحان الصاخبة والقويّة، أخذ قلبي ينبض بشدّة لأنّني شعرت بأنّ شيئًا مّا جديدًا بدأ، شيئًا مّا سيأخذ ليَا مرّة أخرى بعيدًا عنّي.

امتلأ عنق لِيَا ببقع حمراء ولمعت عيناها كما لو أنّها مصابة بالحمّى. الكمان الذي أمسكت به بين يديها بدا خشبه داكنًا على نحو عجيب، ولا أعرف المزيد عنه، لم أشاهده مطلقًا عن قرب ولا حتّى خفية. فكرةُ أنّ آثار أصابع ليفي مطبوعة عليه وأنّ شحمه وعرقه ينتقل إلى أصابع لِيَا، أشعرتني بالغثيان. أعني يدَيه عمومًا. عندما لمحته ذات يوم مارّا في أحد شوارع بيرن حلمت بعد ذلك بأنّه يعرج ويسير متكئًا على عكاز عُجْرَتُه الفضيّة شاحبة وقديمة ومنزوعة اللون بسبب العرق الحامض ليد عجوز متجعِّدة.

ألقت عليّ لِيَا نظرة متذبذبة. «إنّه كمان دافيد. لقد أهداه إليّ وهو من صنع نيكولا أماتي سنة 1653 بمدينة كريمون».

الفصل الثامن عشر

الصورة التالية التي انطبعت في ذاكرتي هي لِيَدَيْ فان فلييت وهما على غطاء السرير. إنّهما يدان كبيرتان وقويّتان يعلوهما وبرٌ خفيف وأظفار مقلَّمة بوضوح، اليدان اللتان كان يُجري بهما تجاربه ويحرِّك بهما أحجار الشطرنج، اليدان اللّتان لمستا مرَّة واحدة، مرَّة واحدة فقط، أوتار كمان ليَا، اليدان اللتان اقترفتا الحركة التي دمَّرت مسيرتها الفنيّة. حتّى إنّه أصبح يعيش الآن في شقّة بغرفتين، اليدان اللتان لم يعد يعتمد عليهما عندما يلمح شاحنة قادمة نحوه.

في فندق جنيف ثمّة بابٌ مشترك بين غرفتينا لم يثر انتباهي مطلقًا حتّى سمعت صوت مقبضه وهو يتحرَّك. لا شكّ أنّه بابٌ ثانٍ لأنّ شيئًا لم يتحرّك من جهتي. انتظرت وألصقت أذني على الباب حتّى وصلني شخير فان فلييت. عندما أصبح الصوت قويًّا ومنتظمًا فتحتُ الباب من جهتي. كان باب غرفته مفتوحًا على مصراعيه. الملابس مهملة على الكراسي والقميص ملقى على الأرض. احتسى الشراب وتحدّث، تحدّث واحتسى الشراب. كنت أعجَب من تركيزه المتواصل رغم كميّة الخمر التي تجرَّعها، من ثمّ انهار فجأةً وصمَتَ. لم أكن في حاجة إلى إسناده ولكنّنا استغرقنا وقتًا طويلاً للعودة إلى غرفتينا.

في لحظة مّا أخرج صورة لِيَا التي التُقطت لها قبل أوّل حفل في المدرسة، في المساء الذي أخطأت فيه عزف روندو موزارت. لو كانت ابنتي لاحتفظت أنا أيضًا بهذه الصورة في محفظتي. فتاة نحيفة ترتدي فستانًا أسود بسيطًا، شعرها طويل وداكن يبدو كأنّه مرشوش بغبار الذهب. على الشفتين الممتلئتين والمتناسقتين بعض حُمرة تجعل منها نسبيًا امرأةً-طفلة. عينان رماديّتان لعلّهما مائلتان إلى الخضرة، نظرة ساخرة، جميلة وواثقة من نفسها على نحو محيّر بالقياس إلى فتاة في الحادية عشرة من عمرها. إنّها *ليدي، كانت تنتظر أن تسطع الأضواء.*

بإمكاننا حقًّا أن نقع في غرام هذه الفتاة الصغيرة. ولكن كم ازدادت المشاعر عنفًا عندما بلغت لِيَا ثماني عشرة سنة! تردَّد فان فلييت في إطلاعي على الصورة. ففي البداية أعاد المحفظة إلى جيبه ثمّ أخرجها من جديد. «حدث ذلك قبل أن يعطيها الكمان بوقت قصير، اللعين آماتي».

كانت في رواق واسع شبيه بشقّة كبيرة مؤثّثة بأناقة، متكئة على منضدة تحمل مرآة على نحوٍ يتيح رؤية مؤخّرة رأسها وشعرها الملفوف على شكل عقيصة ورقبتها النحيلة من فوق كتفيها. هذه الكعكة -لا أدري كيف أشرح ذلك- لم تمنحها مظهر امرأة عجوز ولا هيئةَ من تقدّم في السنّ، بل أحدثت تأثيرًا معاكسًا: بدت مثل فتاة هشّة، خاضعة للنظام والانضباط، تريد أن ترضي الجميع. إنّها ليست امرأة مثقّفة ولا طموحة باهتة، على الإطلاق. فما نراه هو شابّة أنيقة ترتدي فستانًا أحمر بتفصيلة رائعة يزيده جمالاً ذاك الحزام الجلديّ

اللاّمع بأنشوطة ذهبيّة معتمة. الشفتان المتناسقتان والممتلئتان لم تكونا لامرأة-طفلة بل لامرأة حقيقيّة، كونتيسة، يبدو أنّها تجهل كلّ شيء عن أَلَقِها. في نظرتها الكئيبة اختلطت ميزتان لم أتخيّل قطّ أنّ باستطاعتهما الانصهار في عبارة واحدة ووحيدة: هشاشة طفوليّة مؤثّرة وصرامة قاطعة تجمّد الدم في العروق. كان فان فلييت على حقّ: لم يظهر في تصرّفها تعجرف ولا غرور. بل هي الصّرامة إزاء نفسها أكثر منها إزاء الآخرين. أجل إنّها الفتاة التي شعرت برغبة في رمي كمانها على الجمهور عندما أخطأت في العزف. آه نعم إنّها المرأة القادرة على الوقوف في منتصف الغداء والاستغناء عن ماري، حبِّ طفولتها، حالما ظهر المدعوّ دافيد ليفي واعدًا إيّاها، بفرنسيّته الأرستقراطيّة، بمستقبل باهر.

بدت على فان فلييت الحيرة عندما قرَّبتُ الصورة من عينيّ لأتأمّل كلّ تفاصيل هذه النظرة. راقبني، وقد رغب في أن أتخيَّلها، دون أن يريد ذلك حقًّا. والآن، وبما أنّ هذا الوضع دام وقتًا طويلاً بالنسبة إليه، وبما أنّ الندم بدأ يخامره، فقد لمع بارق حيرة في عينيه. كان دومًا إلى جانبها، دومًا في منزلهما المشترك، وبإمكان غيرته أن تظهر في أيّ لحظة مثل دفق من لهب. وهذا لن يتغيّر أبدًا.

أعدت إليه الصورة فنظر إليّ بشيء من الاستفزاز. توم كورتيناي، قلت في نفسي. واكتفيت بإشارات تعبّر عن الرضا. كان يمكن أن يُساء فهم كلّ كلمة.

أغلقت الباب من جهتي في حذر. عندما يستيقظ يجب ألاّ يشعر بأنّ أمره انكشف. ترك النور مشتعلا في الحمّام، النور الذي انعكس

على جزء من المرآة عبر الباب الموارب فعكس بذلك جزءًا من الغرفة وأغرقه في ضياء شعشع. تذكّرت شيئًا نسيته منذ عشرات السنين: الأباجورة، نور خافت من أجل الأطفال الذين يخافون من العتمة. كانت لمبة من الزجاج اللبنيّ، تثبّتها أمّي ليلاً في نقرة السقف. تراءت لي مرّة أخرى يدها وهي تثبّت اللمبة. الثقة، هذا ما بدا من تلك الحركة. الثقة في أنّ تلك اليد ستخلّصني، وإلى الأبد من الخوف مهما حصل.

هشّمت تلك الأباجورة بفأس. فتّشت عنها داخل قبو في صندوق لحفظ الأشياء القديمة ووجدتها أخيرًا. أخذتها ووضعتها على القاعدة الخشبيّة وسدّدت لها ضربة قويّة أحدثت صريرًا وقعقعة وآلاف الشظايا الزجاجيّة. بتحطيمها لم أقتل والدتي وإنّما قتلت ثقتي العمياء -ليس ثقتي العمياء في والدتي بشكل خاصّ- ولكن الثقة التي يمكن أن أمتلكها في أيّ شيء، وفي أيّ أحد. لا أجد تفسيرًا أفضل من هذا.

منذ ذلك الحين لم تعد لي ثقة إلاّ في نفسي. حتّى أتى ذلك اليوم الذي ناولت فيه المبضع لبُول. وبعد بضعة أيّام رأيت حلمًا: عينا بول لم تبدوَا من تحت القناع طافحتين بالفزع وإنّما بالاستغراب فقط، بدتَا حائرتَيْن بشكل مفرط وسعيدتَيْن بوصولنا إلى هذه المرحلة أخيرًا. وبعد ذلك تساءلت: ماذا كان يمكن أن أفعل لو أنّ زوجته هيلين تبعتني في الحديقة عندما كان لديهم ضيوف وأنا أرغب في البقاء وحيدًا لحظةً؟ مجرّد مجيئها من بوسطن ليس في حدّ ذاته تفسيرًا كافيًا، بول أيضًا يعرف ذلك.

هل كان لي يومًا أصدقاء؟ تساءلتُ، أقصد أصدقاء حقيقيّين؟

والآن؟ يوجد في الغرفة المجاورة رجل يترك الباب مفتوحًا والنورَ مشتعلاً ليتمكّن من النوم. ماذا كان يمكن أن يحصل لو حدث العكس؟ لو أنّني أثق في مارتن فان فلييت؟ إنّه يلبس على الدوام خاتم الزواج الذي وضعته سيسيل في إصبعه، سيسيل التي أدركت، بالتّأكيد، عدمَ رغبته في تحمُّل مسؤوليّة طفل.

عندما يغمر الثلج بيرن ونوشاتيل، يذهب أحيانا إلى الأوبرلوند ويستأجر زلاّجات. إنّه ينشد ثقة في النفس يمكن للصّمت أن يمنحها. من هو في غياب لِيَا؟ وكيف سيواصل حياته من دونها؟ تساءل، وبشكل عمليّ أيضًا. الإدارة الأساسيّة لمشاريع البحث أصبحت، منذ وقت طويل، على عاتق روث أداماك. واقتصر دوره على التّوقيع. وفي أحد الأيّام وقفَتْ خلفه عندما رغب في معرفة المزيد وبدأ في تصفّح الأوراق. «وقِّع»، همسَتْ له. لكنّه مزّق الاستمارة. فسخرَتْ منه.

بعد ذلك، أقدمَ على محاولة أولى للانتحار عبر تناول بعض الحبوب، رغبة منه في أن يستلقي وينام ويُغطّى بالثلج، كما لو أنّه لم يوجد قطّ. ومن ثمّ وفي آخر لحظة، فكّر في لِيَا، في أنّها تحتاج إليه رغم ليفي، وربّما بسبب ليفي أيضًا ذات يوم.

جافاني النوم. لا بدّ أن أمنع نفسي من ذلك. إذ يبدو لي أنّ حياتي متوقّفة عليه.

فجأة تمنّيت أن أتمكّن من إعادة الزمن إلى اللحظة التي سبقت

هذا الصباح في سانت-ريمي، مع الفتاة الجالسة على الكرسيّ الخلفيّ من درّاجة الفيسبا الهادرة. كان المقام جميلاً في تلك الفنادق الريفيّة برفقة سومريست موم على بصيص نور مصباح.

تعذّر عليّ الاتصال بليسلي في الساعة الرابعة صباحًا. وعلى أيّة حال ماذا سأقول لها؟

نزلتُ إلى البهو وتجوّلت تحت أقواس الفندق أمام الواجهات الزجاجيّة. كنت أعرف الفندق ولكن لم يحدث أن تجوّلت في الجانب الخافي منه. في نهاية جولتي اكتشفت قاعة مخصّصة للكتب. أشعلت الضوء ودخلت. أمتار تفصلني عن سيمنون[1]، كتب سياحيّة عن مدن عديدة، ستيفين كينغ، كتاب حول نابليون، مختارات من نصوص لأبولينار، قصائد لروبرت فروست[2]. و**أوراق العشب**، الكتاب الذي زخرت به أعماق والت وايتمان حياةً بأكملها. *ليس باستطاعتي أن أصحو لأنّه لم يعد شيء يعنيني، أم أنني أصحو للمرّة الأولى، وكلّ ما مضى كان نومًا خفيفًا*. غمرني جوع مفترس، جوع لوايتمان. فجلست على كنبة وقرأت حتّى طلع النهار في الخارج. كنت أقرأ وأنا ألفظ الكلمات في صمت. أردتُ أن أحيا، أحيا، أحيا!

---

(1) كاتب بلجيكيّ.

(2) شاعر أمريكيّ.

الفصل التاسع عشر

حوَّل دافيد ليفي ليَا إلى الآنسة باخ. **الآنسة باخ**. لم تكفَّ الصحف عن طباعة هاتين الكلمتين على الصفحة الأخيرة وبحروف صغيرة في البدء، ثمّ غدت الأحرف أكبر والمقالات أطول وأضيفت إليها صور أصبحت هي أيضًا أكبر حجمًا. وأخيرًا صار وجهها من تحت الكمان يشدّ الأنظار إليه في الصفحات الأولى من كبرى الصحف. كلّ هذا بدا لفان فلييت مثل عدسة مقرَّبة تكبر في الزمن شيئًا فشيئًا وتتوقّف عن الحركة أحيانا، عدسة يستحيل إيقاف حركتها، فيها شيء مّا كارثيّ. ألم يسبق لك أن رأيت هذه الصور مطلقًا؟ تساءل. «لا أقرأ الصحف، أجبته. ما يفكّر فيه الصحفيّون لا يعنيني. لا أرغب إلاّ في قراءة أحداث جافّة مثل برقيّات وكالات الأنباء. أعرف بنفسي ما يجب أن أفكّر فيه». فنظر إليّ وابتسم. يمكن لهذا أن يبدو غريبًا لأنّه سبق أن حدّثني عن كلّ تلك الأشياء المتعلّقة بحياته. ولكنّني شعرت، للمرّة الأولى، بأنّه يحبنّي كثيرًا، لا لأنّني الشخص الذي كان يصغي إليه فحسب، بل لأنّني أنا.

المرّات الأولى التي ظهرت فيها ليَا أمام الجمهور حدثت بعد بضعة أسابيع من إهداء ليفي إيّاها كمانا. ليفي الذي ما يزال آنذاك

يملك تأثيرًا في عالم الموسيقى كما هو واضح في نوشاتيل وبْيانْ ولوزان، وعلى نحو عجيب، أمام الشابّة التي كانت تعزف موسيقى جان سيباستيان باخ بصفاء يفتن الجميع ويملأ القاعات المزدحمة بلحن جديد كليًا. تحدّث الصحفيّون عن *الطاقة* الخياليّة في عزفها. وفي إحدى المرّات قرأ فان فليبت هو أيضًا الكلمة التي عبرت ذهنه في سانت-موريتز: *مقدّس*.

إنّه يقرأ كلّ شيء، وكانت قصاصات الصحف تملأ علبة كرتونيّة. فهو يشاهد كلّ صورة ويتأمّلها طويلاً. أصبحت لِيًا تحيّي الجمهور بثقة أكبر، بأسلوب متفرِّد، بنسق مطَّرد، وغدت ابتسامتها أكثر صرامة، أكثر ثقة، أكثر تفرّدًا. وبدت له ابنته غريبة عنه أكثر فأكثر.

«كنت أشعر بالسعادة وأنا أسمعها تلفظ إحدى تلك الجمل الغريبة. إنّها تذكّرني بأنّ ابنتي ما تزال مختبئة على الدوام خلف ملامح الآنسة باخ، الفتاة التي وجدتُني برفقتها في المحطّة قبل عشر سنوات وأصغينا معًا إلى ليولا دي كولون».

ولكن في بعض الأحيان ينبثق في أعماقه شعور بالخوف، خوف حقيقيّ أخذ يتحوّل، شيئًا فشيئًا، إلى خوف متواتر ومُلحٍّ. إذ مرَّت أيّام أصبحت فيها عبارات لِيًا تحيد عن المعنى أكثر من المعتاد. «قلت للتقنيّ إنّ القاعة معتمة جدًّا، أكثر عتمة من ذي قبل. فما فائدة أن أميّز كلّ وجه من بين الجمهور؟» «تصوّر، لقد سألني معلّم السياقة عمّا إذا كانت تلك الآلة كمانا أم آلتو. هو لا يعرف حتّى أنّ بينهما فرقًا. مع أنّه لا يكفّ عن الإصغاء إلى الأوبرا طيلة اليوم ولاسيّما مغنّي

الباريتون البيروفيّ». «كان دافيد على حقّ كما هو الحال دومًا بالنسبة إلى إبرام عقد الاسطوانات: لماذا ينسى، في كلّ مرّة، أنّني لا أحتمل الدخان على الإطلاق؟ هذا لا يعني أحدًا في دار الإنتاج». في تلك الأيّام اعتقد أنّ لغة ابنته ليست هي وحدها ما حاد عن المعنى، ولكن عقلها أيضًا. وأخذ يقرأ كتبًا في هذا الموضوع ويخفيها عنها.

هذا الحذر لم يكن ضروريًا. ويبدو أنّ ما فعله والدها لا يعنيها بالمرّة. كان يائسا جدًّا إلى درجة أنّه أخذ يدخّن في منزله على أمل أن تعترض على ذلك على الأقلّ. لكن لم يحدث شيء. فكفّ عن التدخين ونظّف كامل الشقّة. وعلى الرغم من ذلك أيضًا لم تنبس ليَا بكلمة. سافر وذهب من جديد للمشاركة في أحد المؤتمرات وظلّ هناك لبضعة أيّام حتّى ينسى ماري مع امرأة أخرى. «لقد غبت وقتًا طويلا»، قالت ليَا فور عودته.

هل قضت ليلتها في نوشاتيل؟

كلاّ... إنّه ليس رجلاً من هذا النوع.

استُدعي فان فلييت من قبل مدير المدرسة. امتحانات البكالوريا ستُجرى بعد ستّة أشهر والتوقُّعات ليست مطمئنة بالنّسبة إلى ليَا. فهي جيّدة في الموادّ التي تتطلّب الذّكاء قبل كلّ شيء. ولكنّ الأمر كارثيّ في الموادّ التي تتطلّب العمل بجدّ. وينقصها الكثير الكثير جدًّا. كان المدير متفهّما وكريمًا. هو أيضًا فخور بالآنسة باخ. جميع من في المدرسة فخورون بها. ولكن هو أيضًا عجز عن اختراق كلّ القواعد. على الأب أن يحدّث ليَا في هذا الأمر. لقد توسّل إليها من أجل ذلك.

لَيْتَ ماري ما تزال موجودة. ولكن بالنسبة إلى لِيَا، لم تعد ماري موجودة منذ سنتين. لقد تسمَّرت في مكانها عندما سألها فان فلييت قبل حادثة سانت-موريتز عمّا إذا كانت ترغب في قضاء يوم عند ماري للتحدّث إليها. ليس للاعتذار منها، فقط للتحدّث إليها.

من ماري إلى ليفي: لا شكّ أنّ انتقالاً للقوّة عنيفًا حدث داخلها. ولكم ودّ أن يدرك ذلك. هل عجز، ببساطة، عن فهم هذا النوع من الأشياء؟ هل كانت سيسيل ستفهمه وهي التي لها تجربة في الحياة ولطالما ضحكت من سذاجة فان فلييت؟

حاول أن يتحدَّث عن هذا الأمر مع كاتارينا وولتر. لكنّه لم ينس كلماتها: *ماري باستور، أجل أجل، ماري باستور*. وربّما تردَّد أيضًا في نسيانها. لكنّ كاتارينا وقفت على الفور في صفّ ليفي. وهذه على حدّ قولها عمليّة انفصال طبيعيّة. الأمر مدبّر سلفًا. وقد كان أستاذًا رائعًا!

مدَّبر. لم يستطع فان فلييت منعَ نفسه من التفكير في هذه الكلمة عندما اضطرّ إلى تحمّل نظرة المغاربيّ الثاقبة لمّا جلس لاحقًا أمامه.

ماري لم تعد موجودة. هل كان عليه أن يتجاوز شعوره بالاشمئزاز ويتحدَّث إلى ليفي؟

«نعم»؟ قال ليفي وهو يرفع سمّاعة الهاتف. ظنَّ فان فلييت أنّه سمع الصوت يقول: عزفكِ! إنّه لعظيم! فأغلق الخطّ.

تحدَّث مع لِيَا، أو بالأحرى إلى لِيَا. نقل إليها، وهو يجلس على الأريكة في غرفة ابنته، حوارَه مع المدير وتحدَّث عن حفاوته وعن حيرته، وهو ما لم يفعله قطّ منذ وقت طويل. لقد أنذر وتوعَّد وتضرَّع.

وقبل كلّ شيء أعتقد أنّه تضرّع إليها. لقد توسّل إليها بأن تجري امتحان البكالوريا، وأن تتوقّف عن الظهور أمام الجمهور وأن تسدّ ثغراتها التعليميّة بالاعتماد على مساعدته إن هي رغبت في ذلك.

كان حديثهما مؤثرا، بصفة وقتيّة على الأقلّ. طال مكوث ليَا بالمنزل وفي غالب الأحيان تناولا الغداء معًا. حتّى إنّ فان فلييت استعاد الأمل في حميميّتهما الضائعة. بضعة أسابيع فقط مازالت تفصلها عن الامتحانات. وبعد يومين من آخر اختبار عليها تقديم عرض في جنيف صحبة أوركسترا سويسرا الفرنسيّة. ستعزف *كونشيرتو على سلّم مي كبير* لباخ. وعوض الذهاب للإتيان بشهادتها ستكون في قطار جنيف كي تصل في الوقت المحدّد من أجل التمارين.

كانت نظرتها، وهي تردّد كلّ محطّاتها التاريخيّة والصيغ الكيميائيّة، تتحوّل فجأة إلى نظرة ذاهلة ويخونها الكلام. شعر فان فلييت بالخوف على عقل ليَا. ولكنّ ما حصل ليس بسبب فجوات في المخيّلة، لقد طرقت ذاكرتها فجأةً جنيف وأخذت تفكّر في قائد الأوركسترا الشهير الذي لا ترغب في خذلانه. كان الخوف يظهر في عينيها التائهتين، ومرّة أخرى أخذ يلعن مجدَ ابنته، ويلعن جُو، أستاذ الموسيقى الذي سبق أن سجّلها في مسابقة سانت-موريتز.

ثمّ جاء اليوم الذي تحوّل فيه فان فلييت نفسه إلى جان لويس ترانتينيان، ذاك الذي شاهده في ما مضى جالسًا بقاعة السينما إلى جانب سيسيل، وهو يقود سيّارته المتّسخة ليلةً كاملةً، منطلقًا بسرعة من الريفيرا باتّجاه باريس. لكنّي أظنّ أنّ لترانتانيان وجهَ طوم كورتيناي.

كان يدخّن مثل رجل إطفاء، والدخان يعيق رؤيته، والتهبت عيناه. وأظنّ أنّه بدأ يعاني من نوبات صداع نصفيّ رهيبة وهو يفرّ من بيرن إلى إنس، وإلى أبعد من ذلك، إلى نوشاتيل، قاطعًا الانعطافات بسرعةٍ تحدث معها العجلات صريرًا، فيشعل المصابيح الأماميّة ويطلق اللعنات وهذه الأرقام ثابتة أمام عينيه: 12:00، امتحان البيولوجيا. لا مناص من اللحاق بها وإعادتها. وما يزال بإمكانه الوصول إن حالفه شيء من الحظّ. كان جدول أوقات الاختبارات موضوعًا على طاولة المطبخ. ظلّ فان فليبت في حالة ذهول شديدة ثمّ شعر بيقين حارقٍ أنّ لِيَا أخطأت في يوم الامتحان وذهبت إلى نوشاتيل لأنّ الكمان اختفى. وصل إلى محطّة إنس، وقد تأخّر قليلاً عن موعد القطار الذي من المفروض أن تكون لِيَا داخله. فواصل طريقه نحو نوشاتيل، وباتخاذه المنعطف السيّء، اضطرّ إلى أن يعود أدراجه، إلى محطّة نوشاتيل. ليس ثمّة موقف للسيّارات، وأخذ سائقو سيّارات الأجرة يطلقون اللعنات عندما اندسّ بينهم. ولكنّ مكوثُه هناك لم يدم وقتًا طويلا لأنّ القطار وصل منذ بضع دقائق. **ليفي دافيد.** تصفّح على نحو محموم دليل الهاتف وطلب من سائقي سيّارات الأجرة أن يدلُّوه على الطريق، فأجابوه بعبارات ساخرة وتهكّميّة وإيماءات بالرأس. تجاوز إشارة حمراء بعد أن دار حول نفسه، وأخيرًا وجد عون أمن يعرف المكان. وبعد ذلك بوقتٍ قصير لمحها وعلبةُ الكمان فوق كتفها.

بدت مضطربة ومهتاجة، لم تصدّق الأمر، لم ترغب في حدوثه. على الأقلّ كان عليه إعلامها بشكل مقتضب. ضغطت على جرس

المنزل القريب، فخرج ليفي وهو في لباس النّوم فوق ملابسه العاديّة. ولكنّه يرتدي مع ذلك مبذلا. «لقد أخطأت، أنا آسفة»، همهمت ليَا. لم يكد يسمعها، لم يكد يقرأ هذه الكلمات على شفتيها، نظرتها التي تفيض اعتذارات. لقد بدت له خاضعة، إشارتها بيدها نحو والدها، نظرة ليفي الخالية من أيّ اعتراف بالجميل ومن الكياسة. انحصرت علبة الكمان في باب السيّارة، فوجَّهت نظرة طافحة باللوم نحو الأب كأنّه هو المذنب في كلّ شيء. غريغور مانديل، شارل داروين، الحمض النوويّ، نوكلياز، نويَّات، نوكليوتيد؛ كان عليها أن تتشبّث أثناء الانعطافات، وساعةُ لوحة القيادة تُظهر مرور الدقائق. وفجأةً انهارت وبكت وأخذت كتفاها تهتزّان، ثمّ انحنت بجسدها ورأسها بين ساقيها.

توقّف بالقرب من المدرسة، في زاوية الشارع، وضمَّها بين ذراعيه. خلال دقائق لا تعوَّض، أمسك بطفلته وهي تشهق من الخوف على نحو مفاجئ وغير منتظم، الخوف من الامتحان، من جنيف ومن اليدين المتعرِّقتين، الخوف من رأي ليفي، الخوف من الوحدة في غرفة الفندق. مسح فان فليبت عينيه وهو يروي لي كلّ هذا.

استعادت ليَا هدوءها ببطء، فمسح دموعها، وداعب شعرها قبل أن يقبِّلها على جبينها. «ومع ذلك فأنتِ ليَا فان فليبت»، قال. رآها تبتسم مثل غريقة. وفي زاوية الشارع أومأت إليه بيدها.

وبعد أن تجاوز بضعة شوارع، ووصل إلى موقف سيّارات صامت، انهار فان فليبت هو أيضًا. أغلق نافذة السيّارة حتّى لا يسمع أحد نحيبه. كلّ ما كُبِت في داخله انفجر في أنين صاخب وحيوانيّ.

خوفه على لِيَا، الحنين إلى الماضي، وحدته، غيرة وكراهية أثارهما الرجل صاحب المبذل، ذاك الذي قيَّد لِيَا إليه بكمان من صنع نيكولا أماتي. فتح علبة الكمان خلال لحظة جنون، خلال لحظة عبثيَّة، وفكَّر في وضع الآلة أمام العجلات والمرور فوقها، ليفرّ بعد ذلك إلى محطّة التزلّج بأوبرلاند[1] وينام على الثلج.

لم يعد لديه وقت كثير ليعود إلى المنزل. غسل وجهه في نافورة وذهب ليأتي بلِيَا. لقد نجحَت، وإن لم تكن النتيجة مبهرة. قفزت إلى عنقه ومن المؤكّد أنّها استشعرت بقايا بلل من النافورة ونظرت إليه قائلة:

«لقد بكيت».

ذهبا لتناول الغداء في روسنقارتان وبه أمل في أن تتمكّن من الحديث عن المشاعر التي انفجرت تحت الدموع. ولكن عندما طلبا الطعام، أمسكت لِيَا بسمّاعة الهاتف واتصلت بليفي. «دقيقة فقط»، قالت وهي تعتذر. «أنا آسفة، لقد أخطأت في اليوم... كلاّ، الشفويّ... أجل، جيّد... كلاّ ليس جيّدًا جدًّا... نعم... إلى لقاء قريب جدًّا. كلمة «قريب» ليست كافية، كان يجب أن تقول *إلى لقاء قريب جدًّا. هذه الكلمة المرعبة دمّرت كلّ شيء*. عندما روى فان فلييت هذا بدا كما لو أنّه يسمع المقطع اللعين في اللحظة نفسها. تركا نصف الأكل وعادا إلى المنزل في صمت. لقد انغلق اللّحاء الصّلب الذي غلّف مشاعرهما من جديد.

---

(1) محطّة للتزلّج بالقرب من بيرن.

مرّة أخرى أيضًا، استجمع كامل شجاعته وذهب ليأتي بها بعد آخر اختبار. ثمّ اصطحبها إلى جنيف. رافقها إلى الحفل أيضًا. وهو يتسكّع عبر المدينة، شاهد الإعلانات التي تحمل اسمها: **لِيَا فان فلييت**. تعلّم أن يحبّ هذه الملصقات ويكرهها في آنٍ معًا. ويحدث أحيانا أن يمرِّر يده على الورق الرطب واللامع، فإذا اعتقد أن لا أحد يراه عمَد إلى تمزيق الإعلان قِطعًا خشنة. إنّها نزعة تخريبيّة موجّهة ضدّ شهرة ابنته. في أحد الأيّام، فوجئ برجل شرطة سأله عنها، فردَّ عليه «أنا والدها». قال ذلك وهو يريه هويّته. نظر إليه الشرطي مستغربا. «ماذا يعني أن تكون لك ابنة مشهورة»؟ «إنّه أمر صعب»، أجاب فان فلييت. فضحك الشرطيّ. وبصق فان فلييت على الأرض وهو يغادر المكان غاضبًا لأنّ الحادثة تحوّلت إلى مزحة. الشرطيّ الذي لم يتحرّك من مكانه رآه يفعل ذلك. وللحظة التقت نظراتهما بعدائيّة. وعلى أيّة حال فهذا هو الشعور الذي غمر فان فلييت.

منذ وقت طويل، لم يحضر حفلاً لِيَا. فهو لا يحتمل رؤية لِمّة ليفي الرماديّة في القاعة. والأمر لا يحتمل هذه المرّة أيضًا. ولكنّه نجح في نسيانه لأنّ ابنته عزفت بطريقة لم يسمعها من قبل. ولم تكن سانت–موريتز شيئًا مقارنة بهذا المكان. هنا بدا له المكان أيضًا شبيهًا بكاتدرائيّة من الألحان. ولكنّها في الواقع كنيسة صغيرة، شبيهة بالصّرح الذي تبنيه لِيَا بالألحان المنبعثة من كمان أماتي، الألحان التي غمرت مدينة جنيف بأكملها وكلّ مياه البحيرة. ولم تعد توجد، بالنسبة إلى الأب، غير هذه الكاتدرائية المشيّدة من ضياء وأفق أسود مثل الليل مترجمةً إلى لغة الألحان. وسرُّ هذه الهندسة الرهبانيَّة المقدّسة

يكمن في يدي لِيَا، وهما يدان جعلتَا الآلة التي لا شبيه لها، الآلة التي صنعها نيكولا آماتي في العام 1653 تصدر أنغامًا بها في يدي ماري من ثقة. وجْهُها فوق الذقّانة، والعينان مغمضتان على الدّوام تقريبًا. منذ سهرة سانت-موريتز التي اقترب خلالها ليفي من طاولتهما، كما لو أنّه انبثق من العدم، استغنت عن المنديل الأبيض تحت ذقنها. في الوقت الحاليّ أصبح لون المنديل «بنفسجيًا»، كما تقول لِيَا. تفحَّص المناديل ووجد ضالّته: **لوك بلان، نوشاتيل**، إنّه اسم صاحب المصنع الذي كُتب بأحرف صغيرة وسوداء. هذه المرّة أيضًا أسندت لِيَا ذقنها إلى واحد من تلك المناديل وعضلات وجهها تتبع الموسيقى، محاكية اللحن ومتمرّدة على الصعوبات التقنيّة. كان يحلم بأنّ هذا الوجه استند قبل بضعة أيّام إلى خدّه شاحبًا ومبلّلاً. وتذكّر هذه الكلمات: *إلى لقاء قريب جدًا*. أمّا ليفي فقد جلس دون حراك في مكانه في الصفّ الأوّل.

كان أوّل شخص تقع عليه نظرة لِيَا قبل أن تحيّي الجمهور. نظرة التلميذة المعترفة بالجميل، الفخورة والمغرمة بطبيعة الحال. طبع قائد الأوركسترا قبلة على يدها وصافحت عازف الكمان الأوّل. لم يدرك فان فلييت السبب وراء انزعاجها إلاّ عندما ركب السيّارة: كان تصرُّفها متوقَّعا، متوقَّعا إلى درجة مرعبة. شعر أنّه رأى لِيَا واقعة في دولاب كبير من آلة صناعة الحفلات العملاقة وهي الآن تنفّذ كلّ الحركات التي تحدّدها انحناءات آليّة، والشيء نفسه في خصوص تحيّاتها التي أخذت تكرّرها بلا نهاية وسط الدوس بالأقدام والصّفير الحماسيّ الصاعد إليها. تذكّر الأب الطريقة التي سبق أن حيّت بها

الجمهورَ أثناء عرضها الأوّل في المدرسة. كانت تلك التحايا، على رقّتها، مشوبة بشيء من الخجل، خجل اختفى عنها كليّا في تلك اللحظة وترك مكانه لألق النجمة.

لحق ليفي بلِيَا قبل أبيها. وسارا معًا نحوه. «دافيد، أقدّم لك والدي»، قالت لِيَا للرجل الذي جعل من نوشاتيل قلعة مقيتة. بدا وجه ليفي هادئًا ووَقُورًا. تصافح هذان الرجلان المتنافران جدًّا. وكانت يد ليفي باردة وشاحبة.

عزفها عظيم، أليس كذلك؟ قال.

-«إنّه خرافيّ، إنّه سماويّ!»، قال فان فليبت.

لقد عمد منذ وقت طويل إلى البحث عن الكلمات حتّى يكون جاهزًا إذا التقى بالأستاذ العظيم، معبود ابنته. رفيقة دراسة قديمة، روماندية، كان قد طلب منها النصيحة، فضحكت. «أيّ سخرية هذه قالت، لاسيّما هذه الكلمة: *سماويّ*، يا إلهي: *سماويّ*، في حوار كهذا. هذا عظيم!»

من وقت إلى آخر استعاد هذا اللقاءَ في الحلم غير أنّ الكلمات غابت عن ذهنه. هما الآن هنا. على وجه لِيَا امتزج السخط الذي تسبّبت فيه السخريةُ من إباء والدها السريع البديهة والمدرَّع بمعرفة لغات لم تتخيّل أنّه قادر على إتقانها. «حسنًا، الآن أُقيمَ هذا الحفل» قالت بتردّد. «بعد ذلك، سيصطحبني دافيد في سيّارته، وفي كلّ الأحوال فإنّ عليه الذهاب إلى بيرن».

دافيد، ولكن *دون رفع الكلفة دومًا* ! حدّث فان فليبت نفسَه وهو

في السيّارة. مازال يستشعر يد ليفي الباردة التي اضطرَّ إلى مصافحتها مرّة أخرى وهو يغادر. لم تسأله ليَا عمّا إذا كان هو أيضًا يتمنّى حضور الحفل. وبطبيعة الحال لم يكن يرغب في ذلك، لكنّه في الوقت ذاته لا يريد أن يحرم نفسه من حضوره أيضًا. ولا حتّى من طرف ليَا، وخاصّة هي. كان يفكّر في روسنقارتان وفي الحركة التي أمسكت بها الهاتف. تلك الحركة بدت بمثابة جدار، وأخذ هذا الجدار يكبر مع كلّ ثانية انتظار طافحة بفرح مسبق في أن يردّ عليها ليفي بصوته الرخيم. ها هو يخسر الآن من جديد، وستكون إلى جانب ليفي في عمق الليل في السيّارة الجاقوار الخضراء.

لم يعترف فان فليبت بذلك لكنّنا كنّا واثقين، نحن الاثنان بأنه تذكّر يد ماري عندما خدشت بواسطة مفتاح حاد سيّارة جاقوار على طولها.

أراك تنطلق مسرعًا نحو إنس ونوشاتيل، مارتن، أمام عينيك ابنتُك وهدف وحيد. وأراك تقود السيّارة ليلاً من جنيف إلى بيرن، بطيئًا، دون امرأة، دون هدف، وعلى شيء من الشبه بطوم كورتيناي، عندما اضطُرَّ إلى العودة في اليوم الموالي إلى روتين المماحكات التي لا طعم لها، منتصرًا لبضع دقائق، مهزومًا لسنوات.

الفصل العشرون

وما إن عاد فان فلييت إلى المنزل حتّى تناول قرصًا منوِّمًا. لم يرغب في الإحساس بعودة لِيَا التي جهّزت في اليوم الموالي فطورًا صباحيًّا مشتركًا. وتلك هي المرّة الأولى التي رفض فيها عرضًا سلميًّا من ابنته. وتجرّع وهو واقف فنجان القهوة.

«سأذهب في رحلة لبضعة أيّام»، قال.

نظرت إليه لِيَا بقلق، كما لو أنّ لامبالاة الأشهر الماضية اختفت.

«كم من الوقت ستستغرق رحلتك»؟

- ليست لديّ أيّ فكرة.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- ليست لديّ أيّ فكرة.

تذبذبت نظرة لِيَا. ثمّ أضافت: «بمفردك»؟

رفض فان فلييت أن يجيب. هذا أيضًا حدث لأوّل مرّة. كانت نظرة لِيَا تقول: مع *ماري*. لا شكّ أنّها شعرت بذلك. ولم تتحدّث في الموضوع مطلقًا. لقد أصبحت ماري محرَّمة، نقطة تتبلور فيها الهشاشة والشعور بالذنب والانزعاج. لم يتخيّل مطلقًا وجود شيء محرّم بينه

وبين ابنته. فمقاومتها لتصرُّف والدها الحاني سابقًا في المحطّة بعد أن أصغت إلى عزف ليو لا مثّلت صحوةَ رغبةٍ فرديّة، آلمته ولكنّه تعلّم أن يفهم هذه الرغبة ويتقبّلها وتعلّم كيف يشجّعها في النهاية، تمامًا كما هو الحال بالنسبة إلى مظاهر الاستقلاليّة الأخرى التي طوّرتها منذ ذلك الوقت. ولكنّ ما يمزّقه هو أن تصل الأمور بينهما إلى هذا الحدّ في خصوص هذه المنطقة المحظورة حول ماري وهذا الجمود الصّامت والرّافض.

«حسنًا سأذهب»، قال وهو يغادر. كان واثقًا تمام الثقة من معرفتها بذلك: أخذ يردّد الكلمات المعتادة التي تقولها عندما تسافر إلى نوشاتيل. بدَتْ ضائعة، وهي واقفة أمام المدخل: فتاة ستعثر قريبا على شهادة البكالوريا في صندوق الرسائل، نجمة اسمها معلّق على كلّ أعمدة الصحف، طالبة كمان مغرمة بأستاذها، حتّى إن هي لم تملك قطّ الحقّ في المبيت عنده. تصلّب فان فليت عندما رآها ضائعة إلى هذا الحدّ. وكاد يغلق الباب ويجلس إلى طاولة الفطور، لكنّ حكاية حفلة البارحة هي القطرة التي أفاضت الكأس. فذهب.

حدّثني عن كلّ هذا خلال فطور الصباح. طرق باب غرفتي مباشرة، وليس الباب المشترك. لا شكّ أنّه طرق الباب مطوّلاً، كانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحا تقريبًا عندما خلدتُ إلى النوم وأبياتٌ لوالت وايتمان تشغل بالي. فاتنا وقت فطور الصباح ولكنّنا نجحنا في إقناع الخدم بإعادة إحضاره لنا مرّة أخرى. وفي هذه اللحظة جلسنا على حافّة البحيرة، مرتدين معطفَينا ومستعدَّين للذهاب دون أن نكون جاهزين لذلك أيضًا. لم يرغب في العودة إلى شقّته الصّغيرة الطافحة

بالصمت، فيما شعرتُ أنا بالخوف من بيرن. ماذا كان سيحدث؟ هل كنّا ببساطة سنفترق أمام منزلي، وعندئذ سيسير نحو منزله عبر طرقات بيرن حيث لا وجود لأيّ شاحنة تسير هادرة كهزيم الرعد؟

ماذا يسعُني أن أفعل بشقائه؟ ماذا سيفعل بما أعرفه عن هذا الشّقاء؟ حميميّة بهذا الحجم، توقّفت فجأة: أليس ذلك شيئًا مّا مفزعًا، وغريبًا؟ أم هو أمر مستحيل وحسب؟ ولكن ما الذي بإمكاننا أن نفعله غير ذلك؟

كنّا نمكث جالسَين مرتعشَين ومتأمّلين طيور اللقلق، وروى لي فان فلييت كيف استعاد تماسكه.

«بعد مرور هذا الوقت الطويل، استعدت نفسي. فشعرت عندئذ بمدى إهانة روث أداماك لي. في البداية، دخلتُ إلى مكتبي حاملاً حقيبة السفر ونظرت إلى طاولتي التي تزداد فراغًا: بما أنّني نادرًا ما آتي إلى هنا، فقد بدؤوا ببساطة يسحبون منّي الأعمال لينجزوها بأنفسهم. لم تعد لديّ أيّ فكرة عمّا يجري في معهدي». وبنقرة واحدة رمى عقب سيجارته في البحيرة. «عندما أدركت ذلك وأنا هناك في الأعلى، أهيمن على المشهد من فوق الجبل، لم أشعر بألم كالذي أحسُّه الآن. على أيّة حال، اقتنعت بذلك، بتزوير العملة، بالحريّة والتهوّر، بترك الأشياء تفرّ ببساطة: لِمَ لا! ولكن ليست هذه هي الحقيقة. في الواقع شعرتُ بأنّ كرامتي في خطر. إنّها كلمة عظيمة، كلمة محزنة، لم أكن لأتخيّل أنّني سأحتاج إليها ذات يوم. ولكنّها الكلمة المناسبة. ربّما أيضًا بسبب السهرة في جنيف. لا أدري. ذلك المكتب الشاغر لم يعد مسليًا في شيء. فغادرته».

لم يذهب إلى الأوبرلاند بل استقلَّ القطار إلى ميلانو.

«لم أجلب معي ملابس خاصّة بالأوبرا. ثمّ إنّني لا أملك ثيابًا مناسبة. ولكن في المساء الموالي اقترح عليّ أحدهم تذكرة إلى لسكالا لحضور أوبرا *إيدومينيه*. تركتُني أنخدع بهذا العرض، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك. وهكذا وجدتني، بعد يومين من حفل لِيَا، مرتديًا ملابس مدعوكة في أوبرا ميلان، أشاهد عازفي الكمان في تجويف الأوركسترا، متخيّلا لِيَا بينهم. وكانت تلك هي الشرارة الحاسمة إلى حدّ مّا. ستدرس الموسيقى في الكونسرفاتوار، والمهمّ في ذلك الوقت هو أن أترك ابنتي تطير بجناحيها، وقد أصبحت امرأة ناضجة تجني المال من حفلاتها ومبيعات اسطواناتها. أمّا ليفي فسينتمي هو أيضًا إلى الماضي، بين لحظة أو أخرى. سيكون لها منزل خاصّ بها، مسؤوليّة تتحمَّلها بمفردها. الحريّة، الحريّة لكلينا. منذ ذلك اليوم، أصبحت *إيدومينيه* الأوبرا المفضّلة لديّ، لم تكن لي أيّ فكرة عمّا يحدث داخلها وعن الموسيقى التي تُعزف فيها ولكنّها أوبرا رائعة، الأوبرا التي حرَّرتني من مسؤوليّة سبق أن حمّلتني إيّاها سيسيل، المسؤولية التي كادت تحطّمني.

المشكلة أنّني لم أصدّق كلمة واحدة من كلّ هذا. غير أنّي لم أرغب في معرفة الحقيقة، بالإضافة إلى أنّني عملت على خداع نفسي بكلّ الطاقة الجديدة التي اقتنعتُ بامتلاكها.

لكنّي منحت نفسي رحلة لبضعة أيّام في مدن إيطاليا الشماليّة وعلى ضفاف بحيرة غارد، من موقع أب عرف أخيرًا كيف يتعامل مع ابنته التي أصبحت امرأة ناضجة، رجل في بداية مرحلة جديدة

من حياته، مفعم بحرِّية جديدة، محاط بنظرات نساء بل ونساء شابّات، ويحمل حقيبة سفر جديدة.

ثمّ صدر ذلك الكتاب حول صناعة الكمان بكريمونا. آماتي، ستراديفاري، الأخوان غارنيري، أنا أتذكّرهم جميعًا: لم أكن مرتاحًا تمامًا وأنا أتهيأ لدفع ثمنه. أحسست كأنّ صخبَ مستقبلٍ خطير وماكر يتدفّق نحوي، كما لو أنّ الكتاب يُظهر لي دوّامةً ستلتهمني. ولكنّني لم أرغب في معرفة أيّ شيء عن هذا الشعور. سأحمل الكتاب إلى لِيَا كبادرة صُلح، تصرّف نبيل، وهو يشمل ليفي أيضًا عبر آماتي.

بعد عودتي استأنفت عملي إذا جاز التعبير. وصلت قبل الآخرين إلى المكتب وخرجتُ بعدهم. حملت معي كلّ ملفّات الأشهر الأخيرة. اطّلعت على نتائج التجارب التي تلقّينا المال من أجلها. وسألتُ عن تفاصيل المشاريع الجديدة. كان صوتي جادًا وكلماتي مختصرة. انتابهم خوف من طاقتي وتركيزي اللّذين نسَوهما تقريبًا، إذ كشفتُ أخطاء عديدة: حسابات خاطئة وتقديرات مغلوطة، سوء صياغة للمسائل، وكان يجب تمديد عقود المانحين الاثنين. رفضتُ التَّوقيع عندما اكتشفت أنّ روث أداماك وقّعت بدلاً منّي. اتصلت برئيس المستخدمين وألغيت المسألة. استدعيت روث وببرود تامّ نفخت الدخان في وجهها. رغبت في الاحتجاج ولكنّ ذلك ليس إلاّ البداية. «ليس الآن»، قلت عندما دخل أحدهم. لا شكّ أنّني قلت ذلك بنبرة قاطعة جدًّا امتقع معها وجهها. سحبتُ نحوي حزمة من الأوراق سبق لي تفحّصها خلال الليل. تعرّفتْ روث إلى الحزمة فانتفضت. سردت عليها القرارات السيّئة واحدًا تلو آخر. أرادت

أن تلقي بالمسؤوليّة على عاتقي، على غياباتي فقطعت حديثها. نظرتُ إليها وأنا ما أزال أشعر بنَفَسها على رقبتي عندما صرختْ: وقّع»! رأيتُها تواصل السخرية منّي عندما مزّقتُ الاستمارة. أحصيت أخطاء الحساب، المبادئ الخاطئة، التأويلات السيّئة للمعطيات. قرأتها عليها واحدة تلو أخرى، كرّرتها، ترنّمتُ بها. كنت أحطّم روث أداماك التي لم تغفر لي قطّ تركَ نفسي أسقط في فخّ تنّورتها القصيرة. ريح باردة جدًّا أخذت تكنس الأروقة وأنا مستمتع بها.

ليس هذا كافيًا. فقد قمت بصفقة رائعة في مجال الصناعة واسترجعت اعتمادات البحث بكلفة تناهز الملايين. وعندما غادرتُ اجتماعَ لجنة الإشراف اضطررتُ إلى الاستناد على حوافّ المصعد. لقد أصابت لامبالاتي الهدفَ، قرأت ذلك على الوجوه. وبفضلها ارتفع المبلغ أكثر فأكثر. وذلك ليس تزويرًا ولكنّني خاطرت، إذا لطّفنا الكلام.

استدعيت المدير الذي هنّأني على نجاحي إلى مكتب. «إنّه تافه، قلت، ولا أهميّة له. أقصد بحثي. إنّه لن ينفع أحدًا في شيء. بإمكاننا أيضًا الاستغناء عنه»، سرعان ما تجاوز المدير الصدمة، يجب أن أعترف بذلك، وأطلق ضحكة رنّانة. «لم أعرف أنّك خفيف الظلّ إلى هذا الحدّ». اكتسى وجهي مسحة جدّيّة. وقلت: «أنا لا أمزح، أنا في غاية الجدّيّة». ثمّ حاولت محاكاة تصرّف ممثّل كوميديّ شاهدته من قبل: انفجرت فجأةً ضاحكًا، مقهقهًا إلى حدٍّ بدت معه تعابير وجهي الجادّة تمهيدًا جليًّا لهذا الضحك. انفجرت ضاحكًا وجاراني المدير في الضحك. احتدّت نبرة ضحكي حتّى تحوّل إلى خوار وبلغ ذلك حدًّا

جعل ضحك المدير يتحوّل هو أيضًا إلى خوار، وبدا أنّ صدى هذا الخوار تردَّد في كامل الجامعة. ازدادت نبرتي حدّة. ففي تلك اللحظة وجدت هذا النهيق في غاية الإضحاك. بكيتُ من الضحك وفي النهاية سحب المدير منديله هو أيضًا. «فان فلييت، قال، أنت بطل، كنت دومًا على علم بذلك. كلّ الهولنديّين أبطال». إنّ الأمر من الغباء حقًّا ومن الحمق حتّى إنّني انفجرت ضاحكًا من جديد وبدأ صراخنا جولة ثانية. لحظة مغادرتي سألني عن أخبار الآنسة موزارت. «باخ»، قلت له، جان سيباستيان باخ». «نعم هذا ما أعنيه»، ردَّ عليّ وهو يربّت على كتفي.

«كلّ شيء قد يمرّ بشكل مغاير خلال لقائنا القادم!».

الفصل الحادي والعشرون

في الخامس من جانفي أتمّت ليَا العشرين من عمرها. وبعد مرور ثلاثة أيّام أبلغها ليفي أنّه سيتزوّج قريبًا وسيذهب في رحلة قصيرة برفقة زوجته. وتلك بداية الكارثة.

كان ذلك متوقّعا. اعتاد ليفي أن يعمل مع ليَا حتّى في الأيّام التي تفصل عيد الميلاد ورأس السنة الجديدة ويستأنف العمل بعد العام الجديد فورًا. لكن هذه المرّة حصل على إجازة في آخر السنة. لم يطرح فان فلييت أسئلة واكتفى باستنتاج الأمر بعمق. طرأ جديد فيما يخصّ زينة عيد الميلاد بمساعدة ليَا. لكنّ ذهنها بدا شاردًا. انقطعت عن العزف، لم تعزف ولا نوتة واحدة وهو الشيء الذي أقلق الأب. أهداها الكتاب الذي يتحدّث عن مدرسة عازفي الكمان في كريمونا، الكتاب الذي اقتناه خلال رحلته إلى ميلانو. ظلّ الكتاب على الطاولة بضعة أيّام دون أن تفتحه. ثمّ بدأت في تصفُّحه. في البداية قرأتْ كلّ ما يخصّ نيكولا أماتي الذي صنعت يداه كمانَها، فاستعاد وجهُها ألقَه وشعر فان فلييت بأنّها تفكّر في ليفي خلال تلك اللحظة، وما نيكولا أماتي إلاّ ممثّل عنه. «إنّه هو من استبدل الشكل الحاليّ بشكل الفيول[1]

(1) آلة ذات ستّة أوتار سبقت الكمان.

المدبَّب»، قالت. جلس الأب إلى جانبها على طاولة المطبخ وقرآ معًا كلّ ما يتعلّق بأحجام الكمان، الطلاء، صلابة الخشب في كلّ جزء منه، الخياشيم والقوقعة. الآلة الموجودة في قاعة الموسيقى المجاورة كانت *نموذجا كبيرًا لكمان آماتي*، لكنّ لِيَا تجهل هذه الدلالة. وهي لا تعرف أيضًا أنّنا نطلق عليها اسم *كمنجات موزارت* بسبب الألحان التي تصدرها. التهبت وجنتاها وظهرت بضع بقع حمراء على رقبتها. ومع كلّ تفصيل صغير كانت نوشاتيل تقترب. وهذا ما آلمَ والدها لكنّه ظلّ جالسًا إلى جانبها ثمّ تصفّحا معًا شجرة نَسَب آماتي.

غارنيري ديل جيزو. هنا، على طاولة المطبخ خلال آخر أيّام السنة، لم يتوقّع فان فليبت ما يتربّص بهما من شقاء خلف هذا الاسم. أيّ قَدَر قاتل خبِّئ لهما! في البداية كان هذا هو الاسم الذي فتن لِيَا بكلّ بساطة وحوَّل اهتمامَها عن آماتي وليفي. فجأةً ظهر في صوتها وفي عينيها فضولٌ صافٍ وساذجٌ خالٍ من أيّ نظرة جانبيّة لنوشاتيل. درسَا أيضًا شجرة العائلة تلك. أندريا، الجدّ، غيساب جيوفاني الذي حصل لاحقًا على لقب ابن أندريا، وأخيرًا ابن أندريا، بارتولوميو غيسيبي الذي كان يوقّع على الكمنجات تحت اسم جوزيف *غارنيريوس*. مضيفًا صليبا وأحرف IHS التي يمكن أن تعني IN HOC SIGNO أو IESUS HOMINUM SALVATOR ولهذا السبب سُمّي لاحقًا غارنيري ديل جيزو. هذا اللقب أثار إعجاب لِيَا. أعجبها إلى درجة أنّ فان فليبت تذكّر إشارة الصّليب التي اعتادت ماري رسمَها على جبين تلميذتها. خلال لحظة قصيرة، لحظةٍ محفوفة بالمخاطر تملّكته رغبة عارمة في طرح هذا الموضوع. ولحسن الحظّ أنّ لِيَا قرأت الساعةَ

شيئًا مّا أغرقها في حماسٍ بهيج. «أُنظر يا أبي، نيكولو أيضًا امتلك كمانًا من صنع غارنيري ديل جيزو. إنّه يسمّى *الكانون* وقد وهبه في وصيّته لمدينة جنوة. بالإمكان رؤيته هناك في فندق المدينة. ألا يمكننا الذهاب إلى هناك؟».

في اليوم نفسه اشترى فان فلييت تذاكر الطائرة وحجز بالفندق. سيقضيان عيد ميلاد لِيَا في جنوة أمام واجهة زجاجيّة تعرض كمانا لباغانيني. أيّ شيء أفضل من هذا يمكن أن يليق بها؟ وهذه هي الهديّة المناسبة لعيد ميلادها. والأهمّ من ذلك كلّه، ستكون رحلة جديدة بعد مرور سنوات عديدة، رحلة سيقوم بها مع ابنته، لا يشاركهما فيها أحد. لقد اضطرّ إلى قطع آخر سفرة لهما بسبب رغبة لِيَا في العودة بالقرب من ماري. أمّا هذه الرحلة، فإنّ الأب أقسم ألاّ يقطعها، وإذا لزم الأمر فلتفقد لِيَا هاتفها في الطريق. كان مستمتعا، مستمتعا حتّى إنّه اشترى للِيَا حقيبة فخمة، هي الأغلى ثمنًا، وجلب لها أيضًا ألبوم صور ضخمًا لمدينة جنوة ومخطّطا للمدينة. فأن يبدأ العام الجديد في جنوة برفقة ابنته يعني أنّ الأمور ستكون، ولا شكّ، على ما يرام خلال العام. منذ زمن طويل لم يكن واثقًا كاليوم.

ولكنّ لِيَا غيَّرت رأيها فجأةً. أصبحت تفضّل الذهاب إلى نوشاتيل لزيارة ذلك المعرض الذي تحدَّثت عنه الصحف. حدَّق فان فلييت في الحقيبة الجديدة. لقد غدا كلّ شيء شبيهًا بحلم يمحى مع الفجر. «أعتقد أنّني لم أشعر بخيبة أمل كما حصل في ذلك اليوم، قال. كما لو أنّني ضربت رأسي على نافذة زجاجيّة مدرَّعة وغير مرئيّة آلمت وجهي كلّه». ألغى الحجز بالفندق ومزَّق تذاكر الطائرة. وفي

يوم عيد ميلاد لِيَا قصد المعهد باكرًا وبقي هناك حتّى ساعة متأخّرة من الليل، أمام حاسوبه. وخامرته لأوّل مرّة فكرة الانتقال للعيش بمفرده في شقّة أخرى.

بعد ثلاثة أيّام، عادت من نوشاتيل بغير كمان. وقد فاجأها المطر، فتدلّى شعرها خصلاتٍ على وجهها. ولكن ليس هذا هو السبب الذي جعله يرتجف من الخوف، بل نظرتها.

«نظرة مجنونة، أجل، لا يمكن أن نصفها بخلاف ذلك: مجنونة! نظرة تعكس فوضى داخليّة مرعبة. نظرة تشي بفقدان لِيَا توازنَها الداخليّ، وبأنّ موجة من الهشاشة تجرفها. اللحظة الأسوأ حدثت عندما لامستني نظرتها. «آه أنت هنا أيضًا! ولكن لماذا؟ لا يمكنك مساعدتي. ليس أنت. أنت آخر شخص باستطاعته فعل ذلك». وهذا هو تأويل نظرتها تلك. انزلقت تحت الغطاء بملابسها المبلّلة، حتّى إنّها لم تخلع حذاءها. وعندما واربتُ الباب أخذت تشهق على مخدّتها».

جلس فان فليبت إلى طاولة المطبخ وانتظر. حاول أن يجهّز نفسه، أن يرتّب مشاعره. لقد انفصلت عن ليفي! انفصال في غاية الجدّ إلى درجة أنّها أعادت إليه الكمان. حاول أن يكون صادقًا مع نفسه فلم يَنْفِ ارتياحَه لهذا الأمر. لقد انتهى كلّ هذا إذن. والآن؟ هل ذلك يعني أيضًا نهاية مسيرتها، مشوار حياتها كعازفة؟ سنرى، بل سنسمع أنّها لن تعزف مطلقًا على كمان أماتي. ولن يملأ كمان سانت-غال قاعات الحفل ألحانًا. وبمعزل عن ذلك: من سينظّم لها الحفلات الآن؟

نسي أن يخفي الأقراص المنوّمة، فوجدتها ليَا، غير أنّه لم يتبقَّ في العلبة إلاّ بضع حبّات. عندما اكتشف الأمر، أيقظها وأعدّ لها قهوة. وجاب معها الشقّة طولاً وعرضًا. لقد أسقط الدواء حواجز الرقابة. وكلّ ما تقوله الآن أصبح يخرج منها بصوت خامٍ وأجشّ وبلا تناسق. عرَّفها ليفي إلى خطيبته. «ثديان ومؤخّرة!» صاحت ليَا بصوت مختنق. هي فقط جيّدة لإشعال رغبة ليفي كي تنتزع منه المالَ. شعر فان فليبت بالحزن وهو يعيد هذه الكلمات أمامي. بدا متردِّدا، ومن الواضح أنّ ليَا لفظت كلمات أخرى غيرها. هذا الأب الذي كبر في الشارع فزع من قدرة ابنته المعبودة على أن تصير فتاة مبتذلة. وانتبه إلى أنّ الصورة التي رسمها لها كجنيّة بصفات جنيّة تترفّع عن كلّ ما هو فاحش وعاديّ. شيء آخر أيضًا أثار فزعه، شيء أزعجه خلال حفل جنيف عندما صافحت ليَا عازف الكمان الأوّل: أن تكون ردود فعلها متوقّعة بتلك الدقّة، لأنّ تلك اللعنات المجنونة التي تتكرّر فيها دومًا كلمة *عاهرة* بدت في غاية البساطة ومتوقّعة أكثر من عربدة الغيرة التي تملأ المسلسلات الدراميّة. بعد السرعة الجنونيّة التي قاد بها السيّارة من نوشاتيل إلى بيرن، بدا سعيدًا بضمّه ابنته الباكية بين ذراعيه. أمّا الآن وقد بات مجبرًا على سَحبِها داخل الشقّة، فقد أحسَّ، لأوّل مرّة، منذ ولادة ليَا باشمئزاز من لمس هذا الجسد الناعس الذي خرجت منه كلّ تلك الكلمات القذرة والمتوقَّعة.

تذكَّرتُ المرَّة الأولى التي سمعت فيها ليسلي تقول: *قرف وعاهرة*. حدث ذلك أمام التلفاز، وقد ارتجفتُ أنا أيضًا عند سماعها آنذاك. «*لقد كبرَت*»، قالت جوانا وهي تبتسم.

«أغلب ما نقوله متوقَّع»، قلت.

سحب فان فلييت نفسًا من سيجارته ونظر إلى البحيرة البعيدة. «هذا ممكن، قال، ولعلّه حتميّ. ومع ذلك، فمن المرعب والمقيت، ببساطة، أن تقول كلّ هذه الأشياء التي بإمكان أيّ كاتب سيناريو ثملٍ أن يلقِّنها إيّاها. لكأنّني سحبتُ، عبر الشقّة، فتاةً أخرى وليس لِيَا. مسافة كبيرة فصلت أحدنا عن الآخر. لماذا يحدث هذا أيضًا والآن بالذات؟».

بعد مرور سنوات، عندما كانت لِيَا في مستشفى سانت-ريمي وتحت حراسة المغاربيّ، اتَّصل فان فلييت بليفي ليطلب الحديث إليه. ارتجف وهو يسمع الصوت الرخيم يقول «نعم؟»، تمامًا كما حدث عند اتصاله الأوّل. ولكن هذه المرّة تحدَّث حتّى النهاية ثمّ ذهب إلى نوشاتيل. تحدَّث ليفي وزوجته الشابّة الجميلة التي عُلّقتْ بعض صورها على الحيطان، وهي امرأة لا تشبه في شيء الكائن الذي وصفه صوت لِيَا الثمل بفعل الأقراص المنوِّمة، عن اللحظة الدراماتيكيّة التي أوشكت لِيَا خلالها على أن تبدِّد مليون دولار. إذ كانت تمسك بيدها كمان آماتي عندما عرَّفها ليفي على خطيبته.

«نظرتها... كان عليّ أن أدرك مغزاها، قال ليفي، إذ خطوت بضع خطوات باتّجاهها. وهكذا استطعت أن أمسك معصمها في الوقت المناسب قبل أن تُلقي الكمان. حدث ذلك في اللحظة الأخيرة، اللحظة الأخيرة تمامًا. أسقطت لِيَا الكمان وتمكّنتُ من التقاطه باليد الأخرى. «إنّ قيمته تفوق قيمة أيّ شيء هنا»، وقام بحركة بيده شملت كامل المنزل.

في طريق العودة، تذكّر فان فلييت اللحظةَ التي أرادت فيها ابنته الصغيرة لِيَا رمي كمانها على الجمهور إثر خطإ ارتكبته خلال عزف الروندو. وتذكّر أيضًا اسطوانة دينو ليباتي التي رمتها عبر النافذة وأحدث غلافها قرقعة على الإسفلت.

ولكن عليه الآن أن يعيش الأيام كما هي. المهمّ عنده هو التصرّف في الملايين التي رهنها في لحظة جرأة، لحظةٍ لم يستطع خلالها أن يسمح لنفسه بالتغيّب. ستستغلّ روث أداماك أيّ فرصة للانتقام. كان يتّصل هاتفيًا بمنزله مرّات عديدة في اليوم ليتأكّد من عدم ارتكاب لِيَا حماقات، وأصبحت أوجاع الرأس التي تنتابه خلال العمل أكثرَ عنفًا.

في ساعة مبكّرة من إحدى الأصباح، انتظر أمام محلّ كرومفولز ليتحدَّث إلى كاتارينا وولتر قبل مجيء أوّل الحرفاء. مرَّ وقت طويل قبل أن يلتقيها ويلومها طويلاً لأنّها تحدّثت كما لو أنّ شيئا مّا مَرَضِيًّا انتهى فور انتقال لِيَا من ماري إلى ليفي. لقد تابعت مسيرة الآنسة باخ في الصحف وحضرت إحدى حفلاتها. وتابعت عبر التلفاز حفل جنيف وفوجئت حقًّا عندما حدَّثها فان فلييت عن انهيار لِيَا.

«إنّها تبلغ من العمر عشرين عامًا، قالت بعد وقت قصير، ستتجاوز الأمر. أمّا في ما يخصّ الحفلات فسيوجد المزيد منها خلال فترة وجيزة. الراحة ستكون مفيدة لها. سيقدّم وكلاء آخرون عروضهم».

شعر فان فلييت بالخيبة. ما الذي كان ينتظره؟ أيّ شيء باستطاعته أن ينتظره وهو يكتم الأهمّ؟

الأهمّ من كلّ ذلك أنّ أفكار لِيَا أصبحت تحيد عن الطريق. الفوضى لم تلمس العواطف فقط. كأنّ تيّارًا انبجس من أعماق مشاعرها التائهة جارفًا معه العقل أيضًا خلال اللّيل.

تواترت أيّام بدا فيها كلّ شيء كأنّه عاد إلى ما كان عليه. ولكنّ الثمن الذي ينبغي دفعُه مقابل ذلك هو إلغاء الزمن. إذ أنّ ليَا تحدّثت عن نوشاتيل وعن ليفي وكأنّ شيئا لم يتغيّر، دون أن تعي أنّ هذا لا يتّفق مع كونها لم تعد تذهب إلى هناك وأنّه لم يعد يوجد كمان لأماتي بالمنزل. كانت تعود بملابس جديدة اشترتها من أجل إحياء حفلات خياليّة، فساتين مطرَّزة تهبها مظهر دمية، ملابس يمكن أن تليق بقاعة احتفالات. وبعد ذلك تذرع الشقّة ذهابًا وإيابًا وهي ترتدي ثوبَ نومٍ يجعل الأبَ يحمرُّ خجلاً، وشفتاها ملطَّختان بأحمر ينفخ فمَها. كانت تقرأ صحيفة أوّل أمس دون أن تعي ذلك. ونادرا ما تعرف أيّ يوم من الأسبوع هو. وتخلط بين *ايدوميني وفيديليو*، بين الشيشانيّين والتشيكيّين. وبدأت تدخّن في البيت أيضًا، هي التي لم تكن تحتمل الدخان وتسعل بسببه دون توقّف. وتقول: «اليوم رأيت كارولين في المدينة، لا يمكننا نسيان كلّ شيء»، وتقول أيضًا: «لقد تقاعد جو. بلغ أخيرًا هدفَه. لقد أحبَّ مهنة التدريس دومًا» و«لقد أولى موزارت اهتمامًا كبيرًا بسرعة الإيقاعات. لم يكن هذا مهمًا جدًّا بالنسبة إليه، فالنوتات تأتيه ببساطة أسرع من العادة حتّى يتمكّن من الاهتمام بسرعتها».

أصبح فان فليبت يقضي أغلب وقته بالمعهد ويظلّ هناك لوقت متأخّر من الليل. هناك، يستطيع أن يضع رأسه على الطاولة ويطلق العنان لدموعه.

ألم تراوده قطّ فكرةُ زيارة طبيب نفسيّ؟ تساءلت. بلى، بطبيعة الحال. ولكنّه لم يعرف كيف يعرض هذه الفكرة على لِيَا دون أن تنفجر في وجهه. وقد أشعره ذلك بالخجل، هذا ما اعتقدته.

الخجل؟ هل هذه هي الكلمة المناسبة؟ لم يتحمَّل فكرةَ أن يعلم أحدٌ بالتّعاسة التي تربطه بابنته، أن يأتي شخص ويحشر أنفه في الأمر حتّى لو كان طبيبًا. وبالإضافة إلى ذلك فكيف يستطيع غريبٌ أن يفهم ابنته إن لم يفهمها هو، وهو الأب؟ هو الذي حفظها عن ظهر قلب، لأنّه يراها كلّ يوم منذ عشرين سنة حتّى إنّه يعرف كلّ منعطف وكلّ تفريع وكلّ منحنى في تاريخ حياتها؟

ولكن في الحقيقة ليس ثمّة سوى عائق وحيد: إنّه يرفض *نظرة* غريب، نظرة الآخر المجرَّدة. كان سيشعر حتمًا بأنّها نظرة مدمِّرة لِلِيَا وله أيضًا. أجل وبالنسبة إليه أيضًا. هكذا عاش نظرة المغاربيّ فيما بعد، تلك النظرة العربيّة السوداء، النظرة التي ودّ في كراهيّته له لو دفنها في داخل عيني المغاربيّ السوداوين إلى أن تنطفئ.

وعلاوة على ذلك نجح في فعل شيء عمَّق قناعته بأنّه قادرٌ ولِيَا على تجاوز هذه الأزمة. في أحد الأيّام رأى طفلة صغيرة يلحس كلبٌ يدَها ووجهَها، عندئذ تذكّر العاطفة التي أظهرتها الحيوانات لِلِيَا فيما مضى. فرافقها إلى مأوى للحيوانات. وفي المساء نفسه بدأت تطعم الكلبَ الجديد.

لم تلبث أن تعلّقت بالحيوان على الفور. كان كلبًا أسود كبيرًا من فصيلة شنوزر. وهذا ما خفّف عنها وأشعرها أحيانا بالارتياح

إلى حدّ مّا. عاملته بحنان وعندما رآها الأب على تلك الحالة أصبح بامكانه تقريبًا نسيان كلّ المشاعر العنيفة والقاسية في داخلها. وهذه المشاعر تنبجس مثل برق فقط عندما يقترب شخص غريب من الحيوان. عندئذ تتّقد نظرتها قسوة قاطعة.

أحبّت الكلب ورعَته. واستعاد الأب هدوءه، إذ زال خطر الأقراص المنوّمة. لن تتخلّى عن الكلب أبدًا. لكنّ خطرًا جديدًا بدأ يقترب ببطء وخفية. بدأت الفتاة الحانية تتحوّل إلى طفلة تنشد الاحتماء بالكلب كما لو أنّه إنسان. فعوض أن تنحني عليه أو تداعبه وهي جاثية على قدميها، كانت ليَا تجلس بجواره على الأرض، دون أن تهتمّ للأوساخ، تشدّ رأس الكلب إلى رأسها وتحيطه بذراعيها. لم يشعر فان فليبت بالحيرة على الفور. وطغى الارتياحُ الذي شعر به لمعرفته أنّها في أمان على كلّ شيء. أحيانا، لا يخلو هذا الشعور من السّخرية بل من بعض الحزن عندما يهرب الكلب منها لشعوره بالاختناق أو بالضغط الشديد بكلّ بساطة.

«نيكي، تقول وهي محبطة وبشيء من الغضب أيضًا، لماذا لا تبقى بقربي؟».

«نيكي، هو الاسم الذي تعوّد عليه الكلب من قبل. في حضور الأب لم تنادِه ليَا باسم آخر غيره. ولكن عندما مرّ الأب في أحد الأيّام أمام باب غرفتها الموارب سمعها تنادي الكلب باسم نيكولا أو نيكولو. كان الاسمان يمتزجان وبدا ذلك شبيهًا بتفريغ شحنة كهربائيّة. وهو في مكتبه، حاول أن يهدّئ من روعه وأن يستعيد صفاء ذهنه. لماذا لا يعتبر تصرّفها هذا مثل لعب على الكلمات، بريء

وممتع؟ ولكن لمَ يحدث هذا في الخفاء إذن؟ هل حدث ذلك في الخفاء حقًّا؟ وماذا لو أنّ الأمر أعمق من ذلك؟ لو أنّها ربطت بفيض من المشاعر الغامضة علاقةً بين الكلب وكمان آماتي أو باغانيني أيضًا؟ هل في هذا حقًّا ما يثير القلق؟ إنّها غريبة الأطوار نسبيًا، تتصرّف بشيء من الحمق لكنّها ليست مجنونة.

كان فان فلييت يولي عمله اهتمامَه كلّه إلى أن انفجر القلق داخله مثل نافورة. *وماذا لو كانت كذلك بالفعل؟* ماذا لو ظهر خلف اللعب البريء بالكلمات دفقٌ من فوضى ذهنيّة تعبث في أعماق ليَا بكلّ شيء مثل زلزال أرضيّ؟

لا شكّ أنّ روث أداماك دخلت عليه خلال إحدى تلك اللحظات التي سحقه فيها الخوف. كانت ترتدي مئزر المخبر الأبيض وفي يدها حلقة مفاتيح. عندئذ حدث شيء مّا لفان فلييت، شيء مّا قرأتُه في نظرته المحمومة وفي صوته الأجشّ أكثر ممّا هو في أحاديثه المختصرة والمتردّدة. لقد بدت له مساعدته التي دمَّرها منذ وقت قصير هنا -كما قال- مثل الحارسة القاهرة والقاسية لمصحّة أمراض نفسيّة مغلقة. وعندما أقول *بدت* فأنا أعني أنّ ظهورها كان تجلّيًا شيطانيًا بنيَّة المجيء للإتيان به هو وابنته واصطحابهما خلف جدران ملجإ شاهقة وكئيبة.

طردها فان فلييت وكاد يتشاجر معها. سُمع اصطفاق باب مكتبه في كامل البناية. وإن هو شعر، في ركن مخفيّ لا يعترف به من ذاته، باستعداد للحديث إلى طبيب نفسي، فإنّ هذا القليل من وعيه أصبح مطبوعًا إلى الأبد منذ تلك الحادثة.

«دار مجانين، *دار مجانين*. لن أصطحب لِيَا إلى *دار مجانين*».

بعد أن سرنا بعض الوقت وجدنا نفسينا من جديد على ضفّة بحيرة ليمان. مجانين! هذه الكلمة الوحشيّة بدت شبيهة بسكّين يجرح بها نفسه مرّة ومرّتين وثلاث مرّات. فكّرتُ في ما قاله لي سابقًا وهو يحدّثني عن أمستردام وعن الجسور المنخفضة جدًّا على القنوات، تنكّره بملابس قديمة، تلك التي يعيد ارتداءها حتّى يدافع عن نفسه، هو مارتن غريت فان فلييت الهولنديّ الفظّ، ضدّ دافيد ليفي المتوهّج، *لأنّ من السهل تحمُّل وجعٍ عاطفيّ نتواطأ عليه مقارنة بألم يباغتك بكلّ بساطة*.

«أنا لا أصطحب لِيَا إلى دار مجانين»، كان يتحدّث في زمن الحاضر، في حاضر مرعب. لا لأنّه ينفي موت لِيَا فحسب ولكن لأنّ غضبًا يائسًا وباردًا ارتجّ داخله أيضًا، غضبًا ضدّ المغاربيّ الذي منعه في الماضي من الوصول إلى ابنته، المغاربيّ الذي لا يُحتمل وجودُه إلاّ إذا ألغيناه بالحديث في الحاضر. كلاّ، من المستحيل التفكير في المآزر البيضاء والمفاتيح والأبواب المقفلة لملجإ مّا.

ولا سبيل للتفكير في كلّ هذا حتّى عندما انهارت لِيَا تمامًا بعد زيارتها لماري. لقد لمحها فان فلييت من بعيد وكمانها القديم على كتفها، وهي تسحب نيكي وراءها. فشعر بتشنُّج في معدته. *ماري!* أصبح هذا الأمر يقينًا عندما ركبت الترامواي. فاندفع فان فلييت نحو محطّة سيّارات الأجرة وتبع لِيَا، كمن يتبع مصابًا بِنَهَكٍ في عقله لحمايته ومنعه من السقوط في الفراغ.

اختبأ خلف سقيفة أحد المنازل، في الجانب الآخر من الطريق،

عندما اتجهت لِيَا نحو منزل ماري بخطًى مترددة ورأسُها مائل على نحو غريب. كان الليل يسدل ستائره، وعلى الفور لاحظ عبر نوافذ منزل ماري أنّ الأضواء مطفأة. تردَّدت لِيَا وبدت، في لحظة مّا، راغبة في الرجوع على أعقابها لكنّها ضغطت على الجرس رغم كلّ شيء. لاشيء. داعبت الكلب وانتظرت، ثمّ ضغطت على الجرس مرّة أخرى. تنفَّس فان فلييت الصعداء: لقد مرَّ كلّ شيء بسلام. ومع ذلك، وبالرغم من أنّ الكلب يسحب مقوده، فإنّ لِيَا لم تبرح المكان. أنزلت الكمان من فوق كتفها وجلست على العتبات أمام الباب. في تلك اللحظة كان الأب والبنت ينتظران في العتمة الناشئة، صامتين، تفصلهما حركة مرور المساء التي لا بدّ أن تبرز منها ماري بين لحظة وأخرى.

هل كان عليه أن يتّجه نحوها ويعيدها إلى المنزل؟ أن يذكِّرها بأنّ ماري تخاف الكلاب؟ ربّما لو أنّها لم تحمل كمانها لفعل ذلك. ولكنّ الكمان يعني أنّها لم تأت للتحدّث إلى ماري فقط. لقد كانت تريد أن تتلقّى درسًا، تريد أن تعيد الزمن إلى الوراء، تريد أن يعود كلّ شيء كما كان. لا للعودة إلى سانت-موريتز، لا وجود لقطيعة بينها وبين ماري، لا وجود لدافيد ليفي، لا وجود لنوشاتيل، إنّها ترغب في العودة لارتداء فساتين ماري المصنوعة من الباتيك وكلّ الشينتز الذي أرادت يوما مّا أن تسبح فيه. هذا ما شعر به فان فليت. وهناك، على العتبات، كانت لِيَا معلّقة فوق الهاوية، تترنّح عبر الزمن، أو بالأحرى باتت تجهل الزمن -لقد انتفى الزمن داخلها- لم تبقَ إلاّ تلك الرغبة الوحيدة في أن يجري كلّ شيء على ما يرام مع ماري مرّة

أخرى، مع المرأة التي سبق أن منحتها حلقة ذهبيّة وأرسلت إليها جميع البطاقات البريديّة التي اشترتها من روما، المرأة التي رسمت على جبينها إشارة الصليب قبل كلّ صعود لها على المسرح.

ولم يرد الأب أن يصبح ذلك الشخص الذي يسحق هذا الأمل وهذه الرغبة داخلها، الأب الذي كانت ستكرهه بعد ذلك.

مرَّت أكثر من عشر ساعات، والليل حالك، عندما ركنت ماري سيّارتها أمام المنزل. حدَّق فان فلييت في الجانب الآخر من الشارع حتّى امتلأت عيناه بالدموع. قفز الكلب وسحب قيده فانتفضت ماري وتراجعت إلى الوراء. توقّفت وتسمَّرت في مكانها. ولِيَا واقفة في تلك اللحظة تحدّق فيها. وشعر فان فلييت بالسعادة لأنّ الجوّ مظلم، ممّا يصعِّب عليه قراءة تلك النظرة. ولكن لعلّ الأصعب هو وجوب تخيُّل نظرة ابنته المتضرِّعة والمتوسِّلة، الابنة التي قد تمثّل لها ماري آخر فرصة للخلاص.

حاول فان فلييت عبور الشارع والركض لنجدة ابنته. ولكنّ هذا سيجعل كلّ شيء فوضويًا. فواصل التحديق في العتمة محاولاً سماع ما تقوله ماري. *كان يجب* أن تقول شيئًا مّا بعد ثلاث سنوات من الصمت المتواصل، إنّها لا تستطيع على الرغم من ذلك أن تمرّ في صمت أمام لِيَا، أن تدخل منزلها وتغلق الباب خلفها. أم أنّ هذا ممكن؟

كانت ماري أمام الباب، ويبدو أنّها تضع المفتاح في القفل. وقفت لِيَا بعيدًا عنها واضطرّت إلى الاختباء خلف شجيرة وهي تمسك طوق نيكي بإحكام حتّى تسمح لماري بالمرور. شعر الأب

بطعنة في القلب وهو يرى لِيَا تتراجع إلى الخلف مثل جارية لا تملك الحقّ في الوقوف هناك. في تلك اللحظة سمعها تقول شيئا مّا لماري. وفي تجويف الباب الموارب الذي أضيء النور خلفه، التفتت ماري ونظرت إلى لِيَا. وفي الأثناء، مرّت سيّارة. «الوقت متأخّر... أنا آسفة...»، هذا كلّ ما استطاع التقاطه. أطلقت لِيَا الكلب، تعثّرت في المقود ومدَّت ذراعيها. لا شكّ أنّ الأب تألّم عندما رأى حركة ابنته المتوسِّلة، نداء ابنته الضائعة تمامًا، ابنته التي تحاول، بشكل عبثيّ، أن تفلت من الزمن ومن كلّ ما يفعله بالناس، تحاول الهرب ومواصلة العيش هناك في هذا المكان الأقلّ قدرةً على الأذى.

ماري، الشبيهة بشبح أمام دفق النور الذي يخرج عبر الباب المفتوح، بدت منتصبة وقد أصبحت قامتها طويلة جدًّا. لقد تعلّم فان فلييت تأويل هذا الوقوف وكيف يخشاه. «لا»، قالت وردَّدتها من جديد: «لا». ثمّ أدارت ظهرها وعبرت الباب وتركتها تسقط خلفها من جديد.

طال وقوف لِيَا وهي تحدِّق في الباب الذي انطفأ النور خلفه. أن ينطفئ النور يعني بالنسبة إلى الأب أنّ آمال لِيَا ومستقبلها انهارا معه. اشتعل النور في قاعة الموسيقى وظهر خيال ماري. فتذكّر فان فلييت الزمن الذي أصبح بعيدًا جدًّا يوم شاهد عزف الظلال الذي استسلمت له ماري ولِيَا في هذه القاعة. كم شعر آنذاك بأنّه مرفوض! كم حسد هاتين المرأتين على الحميميّة التي فاضت من كلّ حركة من حركاتهما. الآن، أصبحت لِيَا أيضًا في الخارج وقد طردها نور انطفأ. فتاة صغيرة مبعدة، تترنّح وتكاد تقع في أيّ لحظة، في أعماقها كما في الظاهر.

اتخذت لِيَا الوجهة الخطأ. لم تكن الطريق التي سلكتها مناسبة للعودة إلى المنزل أو التوجّه نحو أيّ هدف آخر قابلٍ للتأويل. تشنَّجت معدة فان فليت من جديد، ففي تلك اللحظة غلَّفت صورةَ ابنته الحقيقيّة صورةٌ خياليّة واصلت السَّير فيها على امتداد تلك الطريق، وهي تغور دومًا بعيدًا. كانت الطريق خطًّا مستقيمًا لا متناهيًا تسير فيها لِيَا دون توقّف. اختفى الكلب، وفي تلك اللحظة أخذ شبح ابنته يتراجع ببطء ويصبح أكثر وضوحًا وشفافيّة وصفاءً، أكثر فأكثر مثل خيال جنّيّة، إلى أن اختفى أخيرًا.

وعندما تمكّن، أخيرًا، من طرد هذه الفكرة التي تنامت قوّتها في داخله، بدا كأنّه تعافى من مرض عنيف لم يدم طويلاً.

قال: «وبينما كنت مستلقيًا بعد ذلك، وقد جافاني النوم، ظننت أنّ ذهني بدأ يتشوَّش هو الآخر. كان إحساسًا غريبًا جدًّا. انتظرت أن يغمرني الشعور بفزع شديد، إنّه الخوف من أن أصبح مجنونًا. لكنّني، على العكس، شعرت أنّني بخير. وهذا ليس شعورًا بالسعادة تحديدًا ولكنّه ضرب من الرضا، إذ بدا لي أنّني بصدد التحوّل إلى شبيهٍ لِلِيَا، مهما بدا هذا الأمر غريبًا، أو ربّما عليّ أن أقول: «أصبح شبيهًا بها»، ولكن *متطابقًا معها*. أجل إنّها العبارة المناسبة. وأنا أتخيّل الطريق اللانهائيّة التي تسلكها لِيَا -تلك الطريق التي أخذت تتراجع شيئًا فشيئًا- خالجني شعور بأنّني أستجيب لفقدانها الإحساسَ بالواقع الذي أخذت أهمّيته تزداد لدى ابنتي. كان هذا الأمر خطيرًا. لقد عرفتُ ذلك. ولكنّ هذا واقع بالرغم من ذلك: أن نشهد طوعًا انفتاح هاوية، مستسلمين وراضين تقريبًا».

وبعد ذلك حدّثني عن فيلم «*تالمة ولويزا*» الذي يروي حكاية امرأتين مطاردتين من قبل الشرطة تقودان السيّارة بسرعةٍ جنونيّة باتجاه ضفّة الوادي، امرأتين تفاهمتا ببضع كلمات. وبنظرات متواطئة أمسكت إحداهما بيد الأخرى وسارتا في انسجام داخليّ نحو الحرّيّة المميتة.

«تلك اليدان، قال، هما من أجمل الصور السينمائيّة التي شاهدتها. الطريقة التي تتلامس بها هاتان اليدان خفيفة جدًّا ورشيقة، يدان لا تعبّران عن أيّ شعور باليأس بل عن سعادة كتلك التي يستحيل الحصول عليها إلاّ عندما نجازف بكلّ شيء بما في ذلك حياتنا. إنّها مناورة خارقة، جريئة على نحو جنونيّ، تلك التي تسمو بها المرأتان فوق قدرة العالم بأسرها، حتّى وإن لم يحدث ذلك إلاّ في الثواني الأخيرة من حياتهما.

أجل، مارتن، إنّها صورة أثّرت فيك عميقًا حتمًا. أنا أيضًا تتراءى لي يداك عندما أبعدتها عن المقود والشاحنات تقبل ضخمة وصاخبةً ومستعدّة لطحن كلّ شيء.

في ذلك المساء استوقف فان فلييت سيّارة أجرة، وطلب من السائق القيام بجولة حول البناية والتوقّف بالقرب من لِيَا. «آه بابا»! هذا كلّ ما قالته. ثمّ صعدت إلى السيّارة مع نيكي. لم تشكّ في شيء، والرّاجح أنّها اعتبرت لقاءنا مصادفة. عادا إلى المنزل في صمت. أعدّ الطعام، ولكنّها بقيت أمام صحنها ونظرتُها تائهة، وفي نهاية الأمر لم تأكل شيئًا.

عندما استيقظ في الصباح الباكر سمع ضجيجًا عند المدخل. كانت لِيَا جالسة على الأرض في إحدى الزوايا بجوار نيكي، وقد احتضنت الكلبَ وهي تبكي. حملها إلى سريرها وانتظر أن تنام وهو جالس على الأريكة. لم يكن الحديث إليها ممكنًا. «لقد أصبحت عصبيَّة على الجميع»، قال.

الفصل الثاني والعشرون

خامرته هذه الفكرة القاهرة خلال الساعات الصباحيّة: سيشتري لليَا كمانًا من صنع غارنيري ديل جيزو، كلّفه ذلك ما كلّفه.

ستعيد الآلةُ ابنتَه إلى استقامتها -هذا ما اعتقده حتمًا- وستعيد إليها مظهرها المتكبّر، الوقار الذي يتلاءم مع طبعها الحقيقيّ. هذه الآلة ستمنح إرادتَها التي أخذت تضمحلّ رسوخًا جديدًا، بعد أن انقطعت كلّ حبالها. ستقف من جديد على المسرح لتبني كاتدرائيّاتها من النوتات المقدّسة. لِيَا فان فلييت، لقد تخيّل من دون شكّ أحرفَ هذا الاسم المهيبةَ والمضيئة. لن يكون دافيد ليفي ولا ماري باستور من بين الجمهور، بل هو فقط، الأب. لم يملك خطّةً محدّدة من أجل الحصول على المال الكافي لشراء إحدى الكمنجات الأغلى ثمنًا في العالم. ولكنّه سيحصل عليه. بانتصار باهر في جولة شطرنج، انتصار ذي جرأة جنونيّة، سيمنع ابنته من التسلّل ليلاً وسيعيدها إلى عالم الأسوياء.

بإمكاننا تخيّل أشياء عديدة وتقديم شروح عديدة: الكتاب حول كمنجات كريمونا الذي قرأه في ما مضى رفقة لِيَا على طاولة المطبخ، غارنيري كخَلَف لآماتي، نسيان ليفي، الأمل في رؤيتها على

المسرح، الرغبة في رؤية عيني لِيَا تبرقان من جديد، الإرادة المتواصلة، والأدهى من ذلك، الرغبة اللعينة في تصفية كلّ المنافسين واستعادة حبّ ابنته كاملاً بأن تكون له وحده من الآن فصاعدًا.

أنا أيضًا أفكّر في كلّ هذا. لكن حتّى نتمكّن من الفهم، من فهم كلّ ما فعله فان فلييت حقًّا بعد ذلك، كان لا بدّ من رؤيته وسماعه، يجب أن نحسّ به، وإن بدا هذا غريبًا. لا بدّ من رؤيته، هذا الرجل الطويل القامة والضخم، وهو يمسك بقارورته في شيء من التحدّي، الرّجل المغامر في الظاهر، وفي أعمق أعماقه أيضًا. يجب أن نصغي إلى ارتجاف صوته وهو ينطق الاسم المحبوب والمقدَّس: لِيَا، وتلك النبرة المرتجفة المختلفة تمامًا وهو يتحدّث عن ماري وليفي. يجب أن نشاهد يديه الضخمتين على غطاء السرير ونشتمّ نفَسه الحادّ بفعل الكحول، نفَسه الذي ملأ الغرفة الليليّة حيث ينبعث من بيت الاستحمام شعاع النور الحاني. *اللعنة ماذا نعرف نحن*. هذه الكلمات التي غالبا ما انبعثت من ذاكرتي أكثر ممّا تظهر في الواقع بدت لي نبرتها بديهيّة أيضًا. كان يجب أن نسمعه، أن نعيش كلّ هذا كي يغمرنا، أمام ما سيحصل لاحقًا، الشعورُ القاهر بأنّه يجب أن يفعل حقًّا وحتمًا ما فعله.

أغمضت عينيّ واستحضرته أمامي قائلاً في نفسي: نعم يا مارتن، كان ينبغي عليك أن تشعر وتتصرّف على هذا النحو تمامًا، هكذا. لأنّ إيقاع روحك هكذا تحديدًا. توجد، مع ذلك، كمنجات أخرى هي أيضًا آلات راقية، يمكن أن تصدر ألحانًا رائعة بين يدي لِيَا. كمنجات لم تكن لتحيلك إلى البوكر، تلك اللعبة الجريئة والغامضة. ولكن كلاّ

يجب أن يكون كمانا من صنع غارنيري ديل جيزو لأنّه الاسم الذي فتن لِيَا سابقًا على طاولة المطبخ، الاسم الذي صرف اهتمامها عن آماتي وليفي. لا بدّ أن يكون كمانا شبيها بكمانٍ لباغانيني معروضٍ في قصر بلديّة جنوة مهما بلغ ثمنه. ولا يبدو لي غريبا أنّك تساءلتَ في البدء وأنت ساهر حتّى الفجر بالقرب من سرير لِيَا، كيف ستسرق هذا الكمان المعروض على الواجهة الزجاجيّة، كمان لغارنيري ديل جيزو. قضّيت أقلّ من ثلاثة أيّام بالقرب منك ولم أعجب البتّة من وجود شيء آخر يمكن فعله.

الفصل الثالث والعشرون

في ضوء الصباح الشاحب جلس فان فليبت أمام حاسوبه. كانت أولى الخطوات سهلة على نحو صبيانيّ. فبعض النقرات تكفي ليحمله محرّك البحث نحو صفحات تتضمّن المعلومات التي ينشدها. من بين 164 كمانًا لغارنيري ديلجيزو عُرِض واحد فقط للبيع. والبائع يوجد في شيكاغو. ولمعرفة ثمنه ينبغي على فان فليبت أن يصبح عضوًا في موقع على الانترنت حيث تتجمّع كلّ المعلومات المتعلّقة بالآلات الموسيقيّة القديمة. تردّد في تقديم رقم بطاقته البنكيّة لأنّ هذا سيُعدّ مجرّد هدر لبعض الدولارات لا أكثر. ومع هذا، فعندما فعل ذلك أخيرًا، شعر بأنّه شغّل آليّة لن يستطيع التحكّم فيها.

كان ثمن الكمان 1.8 مليون دولار. أرسل فان فليبت رسالة للبائع عبر البريد الإلكترونيّ وسأله كيف يمكنه شراء الكمان لو رغب في ذلك. ولكنّ الوقت في شيكاغو آنذاك منتصف الليل، ويتعذر توقّع ردٍّ قبل نهاية الظهيرة.

عندما استيقظت لِيَا عند الظهيرة، بدا كأنّ شيئًا لم يحدث. بدت كأنّها لا تتذكّر لا زيارتها لماري ولا ما حدث مع الكلب ليلاً. شعر فان فليبت بالفزع. لم يحدث قطّ أن تشتّت ذهن لِيَا بشكل واضح إلى

هذا الحدّ، وبحلقات لا ترابط بينها. في الوقت نفسه شعر بالارتياح وابتهج عندما سمعها في الهاتف وهي تحدّد موعدًا مع كارولين.

في المكتب، تفحّص الملفّات المتعلّقة بالملايين التي تحصّل عليها. أصابه الخوف إذ أدرك أنّه فكّر، منذ البداية، في شراء الكمان بالمال المعدّ للبحوث، وقد أخفى ذلك عن نفسه. تأمّل المبالغ المعروضة على الشاشة: لشراء الكمان يجب تحويل أكثر من نصف المبلغ كقسط أوّل. وهذا يعني مواصلة بعض المشاريع من أجل دفع القسط الثاني بعد ذلك. وقف أمام النافذة وغرق في التفكير. وعندما دخل أحد الزملاء وألقى نظرة على الشاشة، انتفض فان فليبيت رغم أنّه لا يوجد أيّ داع لذلك. وحيدًا من جديد، أغلق الملفّ بالكامل بإحداث كلمة عبور. ثمّ انطلق نحو ثون[1] وذهب إلى بنك صغير خاصّ يعرفه بالاسم وفتح به حسابًا رقميًا.

«وأنا في الشارع انتابني الإحساس القديم نفسه، ذاك الذي اجتاحني عندما بعتُ أسهُمًا من أجل شراء الكمان الأوّل الكامل لِيَا، قال. لكنّ الإحساس هذه المرّة أقوى، مع أنّني لم أفعل شيئًا غير نزيه حتّى الآن ومازال باستطاعتي أن ألغي كلّ شيء بجرّة قلم».

عندما عاد إلى المعهد اشتكت روث أداماك من عدم قدرتها على فتح الملفّات بسبب وجود كلمة العبور. فأخبرها ببرود أنّ هذا مجرّد إجراء أمنيّ، ورفض بهزّة من رأسه عندما طلبت منه كلمة العبور. بعد ذلك استرجع في ذهنه كلمات روث أداماك ونظراتها. كلاّ من

(1) ثون: هي إحدى بلديّات مقاطعة ثون في كانتون بيرن بسويسرا.

المستحيل أن يراودها الشكّ. فهي لا تستطيع الشكّ في شيء ينوي اقترافَه.

بحلول المساء، وصله الردّ من شيكاغو: لقد بيع الكمان قبل بضعة أيّام. وبعودة فان فلييت إلى المنزل أخذ يتنازع أعماقَه شعور بالخيبة مرّة والارتياح مرّة. أخفى الملفّات الخاصّة ببنك ثون في غرفته. يبدو أنّ الخطر زال.

الآن، أصبحت كارولين تتردّد على المنزل وتصطحب معها لِيَا. هدأ روع فان فلييت. لعلّه أوّل زيارة لِيَا لماري بشكل دراماتيكيّ جدًّا. ثمّ أليس من الطبيعي أن تبحث عن العزاء بالقرب من كلبها؟

ولكن بعد ذلك، التقى بكارولين في المدينة فدعته في خجل إلى شرب فنجان من القهوة. وهناك تحدَّثت عمّا تشعر به من خوف على لِيَا. شعر بالفزع لأنّه اعتقد في البداية أنّها لاحظت هي أيضًا العيوب والتصدّعات في ذهن لِيَا. ولكن ليس هذا هو المهمّ. إنّ السبب في قلق كارولين هو ذكريات الحفلات التي تحتفظ بها لِيَا في ذاكرتها، ذكريات ألقها وارتباكها وتصفيق الجمهور. وهُمَا معًا، لم تتحدّث لِيَا إلاّ عن هذا الموضوع، ولساعاتٍ. إنّها تنسى كلّ ما يحيط بها وتعيد الزمن فتبتهج وتكتسي عيناها بريقًا. فعبْر نافذة المقهى تتأمّل مستقبلاً خياليًّا وتخطّط لبرامج حفلات واحدًا تلو آخر. وعندما تحين لحظة دفع الحساب ينطفئ كلّ هذا، ولا تكاد تتذكّر أين كانت وتتحوّل، فجأةً، في عيني كارولين إلى سيّدة عجوز خلَّفت حياتَها وراءها. «كارو، قالت آخر مرّة وهي تغادر، ستساعدينني أليس كذلك؟».

خرج فان فلييت وكارولين إلى الشارع. وتنبّأت هي بالسؤال الذي طرحه على نفسه. «هي تعتقد أنّ ذلك يناسبك؟ أقصد أن تكون الحفلات انتهت، وأنّك لم تحبّ هذه الحفلات قطّ، بسبب دافيد، دافيد ليفي».

مكث فان فلييت كامل الليل في المعهد. وفي الساعات الأولى صارعَ غضبًا انفجر ضدّ لِيَا. *هذا يناسبك*. كيف تجرؤ على التفكير في شيء مماثل! ألأنّه تغيّب عن حفلات عديدة حتّى لا يُجبَر على رؤية لِمَة ليفي الرَّمادية؟ أخذ يذرع مكتبه ذهابًا وإيابًا ويلقي نظرة عابرة على المدينة الليليّة ويتحدّث إلى لِيَا. تحدّث وتناقش معها طويلاً إلى أن هدأت ثورة غضبه ولم يتبقّ إلاّ الشعور المرعب بأنّه أصبح غريبًا عن نفسه تمامًا. هو الذي سبق أن وقف إلى جانب لِيَا في المحطّة عندما خلّصتها ليولا دي كولون من فتورها بفضل موسيقاها. هو الذي سبق أن سألته وهما على طاولة المطبخ: «هل الكمان باهظ الثمن؟».

اعتقد أنّ هذا الشعور بالقياس إلى كلّ ما تبقّى، هذا الشعور بالمسافة التي تفصلهما، هذا الشعور الذي لا يحتمل، هو الذي دفع فان فلييت في ساعات الصباح الأولى إلى الذهاب، مرّة أخرى، للبحث عن كمان سيوقظ لدى ابنته الرغبة في الحياة ويبرهن لها أنّها أخطأت وأنّها أساءت فهمه. لا شكّ أنّ هذا الكمان هو الدليل الحيّ والمادّي على أنّه مستعدّ للقيام بأيّ شيء، بأيّ شيء فعلاً ليعيد إليها سعادة الموسيقى وحمّى الحفلات. وعندما حدّثني عن الحزم الجريء والمحموم الذي جلس به أمام الحاسوب، أدركت، للمرّة الأولى،

عنفَ تلك الكراهيّة التي اشتعلت في داخله حين قال له المغاربيّ بصوته القاطع هذه الجملة: *«الأمر يتعلّق بابنتك»*.

عثر في النت على منتدى موجَّه إلى الأشخاص الرّاغبين في تبادل معلومات وأسئلة حول كمنجات من صنع عائلة غارنيري. وبعينين حارقتين قرأ محتوى المنتدى.

«كنت كما لو أنّني أغرق في مرجلِ ساحرةٍ يغلي ويفور، قال. مع ذلك جاءت لغة الرسائل باردة وجافّة وتحوي كلمات نادرة ومنتقاة، رسائل شبيهة بشرفة سرّيّة يتّبع أعضاؤها قواعد خاصّة في استعمال الكلمات، مظهرين بذلك اطّلاعهم الواسع.

وهنا وقع نظره على السيّد بوبيو. «هل سبق أن سمعت عن رغبة السيّد بوبيو في بيع كمنجات غارنيري في المزاد العلني؟»، هذا ما كُتب. كم يبدو هذا مدهشًا، بعد كلّ هذه السنوات. لا شكّ أنّه يملك نحو اثني عشر كمانا بالإضافة إلى كمنجات أخرى من صنع ديل جيزو. ولا شكّ أيضًا أنّ المزاد سيقع في منزله. هذا ما سمعته، ولن يقبل الدفع إلاّ نقدًا. لكأنّه يفكّر في لعب مباراة شطرنج في مواجهة بقيّة العالم. قد تكون آخر مباراة في حياته».

تردَّد فان فلييت في فتح حاسوبه لأنّه سيكشف بذلك عن عنوانه. ولكنّ ذلك، ببساطة، أمرٌ جللٌ.

ما علمه هو قصّة شبيهة بتلك التي نقرؤها في كتب الحكايات. السيّد بوبيو رجلٌ أسطوريّ من كريمونا وقد لقّب بهذا الاسم -السيّد ظلمات- لأنه لا يظهر البتّة إلاّ مرتديًا الأسود: بذلة سوداء

بائسة وحذاء أسود مبتذل يشبه الخفّ، قميص داخليّ أسود تظهر منه رقبة مجعَّدة لرجل يتراوح عمره بين الثمانين والتسعين سنة، فاحش الثراء وجشع إلى حدّ ترك نفسه يموت جوعًا. يسكن شقّة في منزل بائس، جدرانه رطبة. ويقال إنّه يحتفظ بالكمنجات في خزانات وتحت سريره. ويقال أيضًا، إنّ كمان *فيليوس أندريابي* تحطّم على عارضة السرير.

كان يتسكّع في طرقات كريمونا حاملاً كيسًا بلاستيكيًا ذا ثقوب يضع فيه الخضر الرخيصة وبقايا اللحوم وخراطيم المياه ويحملها إلى منزله. لا أثر لامرأة واحدة في حياته، ولكن يقال إنّ هناك فتاة كان يعبدها رغم أنّها أنكرت ذلك. وهو يحمل أوراقه النقديّة المطويّة عدّة مرّات في حقيبته الحمراء. وقد اختلف أناس كثيرون حول لونها، حمراء أم سوداء. عندما رفض نادلٌ قبول إحدى هذه الأوراق المدعوكة اشترى السيّد بوبيو المقهى بكامله وألقى بالرجل خارجًا.

وكان يدَّعي أنّه أحد أقرباء كاترينا روتا، زوجة غارنيري ديل جيزو. وقد أبدى كراهيّة لا حدود لها تجاه كلّ المجتمعات الأجنبيّة التي تشتغل بتجارة كمنجات كريمونا. وإذا علم أنّ أحد التجّار يملك كمانا من صنع غيرناري تجاوزت كراهيته له كلّ الحدود وتمنّى تأجير شخص لسرقة الكمان وجلبه إليه. لا أحد يعرف السبب وراء ذلك ولكنّه يحمل كرهًا خاصًّا للتجّار الأمريكان بشيكاغو وبوسطن ونيويورك. لم يكن يتحدّث الإنجليزيّة، ولكنّه يحفظ كلّ الكلمات النابية في هذه اللغة. وتقول الأسطورة إنّ في حياته عازفة كمان إيطاليّة يحبّ عزفها أكثر من أيّ شيء آخر. وهو فوق ذلك

مجنون بها. إنّه يعرف كلّ كمان من كريمونا من جهوريّته ويكشف عبر السمع أيّ الأصابع صنعته. وهكذا يعرف أنّ أصابعها تعزف على كمان من صنع غارنيري *فيليوس أندريايي*. ولا يمرّ يوم دون أن يستمع إلى إحدى اسطواناتها. وبعد أن علم بالصدفة أنّها اقتنت كمانها من عند تاجر من بوسطن سحق كلّ اسطواناتها بضربة فأس ومزّق صورها إلى قطع صغيرة. كان الجميع يقولون: إنّه مجنون، ولكن لا يوجد على هذا الكوكب شخص عليمٌ بكمنجات كريمونا أكثر منه.

طلب فان فلييت تاريخ المزاد ومكانه. سيقع بعد ثلاثة أيّام وسيبدأ في منتصف الليل. لم يكن للمنزل رقم ولكنّه معروف ببابه الأزرق. هل يعني عدمُ قبول السيّد بوبيو الدفعَ إلاّ نقدًا أنّ على الناس أن يأتوا بحقائب مليئة بالنقود؟ لا أحد يعرف ذلك تحديدًا ولكنّه أمرٌ محتمل.

شعر فان فلييت كأنّه تعاطى مخدّرًا بعث فيه النشاط وأرهقه على نحو مرعب في آنٍ. أقفل باب مكتبه بالمفتاح واستلقى على الكنبة. كانت مصابيح الحلم خافتة وسرعان ما انطفأت. لكنّه يرى دومًا الرجل المعتم نفسه، الرجل الذي يطالبه بالمال، وجيبُه خالٍ. لم يسمع سخرية العجوز الماكر، لكنّه يعرف أنّه هناك بالفعل.

استيقظ عندما حرّكت روث أداماك الباب. رمقته بنظرة غريبة عندما فتح لها بوجه يغشاه النعاس وشعرٍ منفوش. طلبت منه، مرّة أخرى، كلمة العبور فجدّد رفضه. فهما ليسا إلاّ خصمين، وأبسط الأشياء سيجعل منهما عدوّين. مسح كلمة العبور التي يمكن أن

تكشفها في النهاية وعوَّضها بأخرى لن تخطر على بالها: **ديلجيزو**. ثمّ عاد إلى منزله.

الفصل الرابع والعشرون

«لعلّه ما كان لي أن أفعل ذلك لو لم أجد ليَا جالسة على السرير وهي ترمقني بتلك النظرة، عند عودتي إلى المنزل»، قال فان فلييت.

مدَّدنا إقامتنا في الفندق ليلةً أخرى إضافيّة. ونمنا في غرفتي. كلّما اقتربت حكاية الكارثة ازدادت حاجته إلى الراحة. حدث أن سرنا مدّة نصف ساعة على ضفّة النهر دون أن ينطق بكلمة. ومن حين إلى آخر، يتناول جرعة من قارورته. لا يزيد عليها قطّ. من المستحيل الذهاب إلى بيرن الآن. إذ بإمكان ذلك أن يوقفه، أن يقطع سرد الذكريات. فأوصلته إلى الفندق من جديد. وعندما سلّمته المفتاح رمقني بنظرة خجولة طافحة بالعرفان.

«كانت هناك، ساقاها مضمومتان تحتها وقد تناثرت حولها صور لحفلاتها»، تابع حديثه، «صُورها وهي تعزف وصور أخرى وهي تنحني لتحيّة الجمهور وأخرى أيضًا يظهر فيها قائد الأوركسترا وهو يقبّل يدها. ثمّة العديد من هذه الصور في حزمة كبيرة جدًّا، حتّى إنّها بدت شبيهة بغطاء ثانٍ للسرير، ولم تترك غير موضع صغير لجسدها المنكمش، لأنّها لم تكن تأكل شيئًا تقريبًا. فازدادت نحافة وأصبحت نظرتها تائهة وبعيدة وأنا أقول في نفسي: إنّها على هذه الحالة منذ ساعات.

رمقتني بنظرة ذكّرتني على الفور بما قالته كارولين: هي *تعتقد أنّ هذا الوضع يناسبك*. ليت تلك النظرة بدت على الأقلّ نظرة غاضبة، قادرة على إثارة صراع كالذي شهدته معها في الليل، في مكتبي. ولكنّها نظرة خالية من اللوم تقريبًا. كانت، ببساطة، نظرة طافحة بالخيبة، نظرةً لا مستقبل لها... هل ينبغي أن أحضر لها طعامًا؟ تساءلت. فهزّت رأسها بحركة واهية ومبهمة. عندما وجدتني في المطبخ وقد تبعتني نظرتها، عبرت ذهني للمرّة الأولى فكرةٌ آلمتني كثيرًا حتّى إنّني اضطررت إلى البحث عن شيء أستند إليه: خشيتُ أنّها *تمنّت لو كان لها أبٌ آخر*. هل تفهم الآن لماذا وجب عليّ السّفر إلى كريمونا؟ وكان لا بدّ أن أفعل ذلك بكلّ بساطة؟».

لا أثر في موقفي لشيء قد يحمله على الاعتقاد بأنّني لم أفهمه، على العكس. ولكن كلّما اقتربنا أكثر من الفعل الذي جعله يتجاوز الحدّ، بدا لي أنّي تحوّلتُ، في نظره، إلى قاضٍ أيضًا، ولكن قاضٍ متفهّم يمكن أن يكسبه في صفّه. جلس على حافّة سريري واضعًا يديه بين ساقيه، مُحكمًا قبضتيه على القارورة، وهو لا يكاد ينظر إليّ، كأنّه يتحدّث إلى البِساط. وعلى الرغم من ذلك، كانت كلّ حركة أقوم بها على أريكتي تزعجه، فيتشتّت تركيزُه وتحوم شُبهةُ غضب حول ملامحه المتعبة.

أغلق فان فلييت باب شقّته خلفه برفق وعاد إلى المعهد. أغلق على نفسه في مكتبه، وبنقرة فأرة نقل على حسابه في ثون نصفَ الأموال المخصَّصة للبحث. «لن أنسى أبدًا تلك النقرة، قال بصوت أجشّ، تلك النقرة التي تمثّل واحدة من بين مئاتٍ من آلاف النقرات التي يستحيل تمييزها، ومع ذلك فهي مختلفة عنها. عضلات وجهي

ستظلّ، هي أيضًا، راسخة في الذاكرة دومًا، عضلات وجهي التي تشنّجت وأصبحت ملتهبة بأكملها».

مارتن فان فلييت الذي حلم، وهو شابّ صغير مستلقٍ على سريره، بأن يصبح مزوّر عملة، مارتن فان فلييت الذي قبِل كلّ التحدّيات في الشطرنج، وعجز عن مقاومة مناورة مجنونة، مناورة مبهمة بالنسبة إلى خصومه، ها هو يشعر بالخوف بعد تلك النقرة القاتلة. لا شكّ أنّه خوف جهنميّ، خوف ما يزال باستطاعتنا الآن رصده مثل ظلّ في نظرته المعتمة.

ومع ذلك فقد غادر نحو ثون في البداية ثمّ إلى كريمونا، حاملاً حقيبة مليئة بالأوراق النقديّة.

كنت أنظر إليه عندما حدّثني، وهو جالس على حافّة السّرير، عن موظّف إيطاليّ بالجمارك مرَّ من أمام مقصورته دون أن يشرّفه بنظرة. لقد عبر هضبة بُو تحت سماء صافية وزرقاء، وشعر بالدوار تحت وطأة العاطفة التي غمرته. واجتاحه أيضًا شعور بالخوف، الخوف من النقرة على الفأرة. ولكن كلّما سار نحو الجنوب ترك هذا الشعورُ مكانَه لحمّى اللاعب.

«كنت أدخّن ورأسي تصفعه الرياح، أدخّن وأشرب في كوب من الكرتون قهوة حانة القطار السيّئة»، قال ذلك وهو يُحكِم قبضتيه المتشنّجتين على القارورة إلى أن ابيضّت أطراف أصابعه.

مشهد غريب تتجلّى فيه قوّة هاتين اليدين الكبيرتين بل عنفهما، اليدين اللّتين كانتا تعبّران عن الإحساس بالذّنب والغضب أمام

الإحساس بالخطإ ذاته. هنا، بين يديه الممسكتين بالقارورة، يوجِّه الصراع ضدّ أناه العليا. وفوق ذلك، على مستوى النظرة والصوت أتت هذه الكلمات التي ما تزال تصفّر داخلها ريحُ السّباق، ريح سفر دفع به، في ما مضى، إلى المغامرة الأشدّ جنونا في حياته كلّها. حوَّلتُ نظري عن أطراف أصابعه البيضاء، لا أريده أن يتعذّب، يجب أن يعيش، أن يعيش. وأخذت أفكّر في ليليان وفي فرص أخرى لم أعش خلالها ما استطعتُ فعله وربّما ما كان عليّ أن أعيشه.

«كان ضربًا من الجنون ومن غير المعقول بالمرَّة أن أذهب في منتصف الليل، حاملا حقيبةً مليئة بالنقود المختلسة إلى مزاد ينظِّمه عجوز متهوّر ذو جشع مرضيّ، من أجل شراء واحد من أغلى الكمنجات ثمنًا في العالم. في الواقع لا يمكن أن يكون وجودي في الطريق حقيقيًا. ومع ذلك فهو واقع ملموس، كنت أسمع وقع خطواتي على الرصيف، وعندما أرهفتُ السَّمع لصداها الخفيف على الطريق الخالية تراءت لي، مرّة أخرى، الطريق التي سارت فيها لِيَا إثر عودتها من زيارة ماري وقد اتخذت الاتجاه الخطأ. في تلك الليلة أيضًا انحسرت الطريق اللامتناهية والمستقيمة، وطغى ذلك الشحوب البعيد على الوميض الضبابيّ للمصابيح التي تضيء في حزن أزِقّة كريمونا كأنّها فوانيس. وشعرت من جديد بمدى تلاؤم غرفتي الوهميّة الليليّة مع الهذيانات التي اجتاحت ذهن لِيَا».

أمام الباب مرَّ زبائن صاخبون. فأغمض فان فلييت عينيه منتظرًا عودة الهدوء.

«وددت لو أنّني لم أفعل ذلك. فقد دمَّر هذا عديد الأشياء، دمَّر

كلّ شيء. ومع ذلك فأنا لا أشعر بالندم لأنّي عشت اللحظة التي عبرتُ فيها الباب الأزرق لأصعد الدرج بين جدران مبلَّلة وأطرق باب رجل عجوز. كأنّني كنت أعبر، وأنا في تمام الصحو، حُلمًا واضحًا تمامًا لأجد نفسي في حالة من انعدام الجاذبيّة. لاشيء يشدّني غير العبث، في فضاء وهميّ يمكن أن يكون فضاء لوحة لشاغال[1]، فضاء عجيبًا وجميلاً على نحو مرعب. حتّى الساعات التي تلت ذلك لم أندم على عيشتها، تلك الساعات المجنونة، الساعات العبثيَّة التي استبعدتهم جميعًا خلالها.

كان مسكن الرجل العجوز عبارةً عن غرفتين يفصلهما بابٌ جرَّار. وقد فُتح البابُ كي يتّسع المكانُ للرجال السبعة المشاركين في المزاد على كراسيهم الهزّازة. ومع ذلك بدا المكان ضيّقًا إلى درجةٍ جعلتهم يتلامسون. الجوّ خانق، والمنزل مليء بأكوام الغبار، ومن كلّ ركن تنبعث رائحة شيخوخة لاذعة. انتاب أحدَ الرجال الغثيانُ على نحو ظاهر، فوقف دون أن يقول كلمة وغادر القاعة.

على كرسيٍّ قذر في زاوية الغرفة، جلس السيّد بوبيو بملابسه الفلكلورية. من هذا المكان، باستطاعته أن يشرف على كلّ شيء. وأصبح لنظرة عينيه الصافيتين اللّتين ازداد شحوبهما وبدتا نائيتين أكثر أثناء الليل متّسعٌ من الوقت حتّى تقع على كلّ زائر. لا أحد حظي بالتحيّة عند دخوله. فُتح الباب كما لو أنّ شبحًا فعل ذلك. فتحته فتاة صَمُوتٌ ليس لوجودها هناك أيّ معنى. ولا يبدو أنّ أحدًا

---

(1) مارك شاغال، رسّام روسّي رائد من روّاد الحداثة ومن أهمّ فنّاني المدرسة الرمزيّة في القرن العشرين.

يعرف الآخر، لا أحد يقدّم نفسه. وكانوا ينظرون بعضهم إلى بعض على نحو ذاهل ومدروس وحذر في آنٍ معًا.

أمام الطريقة التي تحدّث بها فان فليبيت قلت لنفسي: لقد عرف كيف يقدّر ذلك الوضع السرياليّ!

«كان المشهد يشبه حتمًا تجمّعًا للخفافيش. لا أحد منّا يرى الآخر فعلاً، يستمع بعضنا إلى بعض ويشعر بعضنا ببعض»، قال.

أعتقد أنّ العجوز كان يستمتع تحديدًا بتلك الغرابة وبذلك النفور التامّ والشَّبحيّ، ليس كما يستمتع أحدهم بشيء مّا سائغ. بل، كمن ينقضُّ على شيء، ويتشبَّث به بعد أن يكتشف أن وهمًا قاتمًا خاليًا من كل أمل لم يكن في الواقع إلاّ حقيقة صارخة.

اعتقد أنّ حاجزًا أخيرًا لا يمكن تجاوزه يجعل الناس غريبين بعضهم عن بعض. في الواقع، من الخطإ أن نسمّي ذلك شكًا. إنّه، بالأحرى، شيء شبيه بتجربة ترسّبت في أعماقه مثلما ترسَّبت كلّ المشاعر الأخرى. لم أسمعه ينطق هذه الكلمات: *ابتعاد، غرابة أو حتّى جنون*. ولكن عندما أغمضُ عينيّ وأستمع إلى حكايته بعمق كأنّني أصغي إلى قطعة موسيقية، أُدرك أنّه لم يتحدّث خلال كلّ ذلك الوقت عن شيء آخر غير هذا البعد وهذا الجنون. لقد سبق أن عرف هذه المشاعر، وهو صبيّ شوارع، وطفل ضائع. ثمّ ظهر الأستاذ الذي أعطاه الكتب حول لويس باستور وماري كوري. ظهر جان لويس ترانتانيان وسيسيل. ظهرت بالخصوص، ولبضع سنوات، لِيَا التي مثَّلت جدارًا واقيًا ضدّ البعد والمسافة التي تفصل الناس، أو كما أراد أن يعتبره كذلك، إلى أن ودَّعت ليفي في روزنغارتن قائلة:

«إلى لقاء قريب»، ليَا التي اضطرَّ إلى سحبها بعد فترة قصيرة وهي ثملة بفعل الأدوية عبر كامل الشقّة، مُصغيًا لهذياناتها المبتذلة حتّى علم أخيرًا من كارولين أنّ ابنته أساءت فهمه كثيرًا. وفي النهاية ذهب هذا الرجل في رحلة محمَّلاً بملايين الأموال المسروقة كي يحصل على كمان من صنع غارنيري ديل جيزو، كي يحصل على شيء ساحر حقًّا، الشيء الوحيد القادر، في رأيه، على حلّ سوء التفاهم واجتياز الحاجز الذي يجعل منه ومن ابنته غريبين أحدهما عن الآخر. ووصل أخيرا إلى جمع من الخفافيش وضعت نُصْبَ عينيه خُلاصة البعد والجنون في شكلها البدائيّ إلى حدٍّ يجعل تجاهلها مستحيلاً. هذا هو التناقض الصارخ الذي استمتع به، دوار الوحدة، لولب مجنون نازل لاختبار تحطيم الذات. آه نعم مارتن فان فلييت هو تحديدًا الرجل الذي يعرف كيف سيستمتع بكلّ هذا.

تساءلتُ عمّا سيحصل لو أنّ البعد والمسافة المخيفة ظهرا بيننا، هو وأنا. وسينتهيان بالظهور حتمًا. كنت أغمض عينيّ وأنصت إليه متخيّلا أنّنا سائران، مرّة أخرى، عبر الكامارغ، تحدُّنا من اليسار ومن اليمين أشجار الأرز والماء الذي يعكس الغيوم العابرة تحت سماء شاهقة. *أقصى العالم*. كان علينا أن نظلّ هناك لنضحك أمام الجدار الأبيض ونشرب في وضح النهار، وعلى النهاية أن تكون مثل صورة ثابتة في خاتمة شريط سينمائيّ.

«كانت الكمنجات تخرج من حقيبة كبيرة موضوعة قرب أريكة الرجل العجوز، تابع فان فلييت، حقيبة رسمت على أطرافها مثبّتات، تقشَّر دهنها، شيء لا شكّ أنّ ارتفاعه متر وطوله ضعف ذلك على

الأقلّ. وُضِعت الكمنجات داخل تلك الحقيبة وليس في الخزانة أو تحت السرير كما يذاع، مرصوفةً بعناية وتفصلها خطوط ناعمة. الأقفال النحاسيَّة الهائلة أحدثت صريرًا عندما فتح الرجل العجوز الصندوق وأخرج منه الكمان الأوّل.

كان كمانا من صنع بيترو غارنيري، الابن الأكبر لأندريا وعمّ ديل جيزو. أنا أتذكّره لأنّه الفرد الوحيد من العائلة الذي لم تتوفّر معلومات كثيرة عنه، ولأنّني لم أجد الشيء الكثير حوله في الكتاب الذي سبق أن جلبته معي من ميلانو.

«ألف مليون»!. صاح العجوز، وكانت الليرة هي العملة التي المتداولة آنذاك. إنّه سعر مناسبٌ لإحدى كمنجات غارنيري الأقلّ قيمة. ولكن، كلّما تقدّم اللّيل ازداد إدراكي أنّ هذه الكلمات أكثر من الإعلان المحايد عن السّعر بالنسبة إلى الرجل العجوز. هذه الكلمات تعني، بطبيعة الحال، الكثيرَ من المال، ولكن فيما وراء ذلك، فهي تُمثّل عملة ثراء دائريّة ولامعة، العملة الأصليّة للثراء، فكرة المال في حدّ ذاته. *ألف مليون*، هذا هو السعر الأقصى، المبلغ الذي لا يمكن أن يوجد مبلغ أكبر منه. *ألفا مليون، ثلاثة آلاف مليون* الأعداد المضاعفة لن ترفع المبلغ، بل على العكس.

اشترى الكمانَ رجل يرتدي طقمًا لا شكّ أنّه من تصميم أرماني[1]، وهو لا يليق على الإطلاق بذلك المكان البائس. باستثنائي أنا ورجل فرنسيّ، فكلّ الرجال إيطاليّين، على الأقلّ من خلال اللغة

---

(1) جورجيو أرماني مصمّم أزياء إيطاليّ.

التي يتحدّثونها. ومع ذلك، حدث أن أسقط أحدهم وهو يبحث عن شيء مّا بين أوراقه، جوازَ سفره على الأرض، بالقرب من قدمَي الرجل العجوز تحديدًا. كان جوازَ سفر أمريكيًّا. *اخرج! اخرج!* صاح العجوز، *اخرج!* أراد الرجل أن يشرح الأمر، أن يدافع عن نفسه ولكنّ العجوز واصل صراخَه، وفي نهاية الأمر انصرف الرجل. وفي القاعة كان الجوّ باردًا جدًّا رغم أنّنا نسبح في العرق.

أمّا الفتاة الصَّمُوتُ التي دخلت دون أن تحدث صوتًا وجلست إلى طاولة في إحدى الزوايا فأخذت تدوّن كلّ شيء. كانت الكمنجات تمرّ من يد إلى أخرى، وجميع الرجال يملكون مصابيح صغيرة في شكل قلم تمكّنهم من إضاءة جوف الكمان لرؤية البطاقة. إنّهم أشخاص متمرّسون لا يمكن خداعهم بسهولة. لوحظ ذلك في الطريقة التي تبعت بها أيديهم حرف C في الأطراف وحرف f في النافذتين الصوتيّتين وتحسّست القوقعة وتفحّصت الطلاء. وعلى الرغم من ذلك ملأ الحذرُ القاعةَ. كان أغلبهم، قبل اقتراح أيّ سعر، يستندون على كراسيهم ويتأمّلون العجوز بعيون نصف مغمضة ونظرة متفحّصة. وماذا عن شهادات نسبة الكمان إلى صانعه؟ تساءل أحدهم. فردَّ العجوز: «الشهادة هي *أنا*». لن أشتري أبدًا كمانا قبل أن أجرّبه، قال رجل كهل ذو مظهر مميّز، بالإمكان تخيّله في قصر بفينيسيا. «لا أحد مجبرٌ على الشراء»، أردف الرجل العجوز بنبرة جافّة وحاسمة.

كان كمان غارنيري ديل جيزو الكمان التاسع أو العاشر. استعرتُ مصباحًا صغيرًا وقرأت: **جوزيف غارنيري، كريمونا عام 1743†**

IHS هذا ما كتب على الملصق المصفرّ. لا شكّ أنّه أحد أعماله الأخيرة، فقد توفّي سنة 1744، غير بعيد من هنا. هل يمكن عمل ملصقة مزوّرة كهذه ثمّ إلصاقها من الداخل؟ كانت ذات حجم صغير، والشريط المتري على شكل حلقة، انحناء طفيف للجوف واللّوحة، الأطراف المفتوحة على شكل حرف C، زوايا قصيرة، التجويفات على شكل f في النافذتين الصوتيّتين وطلاء رائع. إنّها الخصائص المثاليّة. وثمّة، بالإضافة إلى ذلك، لطخة واضحة حيث الذقانة كما هو الحال في كمان *الكانون* الذي عزف عليه باغانيني في ما مضى.

ألف مليون وألف مليون وألف مليون! نعق الرجل العجوز. ما أحبّ هذه الكلمات إليه وما أكثر استمتاعه بها! بدأتُ في التعاطف معه. مع ذلك، توخّيتُ أنا أيضًا الحذرَ. وأصبحت واثقًا الآن من أنّ ذلك النعيب هو عرض خالص، عرض خاصّ بنا نحن المجانين المساكين الذين أتيناه في منتصف الليل لإرضاء تعطّشنا لامتلاك كمان من صنع غارنيري. من الصعب رؤية الشيء الذي ما يزال عرضًا خالصًا.

ثلاثة مليارات ليرة. وهذا المبلغ يساوي تقريبًا المبلغَ الذي جلبته معي. كمان ديل جيزو الأغلى ثمنًا بلغ سعره في مزاد سوتثوبي بلندن ستّة ملايين جنيه استرليني. وثمن هذا الكمان زهيد مقارنة به. أردتُ الحصول على هذا الكمان. أخذت أفكّر في لحظة جلوسي رفقة لِيَا إلى طاولة المطبخ وأنا أتأمّل *الكانون*. ومن النظرة الأولى أزعجت اللطخة الظاهرة لِيَا فقالت: «الحقّ أنّ هذا جيّد جدًّا، واقعيّ، حيّ، نكاد نستشعر حرارة ذقن نيكولو عليه». كم أرغب في الجلوس

معها من جديد، على طاولة المطبخ. كان يفترض أن تغمض عينيها، فأضع الكمان أمامها على الطاولة ومن ثمّ يمكنها أن تفتح عينيها. تخيّلتها واقفة وقد تحوّل منزلنا إلى كاتدرائيّة شيّدت من ألحان مقدّسة يُصدرها كمان غارنيري. واختفى كلّ الحزن وكلّ الفراغ من عينيها البرّاقتين، ونُسِيت مصاعب السّنوات الأخيرة، وأصبح ليفي ماضيًا بعيدًا. والـ«لا» التي نطقتها ماري أصبحت باطلة ولاغية. صور الحفلات المتناثرة على السرير غدت مجرَّد ظِلال. *يجب أن أحصل على هذا الكمان!* من الآن فصاعدًا لن يوجد إلاّ مستقبل لِيَا فان فليبت، الواعد والسّعيد، مستقبلٌ أكثر إشراقًا من ماضي الآنسة باخ. ولِيَا فان فليبت هذه، ستصعد على المسرح من جديد حاملة كمانها الذي يفوق بكثير كمان آماتي القديم. *كان لا بدّ من الحصول عليه بأيّ ثمن*».

رمقني بنظرة خجولة ومستفهمة: هل فهمت ما يقوله؟ فأومأت إليه بإشارة من رأسي. أنا أفهم، بطبيعة الحال، مارتن. سيكون الشيء نفسه بالنسبة إلى الذين سيستمعون إليك تتحدّث عن هذا الأمر. الآن وأنا أكتب كلّ هذا، شعرت بالدموع تملأ عينيّ، الدموع التي حبستُها في تلك اللحظة. جلستَ من جديد أمام مقود السيّارة التي قادها جان لويس ترانتانيان من الريفيرا إلى باريس. رجل وهب *كلّ شيء، حتما كلّ شيء*، كما كنت تقول، وجُبتَ كامل المدينة مرّة أخرى باحثًا عن عطر ديور، عطر سيسيل المفضل.

لِمَ لم تتّصل بي؟

«افتتحتُ المزايدة. وتلك هي المرّة الأولى التي أفعل فيها هذا. إلى حدٍّ تلك اللحظة رضيت بالبقاء جالسًا في صمت بين الآخرين،

وفجأة بدا لي أنّني أحلّق، وأنا جالس على كرسيّي المتعب، في فضاء خياليّ، في فضاء شبيه بعالم شاغال، أمّا الآن فقد دخلت إلى القاعة الحقيقيّة حيث الجوّ حارّ والهواء قارس والرائحة باعثة على الغثيان.

أمسكتُ بالكمان بين يديّ وقتًا طويلاً حتّى نفد صبر الآخرين. وعندما وقع نظري على الرجل العجوز قلت في نفسي: لقد أدرك قيمة هذا الكمان عندي. هل ابتسامته تلك تحاكي العينين الصافيتين، والوجه النحيل؟ لم أفهم شيئا ولكنّ تلك التعابير جعلتني أستمرّ في المزايدة مرارًا وتكرارًا. كان المبلغ في غضون ذلك مرتفعًا بالقياس إلى ما تحتويه حقيبتي ولكنّ وجه الرجل العجوز بعث فيَّ طاقة يائسة. سيمنحني مهلة لإحداث الفرق، قلت في نفسي بغموض، وأنا أتجاوز حدود الخمسة مليارات، خمسة مليارات ليرة، أي حوالي أربعة ملايين من الفرنكات السويسريّة. الآن أصبح أيّ مبلغ آخر ممكنًا جدًّا. وصلت إلى فضاء آخر وهميّ، فضاء المال الذي نلهو فيه، فضاء خفيف مثل ريشة، فضاء مثّل كلَّ شيء ولا شيء في الوقت نفسه. كان شبح المبالغ الباهظة موسومًا على الوجوه القلقة. أمّا أنا فقد ازداد ارتياحي، وأنا مستند إلى كرسيّي مستمتعا بفكرة أنّني سأقذفُ في القريب بعيدًا جدًّا حيث تنحسر الأشياء. في النهاية بقيت الوحيد الذي يزايد. ستّة مليارات ليرة، أربعة ملايين ونصف من الفرنكات. ألقت الفتاة نظرة على الحلقة ودوّنت المبلغ.

حدّق فيّ الرجل العجوز، وقد فقدت نظرته حدَّتها بالقياس إلى ما بدت عليه في الليل. وخلَت نظرته من البسمة أيضًا. ولكن لمع شيء مّا في عينيه يبعث على اللطف، لطف من الصعب تأويله، وفجأةً

ألقت عيناه الصافيتان على الحضور نظرة عاديّة جدًّا. اختفى تعبير الجنون منهما، حتّى اعتقدت أنّ النظرة المجنونة شبيهة بنعيق الجمهور. قد يكون الرجل العجوز متهوّرًا، الصندوق المليء بالكمنجات يثبت ذلك، ولكنّه ليس مجنونًا. وهو يسخر منّا جميعًا.

«*الكمنجات ليست للبيع*»، قال الرجل العجوز بصوت منخفض ولكن بوضوح شديد. بعد ذلك مطّ شفتيه في سخرية ماكرة ومهينة. لا أدري، ولكنّ هذا التصرّف لم يفاجئني مطلقًا. بدا لي الرجل العجوز أشبه أكثر فأكثر بلاعب أو مهرّج أو مشعوذ. ولكنّ الآخرين بدَوا كمن تلقّى صفعة. لم ينبس أحد منهم بكلمة. نظرتُ إلى الفتاة الجالسة خلف الطاولة: هل دُرِّبت ووُظِّفت لتجعل عرض العجوز يكتسب طابع الطرافة؟

الرجل الذي يرتدي طقمًا من تصميم دار أرماني هو أوّل من عاد إلى الحياة وقد ابيضَّ لونه من شدَّة الغضب. *إنّها لوقاحة!*» قال هامسًا. ثمّ قلب كرسيَّه وهو يقف مندفعًا إلى الخارج. نهض اثنان آخران ظلاّ واقفين برهةً ونظرا إلى الرجل العجوز كما لو أنّ بهما رغبة في ليِّ عنقه. أمّا الرجل الذي سبق أن تخيّلته في قصر بمدينة البندقيّة فظلّ جالسًا وهو يصارع انفعالاته. لا شكّ أنّه غاضب كما توحي بذلك هيئته لكن من الواضح أيضًا أنّه يكابد ليتقبّل الحدث بمرح. في نهاية الأمر غادر هو أيضًا، وهو الوحيد الذي استطاع أن ينتزع منه عبارة «*ليلة سعيدة*».

لم أتحرَّك من مكاني ولا أعرف السبب وراء تصرّفي ذاك. ربّما بسبب الطريقة التي نظر بها إليّ. فقد تصرّف كما لو أنّني لست

موجودًا. ووقف بحركاتٍ رشيقة على نحو عجيب وفتح النوافذ. غمر هواء اللّيل العذب الغرفة، ولاح من فوق الأسطح أوّل بصيص نور. كنت أجهل ما ينبغي عليَّ قوله أو فعله، أجهل حتّى ما أرغب فيه حقًّا. قرّرت الذهاب فورًا عندما وقف العجوز أمامي فجأةً وأعطاني سيجارة قائلاً: «*هل تدخّن؟*» واختفى كلّ أثر للنعيب في صوته، وحلّت مكانه حميميَّة صداها شبيه بوعدٍ غامض.

إنّه، ببساطة، شخصٌ طريفٌ، وهو يستمتع بأنّه كذلك، رجل فريد يملك جبلاً من المال. شعرتُ أنّ هذه هي المتعة الوحيدة في حياته. ولا يعود هذا إلى أنّه كشف لي شيئًا من ذاته. أمّا فيما يخصّ طرح أسئلة عليه، فذلك أمر ممنوع بسبب الضغط الذي يحيط به، الضغط الذي بإمكانه أن يجعل منه شخصًا خطيرًا إن لم نعامله كما ينبغي. سألني عن السّبب وراء رغبتي في امتلاك كمان ديل جيزو بأيّ ثمن.

ما الذي يجب عليَّ فعله؟ إمّا أن أحدّثه عن لِيَا أو أغادر. وهكذا، في ساعات الصّباح الأولى، وساعة الجرس تدقّ، حدّثتُ عجوزًا إيطاليًّا متهوّرًا وثريًّا، يعيش في حفرة بائسة في كريمونا، وإلى جانبه صندوق مليء بالكمنجات، عن مأساة ابنتي بأكملها».

في تلك الفترة وأنا في غرفة الفندق، لم أنتبه إلى هذا الأمر، غير أنّي فطنت الآن إلى أنّني شعرت بغيرة من العجوز وبخيبة أمل لأنّني لست الوحيد الذي حدّثه فان فلييت عن لِيَا. لكنّني سعيد لأنّ السيّد بوبيو لم يتمكّن من سماع ما حدث بعد ذلك.

أشار العجوز إلى الطاولة التي جلست إليها الفتاة. عندئذ فقط

لاحظت أنّ الطاولة هي أيضًا عبارة عن رقعة شطرنج. «هل تلعب؟» وافقت بإيماءة من رأسي. «لنعقد صفقة»، قال. جولة، جولة واحدة فقط. إن ربحت سيكون كمان ديل جيزو من نصيبك دون مقابل. وإن خسرت ستعطيني *ألف مليون*. ثمّ أخرج البيادق ووضعها على الطاولة.

ستكون هذه أهمّ جولة ألعبها.

لا رغبة لي في محاولة وصف ما شعرتُ به. باستطاعتي أن أرجع المال كلّه إلى ثون وأحوّل أموالاً أخرى وأمحو كلمة العبور، كأنّ شيئًا لم يكن. وعلى الرغم من كلّ شيء، ستفتح لِيَا عينيها وهي جالسة على طاولة المطبخ وستمسك بالكمان، وتحوّل منزلنا إلى كاتدرائيّة غارنيري. كان هذا جنونًا يا إلهي، كان جنونًا إلى درجةٍ جعلتني أذهب إلى الحمّام كلّ دقيقتين حتّى وإن لم أكن في حاجة إلى ذلك. أمّا العجوز فقد ظلّ كامل الوقت جامدًا تقريبًا أمام رقعة الشطرنج وعيناه نصف مغمضتين.

افتتح الجولة بدفاع صقلي. لعبنا تسع جولات أو عشر حتّى شعر بالإرهاق واضطرّ إلى الذهاب للنوم وضربنا موعدًا للمساء. وهكذا بدأت ثلاثة أيّام مجنونة تمامًا، أيّام انتشاء بالشطرنج، أيّام حبور وقلق، أيّام عشتها كلّها من أجل السّهرة المقبلة التي ستتواصل فيها الجولة. اقتنيت رقعةَ شطرنج وأحجارًا، غيّرت الفندق وانتقلت إلى آخر أكثر هدوءًا. حصلت على كتيّب حول لعبة الشطرنج وتصفّحت كلّ ما من شأنه أن يساعدني على الفوز في هذه الجولة المجنونة التي لعبها الرجل العجوز بلا انقطاع، بنعومة وتبصُّر خارقين للعادة، كأنّ شيئًا

لم يكن. تناولت بعد الليلة الثانية قرصًا منوّمًا ونمت اثنتيْ عشرة ساعة استطعت مواصلة اللعب بعدها.

ذهبت إلى الكاتدرائيّة وقد ألمّ بي جوع مفاجئ للموسيقى المقدَّسة. تراءت لي ماري وهي ترسم صليبًا على جبهة لِيَا. وعندما أغمض عيني وأستشعر سعة الفضاء من خلال عذوبتها اللاّذعة ورائحة البخور يُخيَّل إليّ أنّني أقف وسط الكاتدرائيّة التي شيَّدتها لِيَا كلّما عزفت فيها ألحانًا صافية ودافئة، كاتدرائيّة تقيها من الحياة، كاتدرائيّة هي الحياة في الوقت نفسه.

كان بالإمكان شراء اسطوانة سُجِّلت عليها موسيقى باخ، بعزف أشهر كمنجات كريمونا حتّى نتمكّن من مقارنتها. باستلقائي على سريري أصغيت إلى الألحان المختلفة: غارنيري، أماتي، ستراديفاري. يلزمنا وقت قبل أن نتمكّن من تمييز بعضها من بعض. كنت أعرف، بطبيعة الحال، أنّ جميع كمنجات غارنيري لا تصدر اللّحن نفسه ولا حتّى كلّ كمنجات ديل جيزو. وعلى الرغم من ذلك، سافرت حتّى مطبخنا مع اللّحن المنبعث من كمان غارنيري على الاسطوانة مساعدًا لِيَا في بناء كاتدرائيّتها. كان للألحان لون بنّيّ فاتح. كلّ هذا بدا لي جليًّا، وإن عجزت عن تفسيره.

كنّا في نهاية اللّيلة الثانية عندما شعرت بأنّني سأهزم. وعندما انسحبت لم يكن انسحابي، بالرغم من ذلك، بديهيًّا. ولكنّ لهجمات الرجل العجوز شيئًا مّا قاطعًا، وليس أمامي إلاّ الانحناء أمامه، عاجزًا عن إحداث ثغرة في أسلوبه المباشر في الهجوم. وفي غرفتي بالفندق حلَّلت الجولة مدّةَ ساعات وأعدت لعبها عشرات المرّات

لاحقًا أيضًا، وبإمكاني أن أردّدها مثل ترنيمة للأطفال ليست راسخة في الأذهان فحسب بل وفي كامل الجسد. لم أرتكب أخطاء فظيعة ولكنّي، في مقابل ذلك، لا أملك الإلهام القادر على تغيير مجرى المباراة. لعبنا بأحجار من اليشب، هذا هو الترف الوحيد الجليّ. وكان في هذه الأحجار شيء مّا مزعج. فاليشب الأخضر العادي يمتزج فيها بالأحمر النادر: عروق حمراء تعبر أجساد الأحجار الخضراء. وهو ما شوّش النظر والأفكار أيضًا إلى حدٍّ مّا. شعرت طوال الوقت بأنّ ما ينقصني هو التركيز الأقصى الذي أبلغه عادةً أمام رقعة الشطرنج. لكنّ السّبب، في الواقع، مختلف ولا شكّ، لأنّني عجزت أيضًا عن إيجاد الحلّ أمام رقعة الشطرنج في الفندق. في لحظة مّا استهلكت جميع سجائري الباريسيّة، وكلّ السجائر المتبقّية التي جرّبتها قلبت رأسي. وعلى الرغم من ذلك فقد بدَوت في حالة سيّئة حالما عدت إلى منزلي وسيجارة باريسيّة بين شفتي. فالعجوز، ببساطة، أقوى منّي.

حوالي السّاعة الرابعة من آخر ليلة حدّقت فيه فقرأ الاستسلام في نظرتي. *ها هو*، قال مبتسما بوهن. كان هو أيضًا مرهقًا. ثمّ ذهب ليأتي بكأسين وقدّم لنا معًا شراب القرابا. والتقت نظراتنا.

لكم فكّرت أنّني قد أستطيع دفعه إلى تغيير رأيه خلال تلك الدقائق وأحمله على منحي الكمان! ثلاث ليال أمام رقعة الشطرنج برفقة شخص لا أعرفه، دُهور من الانتظار قبل الهجمة الموالية، حدسُ أفكار الآخر، مخطّطاتِه وخدعِه، تنبّئِه بما نفكّر فيه، الآخر كهدف للأمل والخوف، كلّ هذا خلق حميميّة كبيرة يمكن أن تثير هذا التغيير. كلمة أخرى منّي، ترنيمة أخرى وسيجري كلّ شيء على

نحو مختلف. شيء مَا في حكاية لِيَا أثّر في الرجل العجوز. وعندما أفكّر فيه فكأنّني أفكّر في رجل أودعت داخله مشاعر عديدة، رواسب عديدة على شكل طبقات سميكة. وقد تحرّك القليل من هذا العمق المثار في شكل دوّامة، ربّما بسبب الفتاة المعبودة التي نسبتها إليه الإشاعات، ربّما كان باستطاعتي، هكذا، ودون سبب أن أدفعه إلى إعطائي الكمان، ليس من أجلي أنا ولكن إلى حدّ مّا من أجل لِيَا. غرق في صمت عميق عندما حدّثته عن السهرة التي عادت خلالها من نوشاتيل دون كمان آماتي.

ولكن، اللعنة! لقد أفسدت كلّ شيء في النهاية. أفسدت كلّ شيء. *يجب أن تنفتح أكثر مارتن، لا يمكنك على الإطلاق انتظار أن يركض الناس خلفك ليكشفوا* أحاسيسك. *معي أنا أيضًا يجب أن تنفتح أكثر وإلّا فإنّ نهاية علاقتنا ستكون سيّئة*. هذا ما ردّدته سيسيل في الغالب. لطالما ردّدت هذا الكلام قبل وفاتها. وخلال زيارتي الأخيرة لها، وفي طريقي إلى غرفتها عبر رواق المستشفى الطويل، اتخذت القرار الحاسم لأخبرها بمدى ما تعنيه لي.

ولكن بعد ذلك أسرَّت لي بهذه الكلمات: «عِدني أنّه بالنسبة إلى لِيَا...» «الآن لم أعد قادرًا على فعل شيء. لم أعد، ببساطة، قادرًا على فعل أيّ شيء. اللعنة! أين سأقدر على تعلّم ذلك إذن؟ كانت والدتي من مقاطعة تيسينو، وقد انتقلت إليّ عدوى غضبها الشديد، ولكن لا أحد علّمني لغة العواطف والقدرة على التعبير عمّا نشعر به».

رمقني بنظرة متفحّصة. «ولا لي أنا أيضًا»، قلت. بعد ذلك

سألته لماذا لم يحدِّث الرجل العجوز عن اختلاس الأموال، فلربّما أثار ذلك إعجابه.

«أجل، لقد تساءلت عن هذا أيضًا خلال عودتي. في الواقع، هو الرجل القادر حقًّا على فهم ذلك. وإن أنا لم أقل شيئًا فذلك لأنّ تلك المسألة ثقُلت عليّ، بالتّأكيد، مثل الرصاص وطاردتني حتّى في نومي. كانت روث أداماك تسألني في الحلم عن كلمة العبور دون توقّف، ويظهر جليًّا على وجهها أنّها تعرف كلّ شيء. لهذا فكّرت أن أستقلّ القطار إلى ميلانو مرّة أخرى وأعود للحديث إليه ثانية. ولكن يجب عليّ ألاّ أفكّر في التوسّل إليه حتّى يعيد إليّ المال. فحصوله على المال الآن يجعل الطلب مستحيلاً».

تناول فان فلييت لقمة من الطعام الذي طلبناه إلى الغرفة. وبدا جليًّا أنّه يتأرجح بين الجوع والاشمئزاز.

«قصّة المال هذه يجب أن يكتبها أحدٌ يوما مّا، أن يروي كلّ شيء: الفقر، الثراء، نشوة الذهب، الخسارة، الاحتيال، العار، الاحتقار، قواعد غير مكتوبة. أن يكتب كلّ شيء، بأسلوب مباشر، دون تمويه، أن يكتب قصّة المال اللّعينة كاملة، ذلك السّمّ والطريقة التي يلتهم بها المشاعر كأنّه أوكسيد».

لقد عدَّ النقود على طاولة السيّد بوبيو، ألف مليون. إنّها صفقة جيّدة، بمعنى الكلمة الدقيق. كومة من المال انتشرت على الطاولة، لم يسمح العجوز بأن تغوص فيها يدٌ نهمة. بل ترك النقود في مكانها كأنّه يريد أن يقول: ليس مُهمًّا أن يحصل على هذا المال. فهو لا يحتاج إليه.

«تلك هي اللحظة الأخيرة، قال فان فلييت، وقد تركتُها تمرّ».

عندما غيّر القطار في ميلانو استبدّت به فكرة أنّ بإمكان شخص مّا أن يصدم الكمان ويكسره. فأمسك العلبة بقلق تحت ذراعه وضمّها إليه. كانت علبة بلا قيمة تليق كثيرًا بالعجوز الذي قرأ في وجه فان فلييت أنّه يعتبره علبة بائسة. *اللحن*، قال ساخرًا. اللحن هو المهمّ.

لم يُبدِ المسافرون الآخرون اهتمامًا خاصًّا لا بالكمان ولا بالحقيبة. وعلى الرغم من ذلك ابتلّ قميص فان فلييت عرقًا عندما وصل إلى ثون. أودع في حسابه المال المتبقّي ثمّ ذهب إلى بيرن واتجه مباشرة إلى كرومفولز ليغيّر أوتار الكمان القديمة بأخرى جديدة.

ألقت كاتارينا ولتر على العلبة البائسة نظرة دهشة، ثمّ فتحتها.

«لا أظنّها أدركت على الفور أنّها أمام كمان من صنع غارنيري. ولكن أن تكون آلة نفيسة فهذا أمر جليّ بالنسبة إليها. نظرت إليّ دون أن تقول شيئا، ثمّ ذهبت إلى المحلّ الخلفيّ. وعندما عادت علاَ وجهَها تعبير غريب. «إنّه كمان ديل جيزو قالت، كمان *غارنيري ديل* جيزو الأصليّ. ضاقت عيناها قليلاً. ثمّ أضافت: «لا شكّ أنّه كلّفك ثروة».

أشرت إليها موافقًا وحدّقتُ في الأرض. هذه ليست روث أداماك التي رأيتها في حلمي، لن تستطيع معرفة أمر الاختلاس. ومع ذلك، كانت كاتارينا ولتر، في حلمي تلك الليلة، على علم بهذا الأمر. كلماتها أيضا تشي بشيء مّا قضائيّ، منذرٍ بالخطر وهي تقول: ما كان ينبغي عليك القيام بهذا بأيّة حال من الأحوال، بأيّة حال من

الأحوال». أمّا في الواقع، فقد تحدّثت بشكل مختلف: لكي أنسيها كمان أماتي. أنا أفهم... مع ذلك... أنا لا أعرف... ألا تعتقد أنّ هذا يمكن أن... لنقل: يفوق احتمالها؟ إنّها ستفكّر بعد ذلك في وجوب العودة حتمًا إلى هذا المدار، هذا المدار المجنون؟ لا أريد التدخّل في هذا الأمر، ولكن ألا تعتقد أنّ عليها أوّلاً العودة إلى ذاتها؟ كم من الوقت مرَّ على شرائك كمانَها الأوّل، ذاك الصغير؟ اثنتي عشرة سنة أو ثلاث عشرة؟ لطالما وجدت في تصرّفك ذاك تسرُّعًا، ثمّ إنّك حدّثتني عن تلك الأزمة... ولكن سنغيّر لك الأوتار هذا المساء، بطبيعة الحال، سيكون ذلك شرفًا لزميلي، إنّه متحمّس جدًّا».

لماذا لم أصغِ إليها؟!»

ذهب فان فلييت إلى مكتبه وأودع ما تبقّى من مال في حساب مشاريع البحث. في ردهة الاستقبال مرَّت روث آداماك من أمامه دون أن تقول كلمة. تمدّد على الكنبة واستيقظ بعد وقت قصير وقلبُه يخفق. للمرّة الأولى شعر أنّ قلبه يمكن أن يخونه يوما مّا».

أتته كاتارينا وولتر بالكمان بعد أن وضعته في علبة جديدة وأنيقة. إنّها هديّة من الدار، قالت. واعتذرت على التدخّل في المسألة. وما لبث أن لحق بها زميلها. لقد عزف على الكمان. «هذا اللحن! قال، فقط هذا اللحن!».

عاد فان فلييت إلى منزله. وقبل أن يصعد جلس في مقهى الركن. بعد جرعتين أو ثلاث ترك قهوته. كان قلبه يخفق بشدّة. فركّز تفكيره على تنفّسه حتّى هدأ. ثمّ صعد ودخل الشقّة حاملاً إحدى

الكمنجات الأغلى ثمنًا في العالم، الكمان الذي سيعيد، ولا شكّ، كلّ شيء كما كان.

الفصل الخامس والعشرون

نامت لِيَا جيّدا. نامت ساعاتٍ طويلة جدًا. وفي مقابل ذلك أخذت تذرع الشقّة ليلاً وتزجر الكلب. في تلك اللحظة رمقت والدها بنظرة تائهة، نظرةٍ ثملة بالنعاس، وهاربة. «لقد مكثت هنا وقتًا طويلاً... لم أكن أعرف...»، قالت بلسان ثقيل. ولاحقًا عثر الأب على قوارير خمر فارغة في المطبخ.

«أعدت التفكير في تلك الليالي التي أظلّ خلالها جالسًا أمام الحاسوب إلى أن أسمع نفَس لِيَا الهادئ»، قال فان فلييت. «ما أسعد تلك الفترة بالقياس إلى اليوم. مرَّ على ذلك أكثر من عشر سنوات. كنت هناك، أرى أمامي ابنتي الناعسة والمهملة نسبيًّا، متمنيًا من كلّ جوارحي أن يقدر الزمن على العودة إلى الوراء. منذ وقت طويل، أثناء قيامي الليل كلّه، وأنا أساوم الشيطان على تحقيق هذه الأمنية الوحيدة: أن أقدر على الرجوع مع لِيَا إلى اللحظة التي سبقت يوم إصغائنا إلى عزف ليولا دي كولون في المحطّة. كنت سأفرِّط في روحي مقابل ذلك. ظللت أتمثّل هذا السفر في الزمن بعنف شديد حتّى إنّني نجحتُ أحيانا في تصديقه. فكنت أعبر في نصف إغفاءة لحظات انعتاق وسعادة، راغبًا دومًا في المزيد من هذا

السفر. هكذا أصبحت أسيرَ تلك الأحلام التي أسافر فيها عبر الزمن».

أمّا الآن فيجدر بي تحقيق الحلم الآخر: أن تمسك لِيَا بكمان غارنيري وتقف لتملأ المنزل ألحانًا مقدَّسة. استيقظت وألقت نظرة متفحِّصة على علبة الكمان. أعدّ فان فلييت القهوة بينما كانت ترتدي ملابسها. بعد ذلك اتّخذت مكانها على طاولة المطبخ استجابة لأمره وعيناها مغمضتان، فوضع الكمان أمامها وجلس قبالتها وأمرها بالعزف.

لم تنبس بكلمة واحدة لفترة طويلة، تابعت في صمت حوافَّ الآلة بأطراف أصابعها. عندما مرَّرت يدها على اللطخة الظاهرة على الذقانة، تمنّى فان فلييت إشارة اعتراف بالجميل، ملاحظة حول *الكانون*. لكنّ وجه لِيَا ظلّ جامدًا ونظرتها حزينة. مرَّ من خلفها، وأضاء الكمانَ من الداخل بمصباح جيبٍ. فوضعت الآلة بشكل مائل وقرأت الملصق. تسارع نفَسها ثمّ تناولت المصباح من يده وصوَّبت بنفسها شعاع النور إلى الداخل. كلّما طال هذا الأمر كبُر أمل فان فلييت: حروف الاسم الشهير، حروف الاسم المقدّس، ستغوص عميقًا داخلها، ومن ثمّ ستنفجر من شدّة الفرح وهول المفاجأة. لكنّها ظلّت على تلك الحالة وقتًا طويلاً جدًّا. وفجأة انبجس في داخله شعور بالخوف، الخوف نفسه الذي انتابه حين سمعها تنادي نيكي بنيكولو عبر الباب الموارب. هل تاهت داخل نفسها ليأسرها الاسم السحريّ؟

لم يعد في وسع فان فلييت أن يحتمل الصمت، فذهب إلى غرفته

وأغلق الباب. جريمة وسفر مجنون من أجل لا شيء. اجتاحه التعب فنام مختنقًا بفعل الخيبة واليأس.

عندما بدأت لِيَا العزفَ في منتصف الليل استيقظ على الفور وغادر الغرفة. لقد دفعت بجميع الأثاث إلى جدار قاعة الموسيقى ووقفت وسط الغرفة مرتديةً أحدَ فساتينها السوداء الخاصّة بالحفلات، وقد سرَّحت شعرها وتجمَّلت. كانت تعزف مقطوعة لباخ على سلَّم مي كبير. لا شكّ أنّ فان فلييت صعقَ برهة، لشعورٍ بالتَّعاسة انتابه لأنّها تعزف المقطع ذاته الذي عزفته ليولا دي كولون في ما مضى. هذا ليس مؤشّرًا جيّدًا، خمَّن في غموض، ليس جيّدا أن تتمثّل هذه البداية الجديدة باستعادة الذكرى، بالعودة إلى تلك الموسيقى، موسيقى الصحو. شيء مّا عاديّ لا شخصيّ وسَمها. ولِيَا ليست إلاّ مقلِّدة لها عوض أن تخوض هي ذاتها اختيار ألحان جديدة. ولكنّ الألحان الدافئة والذهبيّة التي بدا أنّ قوَّتها وصفاءها يهدِّان الجدران أخضعته لسحرها في آخر الأمر. وأكثر من ذلك، فقد أعجبه التركيز الذي قرأه على وجه لِيَا. بعد مرور شهور خسر خلالها هذا الوجهُ كلَّ مرونته وشاخ قبل الأوان، ها هو الآن يعود من جديد، إنّه وجه لِيَا فان فلييت، عازفة الكمان المتألقّة التي ملأت ألحانُها قاعات الحفلات.

ومع ذلك، فثمّة أيضًا شيء مّا أثار حيرته عندما جلس على كرسيّ في المدخل ونظر إليها عبر الباب المفتوح.

«هل هي في حاجة إلى التبرُّج كما لو أنّها في قاعة احتفال؟ لقد قلَّمت أظفارها! أيُّ ارتياح يبعثه هذا المشهد في النفس! عازفة كمان كانت تطيل أظفارها بشكل مبالغ فيه إلى درجة أصبحت معها

عاجزة عن العزف. هذا مرعب، إنّها رسالة تحمل يأسًا مطلقًا. ولكن الفستان، والمسحوق وأحمر الشفاه، كلّ هذا في منتصف الليل؟

قضت أشهرًا عديدة وهي منطوية على نفسها سرًّا، وفي الغالب علنًا. وها هي تقف الآن من جديد وتعيد وصل العلاقة بينها وبين طبقات روحها التي ساعدتها في السابق على الصعود إلى العالم. في تلك الليلة، عندما تأمّلتُها وأنصتُّ إلى عزفها، وقد أثارت السمة الشبحيّة للمشهد الليليّ قلقي، تشكّلت في داخلي هذه الفكرة: روح ابنتي متكوّنة من طبقات، وهي تعيش على مسارح مختلفة حيث باستطاعتها أن تدخل وتخرج بحرّيّة، وها هي الآن تعود إلى خشبة المسرح الذي ظلّ، وقتًا طويلاً، شاغرًا ومعتمًا، شبيهًا نسبيًّا برصيف مهجور في محطّة خالية.

تأمّلت لعبة تعبيراتها التي لم تزدد رشاقة مقارنة بذي قبل، تعبيرات حملت في تردّداتها المناسباتيّة آثار الجمود التي سبقتها. عندئذ، خطرت ببالي فكرة أخرى ستعاودني مرارًا في المستقبل، فكرة ستثير فيَّ الفزع ذاته في كلّ مرّة: لم تكن لِيَا تملك السيطرة على تلك الطبقات وليست هي التي أخرجت تلك المسرحيّة. فأن ترتقي خشبة مسرح داخليّة أو تغادرها هو حدث خالص شبيه بتجمُّع جيولوجيّ لا يقف خلفه، هو أيضًا، أيّ ممثل.

قد تعتقد مثلي أنّ ذلك هو حال الجميع. وهذا صحيح. ولكنّي وجدت في المأساة الداخليّة التي دارت آنذاك في أعماق لِيَا انقطاعات وتحويرات وعرة، متسارعة، تعكس ضوءًا باهرًا ومتفرّدًا يوحي بأنّ الروح هي مكان الأحداث أكثر من كونها مكان الأفعال...».

صمت فان فلييت لحظة وقال، بعد ذلك، شيئًا رسخ في ذاكرتي بصفة خاصّة لأنّه يعبّر عن فكرة جريئة تشكّل جزءًا من كينونته: «تجربة التماسك الداخليّ نتجت عن سرعة التغيير وانسيابيّته، عن البراعة التي نهذّب بها كلّ الانقطاعات ونمسحها في الحال. وهذه البراعة من الأهمّيّة بمكان حتّى إنّها تجهل كلّ شيء عن نفسها».

ها أنا أنظر إلى الصورة المستندة إلى اللمبة، إلى خيال الرجل الذي يشرب في وضح النهار، فتى الشوارع الصفيق، التلميذ الفوضويّ ولاعب الشطرنج الماكر. تحوّلوا كلّهم إلى رجل يعرف مدى هشاشة حياة الروح، وكم نحن في حاجة إلى وفاق وأوهام حتّى نتدبّر أمرنا بطريقة أو بأخرى. تحوّلوا إلى رجل شعر، بفضل هذا اليقين، بتضامن كبير مع كلّ الآخرين، على الرغم من أنّني لم أسمعه ينطق هذه الكلمة قطّ، كلمة رفضها دون شك. أجل أعتقد أنّه رفضها. وقد تبدو له هذه الكلمة معبّرة عن كلّ ما شعر بأنّه بدأ يولَدُ في داخله خلال تلك الليلة، عن الشيء الذي سيربطه بابنته ويسحر في تلك الليلة كامل المنزل بألحان غارنيري، بعيدًا عن أيّ عاطفة وكلّ شعور بالإعجاب.

في البداية، كان الرجل الذي يسكن في الطابق الأعلى أوّلَ شخص ضغط على الجرس بغضب. لقد انتقل إلى شقّته تلك منذ وقت قصير ولا يعرف شيئًا عن لِيَا. استقبله فان فلييت بحفاوة ورجاه أن يدخل داعيًا إيّاه إلى الجلوس على كرسيّ يمكّنه من رؤية لِيَا. جلس الرجل وهو يرتدي بيجاما وغرق في الصمت. عبر الباب المفتوح، بدأت الموسيقى تتدفّق في جميع أرجاء السلّم، وعندما نظر فان فلييت رأى المستأجرين الآخرين الذين يعرفون لِيَا جالسين على

العتبات، وفي كلّ مرّة يضع بعضهم إصبعا على شفتيه كلّما أحدث أحدهم ضجيجًا. غمر التصفيق السلّم. *مرّة أخرى!* صاح أحدهم.

تردّد فان فلييت، هل يملكون الحقّ في إزعاج لِيَا بقاعة احتفالها الوهميّة؟ أليس الصرح الذي شيّد في أعماقها في غاية الهشاشة؟ لكنّ لِيَا سمعت التصفيق فخرجت بنفسها إلى السلّم بفستانها المهفهف. انحنت لتحيّة الجميع واستأنفت العزف ولم تتوقّف مطلقًا قبل انقضاء ساعة. في الأثناء، عادت ملامحها أكثر حيويّة وانسيابيّة كما في السابق، وقد رأى الجميع وسمعوا أنّها بدأت تعتاد من دقيقة إلى أخرى على الآلة. أصبحت تختار المقاطع بدرجة صعوبة متصاعدة، لقد استعادت براعتها القديمة. ولم يبرح الناس المكان مع أنّهم بدؤوا يرتجفون من البرد.

«هذا أوّل حفل بعد الانهيار، قال فان فلييت، بمعنى آخر هذا هو الحفل الأجمل. لقد خرجت ابنتي من الظلّ وظهرت في وضح الضوء».

عودة الآنسة باخ. هكذا جاءت عناوين الصحف. وأصبح الوكلاء يتنافسون عليها. وكانت لِيَا تنهار تحت وطأة العروض. هل هذا ما أراده فان فلييت تحديدًا؟

لقد فكّر في ذلك، لكنّه أدرك، بسرعة، أنّه لم يستَعِد ابنته كما تمنّى في ما مضى. كانت لِيَا تحقّق بعض النجاحات، ولكن ليست هذه هي المشكلة. ومع ذلك، لم يبدُ أنّها استعادت وعيها. خزف، هذه هي الكلمة التي طالما استعملها كلّما تحدّث عن تلك الفترة. هي وأفعالها بدت له كأنّها صنعت من الخزف الشفّاف والمزخرف،

الفخّار النفيس والشديد الهشاشة. أخذ يغذّي الأمل بأنّ وراء ذلك نواةً صلبة ستستمرّ لو حدث أن ينكسر الرخام. ولكن سرعان ما ترك الأمل مكانه للخوف من انفتاح كَسر مُحتمل على فراغ، فراغٍ ستختفي فيه ابنته إلى لأبد.

بشرة لِيَا التي كانت دومًا شديدة البياض ازدادت شحوبًا، وأصبحت شفّافة تقريبًا. وعلى الصدغ بدأ يظهر، في الكثير من الأحيان، عِرق مزرَقٌّ ينبض بغير انتظام وعلى نحو غريب، رجفة حماسيّة بادرة، حدث يضيع فيه كلّ نظام. ولئن حصدت تلك الأنغام الجديدة أمواجًا من الثناء فقد حملت، حسب الأب، شيئًا مّا عصيًّا على العزف. وفي نهاية الأمر اكتشف الكسر.

«الآن، ولأنّ الموسيقى لم تعد ترضّع حبّها لماري وليفي، وبما أنّ هذا الحبّ لم يعد يحميها، ولم يعد يثير فيها الحماس، فقد بات لها نغم لا شخصيّ، بلوريّ وبارد. أحيانًا فكّرتُ أنّ لهذه الموسيقى نغمًا شبيهًا بوقوف لِيَا أمام جدار من الأردواز الصلب والبارد، جدارٍ واضح وجافّ. حتّى جوزيف غارنيري لن يستطيع فعل أيّ شيء إزاءه. فذلك ليس رجع كمان، بل نغمًا ينبع منها هي.

لكن حدثت استثناءات، أمسيات عاد فيها لكلّ شيء نبرة خاصّة كما في الماضي، نبرة نابعة من الداخل. ولكنّها مشوبة بشيء مّا آخر عذّب فان فلييت. خيّل إليه أنّ لِيَا، وهي تعزف، تفكّر في كمان من صنع آماتي، كمان ليفي، كما لو أنّ كمان غارنيري تحوّل إلى نقطة يتبلور فيها الوهم الذي يجعله يعتقد أنّ كلّ شيء انتهى مع ليفي. الكمان الجديد الذي يفترض فيه أن يصبح تعويضًا سيحرّرها من

الماضي هو بالأحرى مركز جاذبيّة جديد للأوهام القديمة. وهذا ما فكّر فيه خلال لحظات مماثلة.

وخلافًا لما وقع الاتفاق عليه، فقد كشف وكيل ليَا للصحافة عن نوع الكمان. واطّلع شركاء فان فليبت على هذا الخبر. وأصبح بالإمكان قراءة الحيرة في نظراتهم: من أين حصل على المال؟ عبر باب مكتب روث أداماك المفتوح، لاحظ أنّ روث تتفحّص صفحات الانترنت نفسها التي عثر فيها على معلومات تخصّ عائلة غارنيري. وفي الليل عمد إلى تغيير كلمة العبور من DELGESU إلى USEGLED ولاحقًا إلى USEDGE.

كان يتوجّس من ذلك، إنّها قنبلة موقوتة. سيكون قادرًا على سدّ ثغرات الميزانيّة خلال بضعة أشهر أو ربّما سنة، لا أكثر. فكّر في ابتكار فاتورات لمؤسّسة افتراضيّة فبدأ بلعب اليانصيب. واستبدّ به ضرب من فوبيا البنوك جعله فريسة لجمود عقليّ وهو يسدّد الثمن عبر الانترنت، ممّا دفعه إلى ارتكاب أخطاء في العمليّات الأكثر سهولة. وغالبا مَا لاحقه اسم ثون في أحلامه.

لو جرت الأمور بشكل في غاية السوء، قال في نفسه، فستكون أمامه دومًا فرصة لبيع الكمان. في الواقع، من غير المعقول أن يأخذه ثانية من ليَا. وعندما يفكّر في الكلمات التي ينبغي عليه قولها يشعر بالدوار، لكنّ كمان غارنيري يساوي الملايين وهذه الفكرة نجحت في التهدئة من روعه، على الرغم من كلّ شيء.

أقيمت لها حفلات في الخارج، في باريس وميلانو وروما. ولم

يرغب المنظّمون والوكلاء في حضور الأب. ليس لأنّهم عبّروا عن رفضهم بصراحة، بل تجلّى ذلك في أسلوبهم البارد والمتحفّظ في مصافحته، ثمّ إنهم لا يتوجّهون بالحديث علانية إلاّ إلى البنت التي تراوحت مشاعرها بين البرود والحرارة: فتبدو مسرورة بحضوره تارةً وتشعره طورًا بأنّها تفضل السفر من دونه. كانت هناك لحظات سعيدة وهي تضع رأسها على كتف أبيها، ولحظات مهينة عندما تتركه لتثرثر مع قائد الأوركسترا.

وهو في روما، ودَّ لو يرافقها إلى تلك الكنيسة التي شيّدت في الساحة الصغيرة، الكنيسة التي صدرت عنها في السابق موسيقى كسرت الجليد وأعادت مشاعر لِيَا نحو ماري إلى طبيعتها الأولى. حدث هذا منذ عشر سنوات خلت.

«وددت لو أجلس معها على المقعد لمناقشة الأحداث التي توالت منذ تلك الفترة، قال. لم أدرك أنّها رغبة رجل خمسينيّ ليس في وسعه إلاّ أن يبدو غريبًا عن فتاة شابّة. ولم أعِ ذلك إلاّ عندما وجدتُني وحيدًا على المقعد. وعلى الرغم من كلّ شيء تألّمت لأنّها، في الواقع، كانت ستجد الوقت للحديث معي. الموسيقى التي عُزفت في الكنيسة آلمتني هي أيضًا، إلى درجة أنّني هربت والتجأت إلى حانة، في حيّ من أحياء المدينة لم نزره من قبل. شربت كثيرا حتّى أتمكّن من حضور الحفل. وفي اليوم التّالي، وأنا أتناول فطور الصباح، تمنّيت لو أنّني قضّيت السهرة وحيدًا. وفي تلك اللحظة، بدت هي الحزينة».

الفصل السادس والعشرون

ثمّ جاءت الرحلة إلى ستوكهولم، رحلة كان من المفترض أن تمحو اسكندنافيا بأكملها من جغرافيا فان فلييت الداخليّة.

في البداية، شعرت ليَا بالخوف من ركوب الطائرة، خوف غريب عنها تمامًا. إذ امتقع لونُها وأخذت ترتعش واضطرَّت إلى دخول الحمّام.

الآن، وبعد فوات الأوان، يبدو لي هذا الخوف ناضجًا على نحو خاصّ، قال فان فلييت. كانت قوّة الجاذبيّة حليفته ضدّ القوى الداخليّة النابذة. لو ضعفت هذه القوّة فستوشك ليَا على الانفجار، ستخسر توازنها الداخليّ، مصابيح روحها ستطير في دوّامة نحو كلّ الاتجاهات. وهذا سيفنيها حتمًا.

هذا ما فكّرتُ فيه خلال عودتنا، ونحن على جسر فيري. وبينما كانت مدينة هيلسنبورغ تغوص في الغروب تمنّيت ألاّ يطلع النهار هناك».

«وماذا لو أنّني لم أعد أعرف فجأةً كيف أستمرّ؟ تساءلت ليَا وهي في الطائرة. وعندئذ فعلتْ ما لم تفعله قطّ: روت لوالدها حديثًا جرى بينها وبين ليفي. لا شكّ أنّها حدّثت ليفي عن خوفها

من فقدان مفاجئ للذاكرة. قفز فان فلييت وهو يسمع هذا الكلام. وتذكّر تلك اللحظة التي ظلّت محفورة في ذاكرته عندما لمست لِيَا الأوتارَ بقوسها خلال أوّل ظهور لها أمام الجمهور في قاعة الحفلات بالمدرسة، وتساءل دون سبب عمّا إذا كانت ذاكرة ابنته ستتحمّل هذا الضغط. لقد نظر ليفي إلى لِيَا في صمتٍ ثمّ وقف وذرع قاعة الموسيقى ذهابًا وإيابًا. بعد ذلك، حدَّثها عن المشاعر التي هاجمته خلال أشدّ اللحظات رعبًا في حياته عندما فقد الذاكرة وسط إيقاع أوستراخ من كونشيرتو بيتهوفن. آنذاك استبدّ به الفزع مثل سمّ بارد ومُشِلٍّ، هذا السمّ الذي دمَّر كلّ شعور على امتداد ساعات. نسي أنّه هرب في الماضي من المسرح وبطريقة عجيبة، لأنّ كلّ تلك الحركات امَّحت من ذاكرته إلى درجة أنّه لم يعِ ذلك قطّ. في حجرة تغيير الملابس نظر إلى كمان آماتي وقال في نفسه وهو واثق: لن تعود إليه نهائيًا.

في الأعلى، أدرك فان فلييت فجأةً، وهو يحلّق فوق الغيوم، أنّ هذا الخوف ربط ابنته بليفي بطريقة أظهرت غيرته السخيفة والوضيعة. إنّه شعور جمع الذين يعلمون أنّ فقدانَ الذاكرةِ والثقةِ بالنفس ينبثق من ليلٍ داخليّ، وبإمكانه أن يهجم عليهم في أيّ لحظة تحت ضوء المصابيح الباهر. أدرك الأب فجأةً أنّ لإهدائه كمانًا من صنع أماتي أهمّيّةً كبرى. فقد أعطى ليفي الكمان لِلِيَا كي يطبع في داخلها، وإلى الأبد، هذه العتمة المشؤومة وأيضًا حتّى يكون باستطاعتها، انطلاقًا من هذا اليقين الراسخ، أن تواصل في أمان راسخ وأبديّ، حياكة الأنغام التي انقطعت تلك الفترة في أعماق ليفي، وقد غرقت في ذلك الفراغ الداخليّ. لعلّها تساعد هكذا في شفاء جرح ليفي القديم.

وبالرغم من ذلك انتابتها رغبة في تهشيم تلك الآلة أمامه، تلك الآلة التي تخفي كثيرا من الألم والأمل.

أمسك فان فلييت بيَدَي ابنته الباردتين والمبلَّلتين، ولأوّل مرّة منذ زمن بعيد. في الوقت نفسه، أخذ يفكّر في أيّام القلق ولياليه التي عقبت ظهور الصدفيّة المفاجئ. كان كلّ هذا كثيرًا عليها، كثيرًا بكلّ بساطة. عندما خرجَا إلى ردهة الوصول أراد أن يقترح عليها إلغاء الحفل والعودة إلى المنزل عبر الباخرة أو القطار. ولكنّ السائق وصل.

«لماذا لم أصرفه ببساطة؟ قال فان فلييت. أصرفه وكفى».

أسدل الليل ستاره، فطلبتُ منه السماح لي بإشعال الضوء. لكنّ فان فلييت رفض بهزّة من رأسه. لم يرغب في أن يسطع الضوء في وجهه وهو يتحدّث عن الكارثة التي بدت لي، عندما تمثّلتها في ما بعد، أقسى شيء سمعته إلى حدود تلك اللّحظة، كما بدت لي قدَرًا محتومًا.

«عندما وجدت نفسي في عتمة القاعة، تمنّيت أنّ ليَا لم تستحضر، وهي في الطائرة، الانهيارَ الذي تعرَّضت له ذاكرة ليفي، لأنّني انتظرتُ انهيارها هي في كلّ لحظة. ظلَّت نظراتي معلَّقة على ملامحها وعينيها، مستعدّة على الدّوام لكشف الإشارات، تريد عزف كونشيرتو الكمان لموزارت. لقد رغبت في أن تشغل نفسها عن التركيز بباخ. وطوَّرت منذ ذلك الوقت إحساسًا مّا بكمان غارنيري كان من الشدّة بمكان حتّى إنّها عزفت عليه أنغامًا أكثر امتلاء وهيبة ممّا سبق وهي تعزف على السلّم. تحدَّثت الصحف عن كمان ديل جيزو، حتّى إنّ إحداها

نشرت بحثًا كاملاً عن *الكانون*. أعتقد أنّ صمت المستمعين المهيب أيضًا كان أكبر من المعتاد والتصفيق بلا نهاية.

كما هو الحال دومًا، انزعجتُ من طريقة لِيَا في تلقّي الهتافات، تلك الطريقة المتوقَّعة التي لم تتغيّر. ولكنّ شيئًا آخر أفزعني، وأعتقد أنّ هذا الشيء أثار الرعب في أعماق ذاتي دون أن أنتبه. فحركات لِيَا وهي تصعد على المسرح وتغادره فقدت انسيابيّتها المعتادة، لم تعد تتصرّف بشكل طبيعيّ كما هو حال البشر عمومًا، فتلك الحركات ليست فاترة فحسب كما لو أنّها لزجة، بل متقطّعة ومجهدة، نغمة متقطِّعة بفعل فجوات صغيرة من الجمود. وهذا يذكّرني بما عرفته من بحوث زملائي من مشاكل الحركة عند الرجل الآليّ. أمّا هي فابنتي».

لكأنّ الخوف الصامت الذي لم يلاحظه آنذاك، لم يتّخذ كلّ هذا الحجم إلاّ الآن، بعد مرور سنوات. بدأ صوت فان فلّيت يتغير ويتّخذ نبرةَ صوتٍ أجشّ يفضح حمم المشاعر الملتهبة. وعندما أعدت التفكير في حديث الساعة اللاحقة تهيّأ لي سماع هذا الصوت الأجشّ الذي كان أكثر من كلّ الدموع تعبيرًا عمّا أحرقَ روحه من ألم.

«فيما يخصّ الاحتفال الذي نُظِّم بعد الحفل الموسيقيّ، لم أتذكّر إلاّ القليل. غدت حركات لِيَا عاديَّة إلى درجة أنّها أنستني فزعي الأوّل تقريبًا، حتّى لمحت إصبعها الصغير وقد رفعته عندما أمسكت بفنجانها. لا أعرف كيف أشرح ذلك ولكنّه ليس تصرّفا لائقًا بجلسة شاي في قاعة بورجوازيّة أنيقة خلال فترة مّا بعد الظهيرة. بل هي

بالأحرى حركة رديئة، عديمة الفائدة، دفق عصبيّ تائه. ذهبتُ إلى الحمّام وغمرتُ وجهي ملء يدي بالماء البارد. ولكنّ الماء لم يمحُ هذا الانطباع. استشعرت، من ناحية أخرى، ذكرى زغردة ضائعة خلال الحفل. الزغردات هي نقطة ضعف لِيًا. خلال واحدة من تلك الحفلات، بدا الإصبع كأنّه يقوم بحركات غريبة يصعب التحكّم فيها. ضغطت بجبيني على الحائط حتّى شعرت بالألم. كان يجب أن أتخلص من هذه الهستيريا اللعينة».

ارتخى فان فلييت واختفى الصوت الأجشّ. «ليت ما حدث لها مجرّد هستيريا، إثارة جنونيّة عارية من كلّ حقيقة!»، قال بصوت منخفض.

خلال الغداء، لاحظ شيئًا آخر أيضًا: انفعال لِيًا. «في الفترات الأخيرة زاد شعورها بالانزعاج لاسيّما بعد انفصالها عن ليفي. ولكنّ ما أراه الآن وأستشعره مختلف، أكثر شمولا، ويفرض نفسه بقوّة جسديّة تجعلها تبدو كأنّها تحترق». وهو في السيّارة التي تقلُّها إلى الفندق ظلَّ يستشعر تلك النار، ذلك الغضب المكبوت الذي يتدفّق منها كما يتدفّق العرق.

«هذا الغضب مُوجَّه في الوقت نفسه ضدّي وليس ضدّي، أتفهم... *أتفهم*... أنت؟» قال.

هاتان الكلمتان الأخيرتان كانتا مثل صرخة جشّاء. بدا لي أنّه يحاول، بعد سنوات من التأخير، أن ينقل إليّ جزءًا من غضب لِيًا كي يكفّ هذا الغضب عن خنقه. في الوقت نفسه، بدا هذا الـ«أنت»

شبيها بصرخة النجدة القصوى، الصرخة المبحوحة لرجل يسحبه تيّار لا يرحم، بعيدًا دون رجعة.

موجه *ضدّي وليس ضدّي*: نبعت هذه العبارة من أعماق يأسه، من شعوره بالذنب ووحدته المتعاونيْن من أجل تحطيمه. *وليس ضدّي*، بدا أنّه يصارع المنطق وغياب المنطق في الوقت ذاته. كشريط سينمائيّ لباستر كيتون، طويلٍ ومملٍّ لم يعد يثير ضحك أحد. لم ينطق هذه العبارة إلاّ مرّة واحدة، لكنّني سمعت ومازلت أسمع إلى الآن صدى هذه الكلمات وقد تضاعف ألف مرّة، صدًى تردّد في أعماقه. إنّها كلمات تؤلّف اللحن الذي ساد كلّ شيء منذ الزّيارة إلى ستوكهولم، ساد كلّ شيء حتمًا. إنّها فكرة لم تنقطع لا نهارًا ولا ليلاً، شعور نُقش عليه كلّ ما حدث بعد ذلك.

«هل رغبت في عزف شيء مّا من أجله، ليس أكثر من بضعة ألحان، تساءل موظّف الاستقبال في الفندق، لأنه تعذّر عليه حضور الحفل للأسف. كان شعره مفروقًا على اليمين بشكلٍ سخيف، ويحمل نظّارة بإطار قبيح، شابّ أخرق استعدّ، منذ ساعاتٍ بكلّ تأكيد، للتقدّم بهذا الطلب. لعلّه إن لم يملك... ولكن كلاّ! يجب أن أكفّ عن التوهّم وإلاّ سيحصل هذا لاحقًا. كان هذا في داخلها، مهما حدث أجل مهما حدث. عندما أفكّر في أنّها قادرة على أن تتصرّف بهذا الشكل خلال الحفل... كم مرّة كرّرت هذا المشهد في الحلم؟ هذا الحلم أجّج الغضب في داخلي، أحرق كلّ شيء وسحقه، كما لو أنّني أفرغت من ذاتي.

الشيء الذي أحسّه على الدوام في هذا الحلم هو برودةُ حدٍّ

العمود المنصهر الذي يكمل منحدر السلّم أسفل الدرجات. وبوصولي إلى نهاية الدرج قلت في نفسي، وأنا ألمس المعدن الخشن: الأمر شبيه بأعلى سلّم يؤدّي إلى المترو الباريسيّ. الآن يقع نظري على حافّة المعدن المنتصب مثل رأس ثعبان ملتفّ على نفسه، خارج مخروط من نتوءات معدنيّة. ومنذ تلك اللحظة، كما تعلم، لم أعد أميّز بين الذكرى الحقيقيّة والصور الداخليّة المراوغة والمشوَّهة بفعل قوًى غامضة. وعندما أغمض عينيّ تهاجمني حافّة المعدن بعنفِ عدسة مقرِّبة في سرعة جنونيّة. وينتابني، في الوقت نفسه، شعور بأنّني تنبّأت بشقائها منذ اللحظة التي فتحت فيها لِيَا علبة كمانها في تردّد وبوجه عابس، استجابة لتوسُّلات رجل شابّ تقدّم في خجل ليتأمّل عن قرب الكمان الشهير. ظلّت لِيَا ممسكة بالكمان ولكنّها سمحت له بملامسة الطلاء. في غضون ذلك، وصل موظّفون آخرون إضافة إلى زبائن ظلّوا ينتظرون في البهو وكلّهم أمل. دوزنت لِيَا كمانها على نحو مختصر، بحركات لا مبالية وباعتياديّة فضفاضة، وذهب في اعتقادي أنّها ستبدأ بالعزف هنا وسط البهو. ولكن حدث العكس وأصبحت الدقائق الموالية في داخلي شبيهة بشريط بطيء الحركة، بطيء حدَّ التمزق. في إحدى المرّات رأيت في حلمي أنّني أستخدم جميع الوسائل الناجعة لأنتزع هذا الشريط من رأسي. لو حدث أن جننت بسببه فسيكون هذا أفضل من وجوب رؤيته دون انقطاع.

سارت لِيَا نحو السلّم، رفعت فستانها الطويل حتّى لا تتعثّر وتوقّفت في الدرجة الثالثة، أجل، الدرجة الثالثة، الثالثة تحديدًا. التفتت ووقفت في مواجهة الجمهور تقريبًا. ولكنّها لم تكن تنظر

إلينا، بل تحدّق في الأرض، بنظرة بدت لي حزينة وصامتة. لم يوجد أيّ داع لعدم شروعها في العزف على الفور، ما من سبب واضح. سمعت طقطقة ولاّعة بالقرب منّي. فالتفتُّ فجأة ومنعت الرجل من إشعال سيجارته بلهجة حاسمة. كانت ليَا تحدّق أمامها كأنّها تمثال بلا روح. لا شكّ أنّ كلّ شيء نضج داخلها خلال تلك الثواني.

وأخيرًا تناولت الكمان وبدأت العزف. عزفت مقطعًا من كونشرتو للكمان في ذلك المساء. وفي منتصف النوتة توقّفت فجأة عن العزف تمامًا. كان الانقطاع مفاجئًا حتّى إنّ الصمت الذي أعقبه بدا موجعًا إلى حدّ مّا. وخلال لحظة قصيرة اعتقدت أنّها شعرت بالضيق ورغبت في الذهاب إلى النوم. تراني تخيّلت ذلك حقًّا؟ حتّى وهي تعزف مقطعًا مختصرًا من فنّها، بدا أثر الانقطاع واضحًا جدًّا وخاليًا من أيّ معنى موسيقيّ. وانعكس الخلل الذي تجلّى فيه على وجه ليَا. حتّى إنّني لاحظت في طريقي إلى الحفل أنّها وضعت على وجهها مسحوقًا شديد البياض. لقد اعتادت فعل ذلك أحيانًا. لم نكن نتّفق على شيء إطلاقًا. والآن، عندما عاودت العزف تحوّل المسحوق الفاتح إلى قناع ليولا دي كولون الأبيض.

وكما فعلت قبل فترة قصيرة في بهو منزلنا، عزفت ليَا الموسيقى نفسها التي أصغينا إليها سابقًا في محطّة بيرن. عزفت بطريقة لم أنصت إليها من قبل: بحِدَّة، بحركات من قوس الكمان تحكُّ الأوتار لشدّة عنفها. والشعيرات البيضاء تتكسّر واحدة تلو أخرى وتجلد وجهها. كان عرضًا من التحدّي واليأس والاستسلام. ومن الجفنين

المغمضتين أخذت الماسكرا تتدفّق. وفي تلك اللحظة، بدأت الدموع تنهمر من عينيها، دموع قاومتها لِيَا في معركتها الأخيرة، لِيَا التي ما تزال عازفة كمان تدافع عن نفسها أمام أصابعها الجامدة ضدّ الهجوم الداخليّ. كانت تضغط على حدقتي عينيها بأجفانها، تضغط وتعاود الضغط حتّى انزلق قوس الكمان، وتلاشت الألحان. تنفّست امرأة جالسة إلى جانبي بعمق، وهي فزعة. وعندئذ أسقطت لِيَا كمانها وعيناها مليئتان بالدموع.

كان هذا المشهد موجعًا. وإلى الآن ما تزال رؤيتها واقفة على السلّم، منهكةً، مهزومةً ومحطَّمةً تشعرني بالألم. ولكنّ الأمر لم يتحوّل بعدُ إلى كارثة. فلم يلمح إخفاقَها إلاّ ثلّةٌ من الناس، وقد عَزَوا ذلك إلى الإرهاق الذي تلا الحفل. *عزيزتي المسكينة!* همس أحدهم خلفي.

«لم أدرك أنّها النهاية إلاّ عندما أسقطت لِيَا القوس وأمسكت بالكمان من رقبته بكلتا يديها».

وقف فان فلييت واقترب من النافذة. رفع ذراعيه، وانحنى ضاغطًا بكفّيه على الزجاج. في هذه الوضعيّة الغريبة التي كانت بمثابة متّكإٍ وأشبه في الوقت ذاته بمحاولة لرمي نفسه في الفراغ، وصف بصوت أجشّ ومتقطّع الحدث الذي أراد أن يمحوه من ذهنه بكلّ ما أوتي من قوّة.

«رفعت الكمان فوق رأسها وشدّته قليلاً إلى الخلف حتّى تستجمع كلّ طاقتها ثمّ هشّمته، ناثرةً إيّاه على الحافّة المعدنيّة لدعامة السلّم. تمنّيت أنّها أغمضت عينيها لتعطي انطباعًا بأنّ مشهد تحطيم

هذه الآلة النفيسة مؤلم لجزء منها على الأقلّ. لكنّ نظرتها تابعت كلّ شيء: جموحها، تطايرَ الشظايا، وقد زاغت عيناها وتاهتا. وتلك ليست إلاّ البداية. انبعج الكمان وسقطت الحافّة المعدنيّة بين شظايا الفتحة، فسحبتها لِيَا ورفعتها ممّا أحدث صريرًا تفتّتت بعده. جنون يائس جعل من ملامحها قناعًا عابسًا. تحطَّم الكمان الآن، لكنّها مازالت تلوّح به وتضرب المشط على الحافّة المعدنيّة بعنف. أحدثت الأوتار صفيرًا وطنينًا، انفجر المشط، والتوى المعدن في إحدى النافذتين الصوتيّتين ومزّقها.

اقترب منها رجل يرتدي بذلة نادل من أجل إيقافها، وهو أوّل من تجاوز الصدمة العامّة. لا أستطيع أن أغفر لنفسي أنّني لم أكن أوّل شخص يقف إلى جانبها. رفعت الكمان من جديد وصوّبته نحو الرجل كمن يصوّب سلاحًا. فتراجع الرجل معترفًا بإخفاقه. ثمّ تابعت لِيَا عملها التدميريّ دون هوادة، حطّمت جسم الكمان المهشّم وقعره على الحديد. كان شعرها منفوشًا، كلاّ لم تعد تبدو مثل امرأة مهتاجة، فتلك الحالة لم تدم إلاّ لحظة، بل تحوّلت لِيَا إلى فتاة يائسة كسرت لعبتها في لحظة جنون وحزن، فتاةٍ تهزّها نوباتٌ من النحيب لا يُحتمل سماعُها إلى درجة غادر النّاس معها المكان.

ظلّ الكمان مغروزًا في الحديد عندما انهارت لِيَا في النهاية. انزلقت درجة، وبذراعيها الواهنتين تحسّست الدعامة. عندئذ فقط سارعتُ إليها، ضممتها بين ذراعيّ ومسحت على شعرها، فكفّت عن النحيب. تمنّيت لو أنّ باستطاعتها، على الأقلّ، أن تستغلّ لحظات الإرهاق المريحة تلك. لكنّ جسدها تصلّب من جديد، وشعرت أنّ

ما جرى بدأ يخنقها ويلتهمها في حميميّة متزايدة. عندما رأيتها في سانت-ريمي خلف كوم الخشب. -وعندما كانت تظهر باستمرار في عدسة منظاري- استشعرت من جديد ذلك الجسد الذي يتصلّب ويختنق بين ذراعي.»

موجَّهة ضدّي وليس ضدّي. لم يردّد هذه الكلمات ولكنّ صمت الغرفة امتلأ بها. أخيرًا، وفي هذه الأثناء، أصبحت أدرك تمامًا أيّ صدًى لا شكّ أنّ كلمات الطبيب خلّفته في داخله: *الأمر يتعلّق بابنتك وأنت لا تقيم بسانت-ريمي.*

خلال الليل، حاولت أن أعثر في أعماقي على شيء مماثل لهذه المأساة. كانت ليسلي، في وقت مّا، تشتغل بالرسم بشكل لا بأس به، وقد جلبت لها كلّ لوازم الرسم إلى المبيت، بالإضافة إلى حمّالة أوراق. عندما خفت حماسُها، حثثتها على المتابعة وتابعت عملها عبر الهاتف. تخيّلت كيف كان لي أن أشعر لو حدث أن تناولَت سكّين المطبخ ومزّقت به لوحاتها، وأوّلها تلك المحبّبة إليّ، اللوحة التي علّقتها في مكتبي بالمصحَّة. وهذا ليس إلاّ وهمًا، مجرَّد ظلّ، مجرّد نفحة بالقياس إلى المشاهد التي نقلها فان فلييت من فندق ستكوهولم. ومع ذلك كنت أرتعش لمجرّد التفكير فيها.

الكحول ممنوعة، قلت له وأعطيته لاحقًا مهدِّئا، تمامًا كما فعل الطبيب السويديّ عندما وصف حقنة مهدِّئة لِليَا. لقد سهر فان فلييت بالقرب من لِيَا طوال الليل. *إنها النهاية*. استبدّت به هذه الفكرة دون هوادة، هذا الإيقاع الداخليّ، هذا الصوت النهائيّ، نهاية الحياة التي عاشتها لِيَا مع الموسيقى، نهاية حياته المهنيّة لأنّه فقَد الآن

كلّ إمكانيّة لسداد الأموال المختلسة، نهاية الحريّة، لأنّ هذا سيحدث بين لحظة وأخرى. هل هي أيضًا نهاية عاطفة لِيَا تجاه أبيها؟

كانا في منزل ماري، وجلسا معًا على أريكةٍ وسائدها من الشينتز. سار في شوارع روما برفقتها. شاركها الطاولة في المطبخ وأصغى إليها وهي تسأله عن إمكانيّة السفر إلى جنوة لرؤية كمان باغانيني. ضمّها بين ذراعيه قبل أن تذهب لاجتياز امتحان البكالوريا. أعاد التفكير أيضًا في لحظات عجزهما عن صياغة قائمة المدعوّين عندما أرادا الاحتفال بأوّل كمان كامل. *أفضّل أن أتمرّن*. هذه الجملة أيضًا، هذه الجملة التي أراد أن يغرزها لاحقًا في نظرة المغاربيّ السوداء، أعاد إخراجها ممزوجةً بدموع الفرح في عينَي لِيَا وهما بالمعرض، عندما سحبت الحلقة الذهبيّة. ما الذي أساء فعله؟ ما الذي يجب أن يلوم عليه نفسه؟ لأنّه أساء التصرّف؟ لأنّه أساء الشعور؟ بل هل بإمكاننا أن نحسن بشكل سيّئ أو جيّد؟ -المشاعر؟ أليست ببساطة ما كانت عليه قبل الآن؟- أهذا كلّ ما في الأمر؟

في ستوكهولم، استأجر سيّارة وعاد إلى منزله برفقة لِيَا التي تناولت الدواء ونامت ساعاتٍ طويلةً. وعندما أفاقت والتقت نظراتهما، لاحت على وجهها ابتسامة.

«تمامًا كما يبتسم أحدُهم أمام شخص سبق أن اقترف خطأً في حقّه، خطأً لا يمكن محوُه أبدًا، خطأً يدفن كلّ شيء تحته، خطأً كان مدعاة للتفهّم عبر هذه الابتسامة المألوفة، ابتسامةٍ تبدأ من حيث ينتهي طلب الاعتذار، الابتسامة كحَلٍّ وحيد حتّى لا نتحوّل إلى صخرة».

أحيانا خُيِّل إليه أنّهما يسيران في الاتجاه الخطإ. من الأفضل التوجّه نحو الشمال، إلى لابوني[1]، إلى الظلمة، والأفضل الهرب. ثمّ استبدّت به رغبة حتّى في نسيان وجود اسكندنافيا، وتجميع حطام الكمان شظيّة بعد أخرى. وإثر تركيزٍ آخر قطعة في الشكل القديم الرائع وطَليها بالبرنيق السحريّ الذي يجب أن تكون تركيبته معروفة، يأتي نسيان كلّ ما يمكن أن تكون له علاقة بدعامة السلّم وحدِّها الملتوي. إنّه النسيان، النسيان ببساطة. عادا إلى الفندق وصعدا الدرج في هدوء. *ليلة سعيدة*، قالت ليَا، وهي الكلمات التي ردَّدتها خلال الرحلة بأكملها.

أمّا الولد صاحب المفرق السخيف في رأسه والنظارة القبيحة فقد زحف على الأرض طيلة ساعات، هذا ما رواه البعض لفان فلييت. بحث عن جميع الشظايا، حتّى تلك الصغيرة الغائرة في شعيرات السجّادة. لم يستطع، ببساطة، تحمّل فكرة تحطيم كمان غارنيري ديل جيزو نهائيًّا.

ومن وقت إلى آخر يلقي فان فلييت نظرة خاطفة على المقعد الخلفيّ: لم ينجح في تعبئة جميع البقايا في علبة الكمان، فوضعها داخل كيس بلاستيكيّ مطروح إلى جانبه. في مواقف الاستراحة، كانت النفايات تثير انتباه فان فلييت على الدوام. لقد حمل الكيس اسم محلّ كبير في ستكوهولم، ويجب على هذا الأثر أن يُمحَى. ولكنّ هذا مستحيل. فقد داعب السيّد بوبيو الكمان بيديه العظميَّتين والمنمَّشتين، قبل أن يغلق الغطاء ويدفع بالعلبة البائسة نحو فان فلييت. *ها* هي!

---

(1) منطقة تقع في شمال أوروبا.

«الكمان». هذا ما همست به لِيَا في بعض الأحيان وقد أخذتها سِنة من النوم. فيمرّ دون أن يقول شيئًا ويده تطوّق ذراع ابنته ويدَها. منذ وقعت الكارثة لم ينجح في أن يضمَّها بين ذراعيه، بل إنّه لم يداعب شعرها. في الوقت نفسه، رغبَ في فعل ذلك لكنّ القيد الذي يمنعه من إتيان هذه الحركة بعث فيه شعورًا باليأس. وأثناء الليل، يستعين بحركة شبيهة بحركة ممرّض حتّى يمسح العرق عن جبين لِيَا. وفي إحدى المرّات انحنى عليها كي يطبع قبلة على جبينها. لكنّه عجز عن ذلك.

بينما غالبه النعاس في الصباح الباكر، زاره حلم ما يزال يلاحقه إلى الآن: في بهو الاستقبال بالفندق كان النادل يحاول، من دون جدوى، أن يخرج الكمان المغروز في حافّة الدعامة. أخذ يجذب الكمان ويجرُّه ويبرمه، فيطقطق الخشب ويحدث صريرًا ويتطاير شظايا. والفتى عاجز عن فعل أيّ شيء، عاجز بكلّ بساطة عن فعل أيّ شيء.

ظلَّ فان فليبت متّكئا على متراس العبَّارة وقتًا طويلاً، ونظرته غارقة في الليل قبل أن يمسك بالهاتف ويتّصل بشقيقته أنييتا. لقد أمضينا حتّى الآن ثلاثة أيّام معًا، ثلاثة أيّام طويلة من البوح، انزلقنا خلالها عبر ثلاث عشرة سنة، ولم يقل كلمة واحدة في شأن شقيقته. حسب روايته، كان يمكن أن نحسبه ابنًا وحيدًا.

«يا إلهي، أكان لزامًا أن تسمَّى بهذا الاسم السويديّ! والناس يقولون: آبّا[1]! مع أنّ هذه الفرقة لم توجد سنة 1955. لقد أوحت

(1) ABBA واحدة من أشهر فرق الروك السويديّة في فترة السبعينيّات.

نجمةُ موضة في النشرة المصوّرة بهذا الاسم لوالدتنا التي تعشق ثرثرة المجلاَّت. «تصوّر لا إنياس ولا أغاتا، كلاّ: *أنييتا!*» هذا ما ردَّدَتْهُ.

حدث ذلك قبل أن يتحطّم زواجهما ويتهاوى حبّهما من النجوم ويتحوَّل إلى غبار. لاحقًا، كان الأب، وهو يروي هذه الحادثة، يمسك بيد الأمّ التي شوّهها النقرس، فيخيّل إلينا أنّ نجومًا وُجدت بالفعل يوما مّا. ولهذا السبب بقي انعكاسٌ ضوئيّ نجميٌّ على أنييتا، شيء من الغبار الذهبيّ، كما لو أنّ خصلة ذهبيّة رقيقة ودقيقة جدًّا تخلّلت شعرها. في الواقع، لم تكن البتّةَ متألِّقة، هي فتاة طيّبة دومًا، لا تملك خيالاً، كادحة، لا تحبّ فوضويّتي ومغالاتي. «أنت مرداس»[1]، هذا ما تقوله. اعتبرتني، بطبيعة الحال، أبًا عاجزًا مع أنّني أردتُ أن أثبت لها العكس.

وهكذا أجد الاتصال بها الآن صعبًا عليّ. لن أقول شيئًا عن الكمان. بل سأقول إنّه اكتئاب عصبيّ، وهذا كاف.

«الدكتور مارديجان، قالت على الفور، يجب أن نخرج لِيَا من البلاد، بعيدًا عن الصّحافة، إنّه طبيب جيّد، جيّد جدًّا والمصحّة لها سمعة ممتازة. وبالإضافة إلى ذلك، ستكون في محيط اللغة الفرنسيّة، لغة سيسيل، أعتقد أنّ هذا مهمّ».

شقيقتي أخصائيّة نفسيّة. وقد عملت بمونبيلييه مع المغاربيّ، وأعجبها على الدوام، وربّما فاق شعورُها الإعجابَ.

---

(1) سيّارة ذات مقعد عالٍ مرتفع لها عجلات مستديرة عريضة وضخمة من الحديد تُرصَّص بها حجارة الطرق وطبقاتها الزفتيّة.

عندما رأت لِيَا تمالكت نفسها دون أن تتخلّص من شعورها بالفزع. عرضتُ عليها الأدوية التي وصفها الطبيب السويديّ فهزَّت رأسها في استياء. لم أرَ شقيقتي منذ سنوات، وتعجَّبت من النضج والكفاءة اللتين أظهرتهما. رغبتُ في معرفة كلّ شيء، لكنّني قلت فقط إنّه كمان قيِّم، ليس أكثر.

نامت لِيَا وجلسنا نحن في المطبخ. لاحظت أنيتا إرهاقي بعد السفرة الطويلة، بضع ساعات في فندق للاستراحة، هذا كلّ شيء.

«هل تفهم هذا؟ تساءلت.

- ماذا نعرف نحن عن هذه الأشياء!

- أجل قالت، عندها مرَّت من خلفي، أنا شقيقها المعتدُّ بنفسه الذي كان يحطم كلّ شيء، وطوَّقت عنقي بذراعيها.

«مارتن»، قالت. وهي الوحيدة التي وقفت إلى جانبي لاحقًا.

«ماذا نعرف!» في السابق، عندما كانت هذه الكلمات مُدرَجةً في الحكاية، حافظت على المسافة الخاضعة للرقابة، تلك التي منحها لها الراوي. والآن أصبحت هذه الكلمات تخرج منه، مبحوحة ومحتدمة.

«في النهاية، ماذا نعرف نحن عن هذه الأشياء، اللعنة. تظاهروا كلّهم بمعرفة ما جرى. أنيتا، المغاربيّ وحتّى زملائي دفعوني إلى قول هذه الحماقة. نحن لا نعرف شيئًا عن هذه الأشياء، لا شيء».

كان جالسا على الكنبة، وفجأةً مال بجسده إلى الأمام، اتكأ بمرفقيه على ركبتيه وترك رأسه يتدلَّى بشكل منخفض جدًّا، كما لو أنّه يتدلّى في الفراغ. هزّته شهقات جافّة، شهقات شبيهة بسعالٍ في

بعض الأحيان. وكان اليأس يُستفرغ في هزّات وتشنُّجات لا إراديّة، تشنّجات حيوانيّة. كم أرغب في محاكاة حركة أنييتا وهي تمرّ من خلفه! لم تخطر ببالي أيّ فكرة. ومع ذلك، استحال عدم فعل أيّ شيء. أخيرًا، جثَوْت أمامه على الأرض وضممْت رأسه بين ذراعيّ. احتاج الأمر إلى مرور ثوانٍ عديدة لتتراجع الهزّات وتهدأ أخيرًا. أمسكته من كتفيه كي أقوِّمها حتّى استقام في جلسته. رأيت رجالا مرضى ومرهقين كثيرين، لكنّ هذا الرجل مختلف جدًّا. كم أرغب في محو صورة رأسه المتدلّي إلى الخلف والمستند إلى ظهر الكنبة!

الفصل السابع والعشرون

تركت الباب المشترك بيننا مواربًا والنورَ مُضاءً. ثمّ نزلت إلى مكتبة الفندق، كما حدث في الليلة السابقة. *كنت شخصًا يعرف الليل جيّدًا/ ... تجاوزت آخر أنوار المدينة/ ارتدت أكثر أزقّة المدينة حزنًا*». بالإضافة إلى وايتمان وأودن، فإنّ روبرت فروست هو الشاعر الثالث الذي عرّفتني عليه ليليان. *وأميال سأمشيها قبل النوم*. شعرتُ بالحَنَق لأنّ الجميع كانوا يردّدون هذه الأبيات مثل لازمة في أغنية بوب. *«الشعر، قالت، هو مسألة منعزلة تمامًا، بل لعلّه مسألة أحاديّة. لا أرغب في أن أحدّثك عنها. ولكن... حسنا...»*.

ممرّضة تعرف كلمة *«أحاديّ»!* لماذا كان عليك أن تموتي في ذلك الحادث يا ليليان؟ كان بإمكانك كذلك أن تمسحي العرق عن جبيني ونحن في الهند. حاولت أن أسير برفقتها في فجر بوسطن الشتويّ وأسمعها وهي تقول: «كبير» باللكنة الإيرلنديّة، لكن استحال هذا. كلّ شيء بدا شاحبًا، خاليًا من الحياة، وبعيدًا. وفي مقابل ذلك، شعرت برأس فان فليبت يثقل بين يدي واستنشقت رائحة شعره الأشعث الحمضيّة.

شعرتُ بالخوف ممّا سيحدث بعد. *هي الوحيدة التي وقفت إلى*

جانبي لا حقًا؛ عندما مثل أمام المحكمة. لا يمكن فهم هذه الجملة على نحو مغاير.

بعد ذلك ماتت لِيَا. أَلَيس ما حدث في ستوكهولم كافيًا إذن؟ أَلَيس ذلك فوق احتمال أيّ رجل؟ *تلك هي آخر رحلة لي إلى سانت-ريمي... أجل أعتقد أنها آخر رحلة*. هل كان باب التأويل مفتوحًا على الدوام؟

وجب عليّ أن أمنع حدوث ذلك. *هل كان عليّ فعل ذلك حقًّا؟* بل هل أملك *الحق* في القيام به؟ إنّ لي رأيًا واضحًا أمام الأمراض المستعصية، رأيًا ثابتًا. إنّها مسألة كرامة. ولكن ما هو التشخيص الصحيح لما يحصل الآن؟

كانت الساعة تقترب من منتصف الليل. ومع ذلك، اتصلتُ ببول وقلت له: عندما ينفد صبر شخص مّا، عندما ينفد صبر شخص مّا حقًّا.... فردَّ عليّ: أنت تتحدّث بالألغاز. هل كلّ شيء على ما يرام؟

لماذا ليس لي أصدقاء؟ أشخاص يعرفون كيف يندسُّون في عالم أفكاري دون مقدّمات ويفهمونها دون أن نشرحها لهم؟ ماذا كانت ليليان ستقول؟ *«أكره أن أتكفّل بالناس»*، ولكنّ الأمر ليس هكذا. ما المقصود بذلك على وجه الدقّة؟

اتصلت بليسلي فوجدتها نائمة ورغبتُ في تناول قهوة قبل ذلك. بدا صوتها متوتّرًا، وظننت أنّ ذلك بفعل الغضب. ولكن عندما عاودت الاتصال بي بدا مزاجُها رائقًا واعتقدت، لحظةً، أنّها سعدت باتصالي.

عندما ينفد صبر أحدهم حقًّا، قالت، يجب أن ندَعَه وشأنه، بل ونساعده. كانت تتحدّث عن المرضى، وشعرت بالسعادة لأنّنا وصلنا إلى الاستنتاج نفسه. ولكنّ الأمر هنا متعلّق بشيء آخر، بمأساة... حسنا، قالت، بإمكاننا مساعدة شخص مّا على تجاوزها... ولكن هذا أعرفه أنا أيضًا، بطبيعة الحال...

كيف استطعت الانتظار إلى أن يدلي شخص مّا برأيه حول هذا الموضوع، برأيٍ تجاوز التفاهات المعتادة؟ شخص لم يمسك برأس فان فلييت بين يديه؟

بدت ليسلي حزينة عندما شعرت بخيبتي. «أوّل أمس دارت الأسئلة حول المبيت وآلة الموسيقى، والآن...».

أنا سعيد لأنّنا تحدّثنا مرّة أخرى، قلت لها».

الفصل الثامن والعشرون

كانت الشقّة فارغة من دون لِيَا. وأحيانا يسبق هذا الفراغُ فان فلييت ما إن يلامس جدار السلّم. فيعود أدراجه ويذهب لتناول شيء مّا. ويشرب.

حتّى الصمت لا يقدر على احتماله إلاّ لمامًا. مع ذلك، لم يُصغِ لأيّ نوتة موسيقيّة خلال سنة بأكملها. الأفلام غير ممكنة هي أيضًا، لأنّها تتضمّن موسيقى. وغالبا مّا يكتم صوت التلفاز. الفراغ والصمت- وهو شعور ينتابه دون أن يقدر على شرحه- كانا ينصهران مع الشحوب الذي ضاعت فيه لِيَا بعد زيارتها الأخيرة لماري، الشحوب الذي رآه مرّة أخرى عندما زار السيّد بوبيو، مجتازًا كريمونا ليلاً. أحيانًا، يغشى الشُّحوب مكتبَه أيضًا، وغالبًا عند حلول الظلام. ويغدو ذلك مستحيلاً في النهار، ولكن هذا ما حصل. في لحظات مشابهة، كلّما دخل عليه أحدهم بدا مستعدًّا لإطلاق النار عليه. وهذه ليست إلاّ إحدى التجارب التي تجعله غريبًا عن نفسه. التزلّج لمسافات طويلة في أوبرلاند مثّل فرصة جيّدة. لكنّه لا يذهب إلى هناك إلاّ عندما يتأكّد من أنه لن يتزلّج.

لم يكن من الوارد أن يتخلّى عن لِيَا، رغم المغاربيّ، وبسببه هو أيضًا.

على مائدة فطور الصباح، لم يُلحظ على فان فلييت شيء من آثار ما جرى البارحة. فقد حلق ذقنه، وارتدى سترة بحريّة زرقاء بدا فيها شبيهًا بسائح يتمتّع بالصّحّة ورياضيّ، وقد عَلَتْه سمرة خفيفة. لم يبْدُ مطلقًا كرجل يفضّل أن يترك المقود لشخص آخر. بدا وجهه مسترخيًا كوجه شخص استطاع النجاة من الهموم أثناء نوم عميق. لست أدري ما إذا كان المهدّئ قد محا، هو أيضًا، ذكرى انهياره، ما إذا كان يتذكّر حتّى الآن كيف أغثته.

بعد ذلك، عدنا إلى الجلوس على ضفّة البحيرة. سنغادر اليوم، هذا ما شعرنا به نحن الاثنان. ولكن فقط عندما تعود بنا حكايته إلى الحاضر، يغشى البحيرة ضوءٌ شتويّ، ضوء شاحب يفتقر إلى ألق بروفانس وخيراتها، ضوء يختلط فيه اللون الأردوازي الرماديّ، والأبيض البارد ببساطة قاسية. ويتشكّل الضباب في الشرق، خفيفًا في البداية ثمّ كثيفًا في المدى البعيد وغامضًا. انتابني القلق عندما تذكّرت أنّ عليّ اجتيازَه بسيّارتي.

في تلك اللحظة، تحدّث فان فلييت بجمل مختصرة وموجزة. وفي بعض الأحيان، يتكلّم بنبرة تحليليّة، أكاديمية تقريبًا، كأنّه يتحدّث عن شخص آخر. خمّنت أنّه ربّما فعل هذا لينسى انهياره الليليّ أيضًا، فقدانه لكلّ حدوده. لم أحزن. مع ذلك ظهر في ضبط النفس هذا شيء مّا خطير، شيء مّا تعسّفيٌّ، متناغم مع هذا الضباب الذي بدأ يقترب أكثر فأكثر.

اصطحبت أنييتا لِيَا إلى سانت-ريمي. وقد أسعده ذلك. وهذا الشعور نفسه جعله تعيسًا أيضًا. غشي الضباب عينَيْ لِيَا وثقُل

جفناها عندما داعب شعرها وهو يودّعها. ولمّا انطلقت السيّارة ظلّت لِيَا جالسة على كرسيّها مثل دمية من الجبس، وقد سمّرت نظراتها التائهة أمامها في الفراغ.

ذهب للبحث عن نيكي في الجوار. ابتهج الكلب لرؤيته وقفز نحوه. ولكنّه مشتاق إلى لِيَا، وقد فقد الرغبة في الأكل. وشيئًا فشيئًا، اعتاد على نمط حياته الجديد وأصبح باستطاعته أن ينام قرب سرير فان فلييت. غير أنّه لا يحتمل ساعات الوحدة العديدة، فاصطحبه فان فلييت إلى المعهد. كانت روث أداماك تكره الكلاب، لهذا عندما يضطرّان إلى مناقشة موضوع مّا، يعمد أحدهما إلى الاتصال بالآخر هاتفيًا مع أنّ ما يفصل بينهما ليس أكثر من رواق. وفي مقابل ذلك أبدت زميلة أخرى هوسًا بنيكي. وعندما رأى فان فلييت الكلبَ يلحس يدها، ترك هذا المشهد أثرًا بالغًا في نفسه.

بعد مرور ستّة أشهر، ذهب لزيارة ليفي في نوشاتيل وعلم أنّ لِيَا حاولت، في ما مضى، تحطيم كمان أماتي عندما قدّم لها ليفي خطيبته.

في كلمات موجزة ومقتضبة، روى له فان فلييت حادثة ستوكهولم.

«في ذلك الوقت، كنت أنا المقصود، قال ليفي. أمّا الآن...».

هذان الرجلان المختلفان جدًّا اقترب أحدُهما من الآخر في تردّد. وكان فان فلييت يفكّر في إيقاع أوستراخ.

«لم أحظ بتلميذة أكثر موهبة من لِيَا، قال ليفي. لم أستطع مقاومة الرغبة في العمل مع لِيَا. أمّا عن الخطر الذي يحدق بي فلم أرغب في رؤيته. هل تصدّق...؟

خلال أيّام عديدة فكّر فان فلييت في الشيء الذي رغب ليفي في سؤاله عنه. ظلّ في نفسه شعور بالكراهية تجاه هذا الرجل. وهو إلى جانبه، شعر أنّه ثقيل الظلّ وفظّ. ولكنّ ليفي ليس خصم الماضي. «*أنا آسف، أنا حقًّا آسف*»، قال وهو يهُمُّ بالمغادرة. لقد صدَّقه فان فلييت. وودّع كلاهما الآخر بإشارة من اليد، على نحو مختصر، وبشيء من الضيق. على رصيف المحطّة، انتاب فان فلييت شعور غريب: الآن، نوشاتيل أيضًا خالية.

تفادى الدخول إلى مغازة كرومفولز. لكنّه التقى صدفة بكاتارينا وولتر في الشارع. «يا إلهي، ردّدت، يا إلهي»! لكنّه لم ينظر إليها، بل تحدَّث وهو محدِّق في الأرض.

«هل كنت... قال لينهي المحادثة.

- ولكن لا أحد قادر على التنبؤ بذلك!

احتضنته، وهي تودّعه، فلامست جديلةُ شعرها أنفَه.

بعد مرور وقت طويل، وعلمِها باختلاسه الأموال، التقى بها من جديد. فمنعته من الهرب. رمقته بنظرة متفرِّدة، لا شكّ أنّه قرأ فيها مساندتها له فترةً طويلةً.

«عندما قرأت هذا الخبر قلت في نفسي: يا إلهي، لقد فعل كلّ شيء من أجلها، كلّ شيء حقًّا. أنا... لقد تمنّيت لو أنّ لي أنا أيضًا شخصًا... مازلت أشعر بكمان ديل جيزو بين يديّ إلى اليوم.

- أنا أيضًا»، قال.

بعد ذلك، لم يلتقيا إلاّ في المقبرة.

الفصل التاسع والعشرون

استطاع أن يخفي أمر اختلاس الأموال مدّة عام تقريبًا. عقد فان فليبت صفقات على الأمد البعيد، عرقل تجارب، أخّر مشتريات وترك فاتورات عديدة دون خلاص. وعندما يعترض المانحون على ذلك، يعمد إلى الكذب عليهم دون خجل. كان، وهو يروي لي هذا، يريني ذلك الوجه الذي أتعرَّف من خلاله الآن على لاعبٍ وفتًى رغب في أن يصبح مزوّر عملة. إنّه احتقان منهجيّ. إنّها ورطة مقصودة. وتلك رقصة فوق الهاوية التي تنفتح خلال الليل. مع ذلك، فقد أعجبه هذا أيضًا. حتّى في هذه اللحظة ما يزال يوجد أثر لتلك اللذّة في صوته. عندما أدركت ذلك تذكّرت الطبقات الداخليّة ومختلف خشبات المسرح التي تحدّث عنها بخصوص لِيَا.

أتمنّى يا مارتن لو أنّ اللاعب في داخلك أنقذك وشيَّد في باطنك مصطبة يمكنك أن تبقى فوقها على قيد الحياة.

فاق الخوف المتعة عندما لاحظ فان فليبت أنّ روث آداماك في إثره. وعندما دخل يوما مّا إلى مكتبها، فاجأها وهي بصدد تجريب كلمات عبور لتفتح حساب الأبحاث IRENRAUG، هذه هي الكلمة التي رآها مكتوبة على الشاشة. فعندما كان تلميذا، حطّم

كلّ الأرقام القياسيّة في قراءة الكلمات وهي مقلوبة. عاجلاً أم آجلاً، ستجرّب كلمة DELGESU، لن يكفي هذا. ولكن بما أنّها بدأت، فإنّها ستستمرُّ في إدخال الأحرف. تصرَّفا على هذا النحو في سنتهما الأولى من العمل معًا كلّما قرّر إعادة ابتكار كلمة عبور منسيّة لا يتذكّر منها إلاّ البداية. كان الفصل صيفًا، وهي جالسة على حافّة المكتب، مرتدية تنّورتها القصيرة. وتحوَّلت لعبة الحروف إلى سباق فازت فيه هي. باختلاس النظر إليها، لمحها وهي تمرّر لسانها على شفتيها ببطء. فسارع إلى تحويل نظره والتحديق في الشاشة على الفور حتّى مرّت اللحظة. «ومع ذلك، فأنت خاسر بائس»، قالت له في اليوم التالي.

أبدل كلمة العبور بـ ANOMERC ولاحقًا، بـ CRANEMO ولكنّ نبرتها ظلّت قريبة من كلمة CREMONA ولهذا السبب أصبحت الكلمة: OANMERC.

«لماذا اضطررتُ إلى البقاء في هذا المجال؟ لماذا لم أعتمد شيئًا بعيدًا كليًا، أو على الأقلّ كلمة BUIO,OIUB التي لا يمكن أن تجدها إطلاقًا».

«ما نعرفه عن هذه الأفعال الإكراهيّة، قالت أنييتا، أنّ ما يحرّكها هو الرغبة المخفيّة في وقوع الحدث الذي نخشاه».

بدا له هذا مصطنعًا نسبيًا. ولكنّه ما يزال يتعجّب من عدم قدرته على ترك الموضوع الذي أوشك على فضحه كما لو أنّه التصق به.

قبل ثلاث سنوات وصلت الرسالة التي طالب فيها المانحون بحسابات مفصّلة، وإلاّ فإنّهم لن يكونوا على استعداد لدفع المبالغ

المتّفق عليها. «لقد فتحتها سهوًا»، قالت روث أداماك وهي تعيد إليه الرسالة. تأمّل اسم الباعث. وأدرك أنّها النهاية. «اتركيها هنا أو ضعيها في أيّ مكان»، قال ذلك دون اكتراث. ثمّ غادر.

توقّف في المحطّة لحظة، في المكان الذي سبق أن أصغيًا فيه لليولا دي كولون. لقد مرّت خمس عشرة سنة منذ ذلك الحين. ركب القطار باتجاه محطّة التزلّج في أوبرلاند. وكان الثلج يتطاير في الهواء دون أن يتساقط. وفي طريق العودة تساءل ما الذي ينبغي عليه فعله؟ كانت لِيَا عند المغاربيّ خلف كومة الخشب، أيّ فرق أحدثه هذا المشهد؟ نظر إليه الطبيب في صمت عندما رغب في معرفة ما إذا سألت لِيَا عنه، تلك النظرة السوداء، الراسخة، ذلك الطبيب الدَّعيّ الذي طالما رغب في أن يحطِّم فاه!

تظاهر بالمرض وتغيَّب عن المعهد مدّةَ أسبوع كامل. فليقرؤوا جميعًا الرسالة الآن، لم يعد لهذا أيّ أهمية.

خلال تلك الأيام، رتّب الشقّة وتحسّس كلّ الأشياء بيده. أخرج صورة لغرفة سيسيل قبل أن يحوّلوها إلى *غرفة موسيقى*. إنّه الماضي العائد للقائه بعنف غير منتظر. وتساءل لأوّل مرّة عمّا كانت سيسيل ستقوله بشأن عمليّة احتياله. *مارتن، الوقح الرومانسيّ. لم أتصوّر أنّ مثله يمكن أن يوجد حقًّا*. وها هو قد اجتاز نصف أوروبا، ليس من أجل اللّحاق بالمرأة التي أحبّها، ولكن ليرافق ابنته المريضة. في أحد الفنادق تصرّف كما لو أنّها صديقته. وعندما استيقظ إلى جانبها، وهو أكثر إنهاكًا من ذي قبل، كانت تتنفّس بهدوء، لكنّ أجفانها تهتزّ

بشكل عصبيّ. «أين نحن إذن، قالت، لماذا لم تمنحني الوكالةُ الغرفةَ الأفضل؟ في العادة يوفّرون لي جناحًا».

غرفة لِيَا هي آخر غرفة رتّبها. لقد تفاداها. الآن يتحسّس كلّ شيء بيده، هنا أيضًا، كما لو أنّها المرّة الأخيرة. مراحل حياتها، حيوانات مصنوعة من القطيفة، الرسومات الأولى، الدفاتر المدرسيّة ومذكّرات مقفلة. وجد المفتاح في الدرج، في آخر الدرج. سبق للمغاربيّ أن تساءل عمّا إذا وُجد شيء من هذا النوع. فأجابه «بالتأكيد لا».

لِيَا ليفي. ورمى بالدفتر. جبال من الصور التقطت لها في تلك الفترات الأخيرة. جلس برفقة الصور على طاولة المطبخ. لِيَا فان فلييت! شعور بالتشتّت بدأ خلف الواجهة، دون ضجيج وبلا انقطاع. أخرج صورًا قديمة وقاس المسافة بين الماضي والحاضر. إحدى هذه الصور التقطت بعد فترة قصيرة من لقائها بليولا في المحطّة احتفظت فيها لِيَا بتلك الهيئة التي ظهرت بها عندما سحبته في صمت عبر المدينة، تقودها إرادة جديدة دفعتها بعد ذلك إلى طرح هذا السؤال: *هل الكمان باهظ الثمن؟* رمى بأغلب صور لِيَا وهي عازفة كمان مشهورة. لم يفهم السبب وراء ذلك، ولكنّه أقفل غرفة لِيَا ووضع المفتاح في خزانة المطبخ خلف الصحون التي لا تُستعمل إلاّ نادرًا.

عندما قرّر ما سيفعل، استدعى كارولين التي أخذت تتنفّس بصعوبة وتغمض عينيها أحيانا أثناء حديثه إليها. لا بدّ من شخص ليعتني بالشقّة، قال. فوافقت على ذلك وداعبت نيكي قائلة بعينين مليئتين بالدموع «أنت ستأتي معي». «يجب ألاّ تعلم بذلك قطّ»، همست. فأشار إليها موافقًا.

شعر بأنّها ما تزال ترغب في أن تقول له شيئًا، شيئا مّا لا تُسرّ به إلاّ لصديقات في ما بينهنّ. وأشعره ذلك بالخوف.

كان هناك ذلك الفتى سيمون، الفتى المتقدّم عليها بسنتين، أفضل رياضيّ في دفعته على الرغم من تعاطيه السجائرَ، مُدَّع، جيمس دين[1] في هيئة مصغّرة، ولكنّه معشوق فتيات كثيرات.

أصيب فان فلييت بالهلع. هل وقف، هو الأب، في طريق هذا الفتى؟ كان هذا الكلام معلّقًا في شفتي كارولين.

في تلك اللحظة أمسكت كارولين بيد فان فلييت، وهي تصغره بثلاثين سنة.

«ولكن كلاّ، قالت، كلاّ. لستَ أنت المذنب. بل قداستها، إن صحّ التعبير، هالة موهبتها، وشهرتها. وثمّة دومًا هذا البريق البارد حولها، في قاعة الدرس أو خلال فترة الاستراحة. القليل من الغيرة، شيء من الخوف، شيء من عدم الفهم، كلّ هذا في الوقت نفسه. كانت تجهل كيفيّة الخروج من هذا الضوء لتذهب نحو سيمون مثلاً. ويتبعها بريقها مثل ظلّها. وسيمون لم ينظر إليها قطّ، بل تبعها بنظراته، وهو ما أثار موجة من السخرية. ولكنّها ظلّت بعيدة المنال حتّى بالنسبة إليه، هو معشوق النساء. «أتعلمين، قالت لي، أحيانا تمنّيت أن يختفي كلّ هذا البريق وهذه الفتنة فجأةً، حتّى يتصرَّف الآخرون معي على نحو تلقائيّ تمامًا، على نحو في غاية التلقائيّة».

تردَّد فان فلييت، ثمّ سألها أخيرًا: وماذا عن ليفي؟

---

(1) ممثل أمريكيّ.

«دافيد، شيء آخر، شيء آخر مختلف *تمامًا*. لست أدري، كانت رغبة في قطف النجوم.»

وماذا عن سيمون وليفي؟

«بالنسبة إليها لم يكن لأحدهما علاقة بالآخر. أقصد أنّهما عالمان مختلفان.» هذا ما أعتقده.

أراد فان فليت أن يعرف شيئًا آخر بعدُ، شيئا مّا شغل تفكيره منذ وقت طويل.

«في البداية، ارتبطت الموسيقى بهاري ثمّ بليفي. كان للكمان دومًا شيء مّا متعلّق بـ... بالحبّ. عمومًا هل أحبّت لِيَا الموسيقى لذاتها؟»

إلى حدّ الآن لم تتساءل كارولين عن هذا الأمر إطلاقًا. «لا أعرف شيئًا عن هذا الموضوع، قالت، كلاّ، لا أعرف شيئًا حقًّا. أحيانا... كلاّ، ليست لديّ أيّ فكرة».

حدّقتْ في الفراغ مرّة أخرى، كأنّها ترغب في أن تبوح لفان فليت بشيء يتعذّر عليه معرفته. ولكن بعد ذلك، نظرت إليه وقالت شيئًا، أعتقد أنّه وفّر على فان فليت الكثير: «سأطلب من أبي أن يتكفّل بالدفاع عنك إذا أراد ذلك. إنّه بارع في مثل هذه الأمور، بارع جدًّا».

عندما همّت بالمغادرة ضمّها بين ذراعيه وقتًا أطول نسبيًّا كما لو أنّها لِيَا. وغادرت كارولين وهي تمسح الدموع عن عينيها.

وفي صباح اليوم التالي ذهب لزيارة النائب العام.

الفصل الثلاثون

لم يقل شيئًا مُهمًا بشأن الإجراءات والقضيَّة. وبين جمله المقتضبة أخذ يلقي قطعَ خبز إلى اللقالق. مع رجل مثله على مقعد الاتهام، لا يوجد شيء مهمّ يستحقّ الشرح. وبينما هو يلقي فتات الخبز، شعرت بأنّه يخشى السقوط في دوّامة الذكرى والانزلاق فوقها دون أن يصاب بأذًى.

اعترَض القاضي المكلَّف بالتحقيق في مصداقيَّة الاعتراف مشكلان: الدافع إلى ارتكاب الجرم واستحالة تقديم الكمان وقسيمة الشراء. «نظر إليّ، أحيانًا، كما لو أنّني مجنون أو كاذب وقح». ظلّ فان فلييت وقتًا طويلاً يرفض أن يقدّم بقايا الكمان. وما أخفاه عن المحكمة أيضًا، هو القصّة الحقيقيّة وراء تحطيم الكمان. إنّه هو من سار فوقه في العتمة. ولم يقدر أحد على انتزاع أيّ اعتراف آخر منه.

إنّني أراك في قاعة المحاكمة، مارتن، كرجل باستطاعته أن يصدّ الآخرين بصمته كأنّه جدار.

أراد القاضي الاستماع إلى ليَا، عندئذ اضطرب فان فلييت. فرفع الدكتور ماريدجان تقريرًا إلى المحكمة. ورأى فان فلييت في حلمه أنّ الطبيب أطلع ليَا على القضيَّة. بعد ذلك أقنع نفسه عنوة، وهو جالس

على حافّة السرير، بأن لا طبيب سيفعل شيئًا مشابهًا، لا طبيب.

نجح والد كاورلين في الحصول على حكم رحيم لاسيّما أنّ فان فلييت سلّم نفسه للعدالة: السجن لمدّة ثمانية عشر شهرًا مع وقف التنفيذ. لم تجد القاضية صعوبة في فهم الدافع وراء تصرّفه. ثمّ إنّ عملها يتمثّل أيضًا في تخيُّل مدى صعوبة ألاّ يفعل ما فعل بالنسبة إليه، قالت. لكنّ فان فلييت قال كلمة واحدة: *مستحيل*.

في لحظة مّا، جرى حديث حول اختبار نفسيّ. كان للكلمتين نبرة مبحوحة عندما كرّرهما فان فلييت، نبرة خطيرة. ثمّ حرَّك شفتيه في صمت. بعد لحظة، نسي أن يلقي فتات الخبز إلى اللقالق وفتّته بين أصابعه.

وبطبيعة الحال، خسر منصب الأستاذ وكسب المانحون المعاملات الباقية. ما بقي له كان يكفيه لمصاريف الحجرتين اللّتين يعيش فيهما الآن، واستطاع أيضًا أن يحتفظ بسيّارته. وقد ساعده والد كارولين في معركته مع التأمينات التي تكفّلت في النهاية بإقامة لِيَا بسانت-ريمي.

اهتمّت الصحف بالقضيّة من خلال عناوين كبيرة لفتت إليها الأنظار في كلّ ركن من الشارع، حروف كبيرة وخشنة. ورأى في حلمه أنّه يعبر المدينة مقتنيًا كلّ النسخ حتّى لا تلمح لِيَا أيّ واحدة منها.

«في تلك الفترة لعبتُ مرارًا وتكرارًا في مواجهة عجوز كريمونا. في النهاية وجدت الحلّ. وكانت المشكلة كالتالي: لا أقبل أيّ تضحية، أعتبر على الفور كلّ مناورة فخًّا يجب علينا ألاّ نطيل التفكير فيه.

كان الأمر هكذا في كريمونا، عليّ أن أهزم ذلك المجنون اللعين. لقد أخطأ العجوز واكتشفت أيضًا السبب وراء ذلك. كان عليّ أن أصرعه ببيدق. الآن حرّكت البيدق وقلت في نفسي: هذه الحركة اليتيمة، سنتيمتران أو ثلاثة، كفيلة بمنعي من الوقوف أمام المحاكم.

كانت والدتي تضحك عندما يقول أبي، خلال نوبات عتاب عنيفة يتوجَّه بها إلى نفسه، إنّ بإمكانه *أن يقضم دماءه*. وتجد العبارة مضحكة جدًّا. الآن أصبحت هذه الكلمات تطرق ذاكرتي: أحيانًا لشدّة الغضب من نفسي، أشعر أنّني فقدت عقلي حقًّا. والأدهى من ذلك عندما أقول في نفسي: في الواقع، أنت لم تفعل هذا قطّ من أجل ليَا، وإنّما من أجلك أنت. لقد ذهبت إلى الرجل العجوز لأنّك أعجبت بنفسك في دور اللاعب، أي بدافع من نرجسيّتك».

أخبرني برغبته في السير بضع خطوات وحيدًا، ووجَّه إليّ نظرة اعتذار. كنت أعرف هذا: الأصعب لم يحن بعدُ.

الفصل الواحد والثلاثون

«أعجبت لِيَا، وهي صغيرة، بالأوعية الزجاجيّة البنّيّة ذات الملصقات المكتوبة بخطّ اليد، وقد تصدّرت الرفوفَ في الصيدليّة. حتّى إنّها ترسم تلك الأوعية التي يبدو أنّها تحظى بقوّة جاذبيّة عجيبة: ربّما لأنّه يظهر خلف البلّور الغامق غبارٌ شفّاف يبدو كأنّه متخفٍّ داخلها، سواء كان غنيًا بالوعود أو حتّى خطيرًا. بعد مرور يوم شاهدت سيسيل في المستشفى وهي تغلق خزانة الأدوية الخاصّة بالمفتاح قائلة: «إنّها خزانة السموم». لا شكّ أنّ الكلمة أعجبت لِيَا لأنّها تساءلت خلال العشاء: «لماذا نحتاج إلى السمّ في مستشفى؟».

هذا ما فكّرتُ فيه عندما علمت بنبإ وفاتها. لقد فعلت ذلك خلال عمله ليلاً».

إثر عودتها من سانت-ريمي قبل عام، لم تتّصل بفان فلييت بل اتصلت بأنييتا. وهذا ما آلم فان فلييت. ولكنّه شعر، من ناحية أخرى، بالسعادة أيضًا لأنّها لم ترَ مسكنه البائس. في اللّيل عندما يأرق، يتصوّر تأويلات عديدة لا يقبل أيّ واحد منها التصديق. ولكن ما كان للِيَا أن تكتشف الحقيقة بنفسها مطلقًا. وأدرك في فزع أنّه خائف من لقاء ابنته.

بدأتْ تتلقّى تكوينًا في التمريض، وأصبحت تسكن مبيتًا يقع في الجانب الآخر من المدينة رفقة تلاميذ آخرين. أقام في المدينة نفسها التي تقيم بها ابنته ولم يلتقِ بها قطّ. أعطته أنييتا رقم الهاتف قائلة: «لو كنتُ مكانك لانتظرتُ أن تتّصل هي أوّلا».

في الأسابيع الأولى لم يجرؤ على الذهاب إلى المركز خوفًا من لقائها. «عشت كما لو أنّ شيئا مّا ينغرز داخلي، أعتقد أنّني لم أتنفّس إلاّ بشكل اصطناعيّ، مثل شخص يشعر بالخجل حتّى من وجوده. تطلّب الأمر بعض الوقت لأدرك أنّ الإحساس بالخجل الذي سبّبه احتيالي وما انجرّ عنه من حكم تحوَّل دون أن أدري إلى شعور بالذنب تجاه لِيَا. ومع ذلك فليس ثمّة *أيّ داعٍ* للشعور بالذنب!

تملّكني غضب شديد ضدّ المغاربيّ الذي أسرَّ لها بشيء مّا، ضدّ أنييتا بسبب ملاحظتها وحتّى ضدّ كارولين التي رأت أنّ من الأفضل ألاّ تعيد الكلب إلى لِيَا. وفي كلّ يوم كان غضبي تجاه لِيَا يزداد. يا إلهي لماذا لم تتّصل بي؟ لماذا تتصرّف كما لو أنّني أسأت إليها؟».

التقيا أخيرًا في الخريف الماضي. كان يومًا حارًّا اكتفى فيه الناس بأقلّ ما يمكن من اللّباس. لكنّ فان فلييت فوجئ بثوب لِيَا العتيق والمحتشم، وبتسريحتها الصارمة. استغرق وقتًا طويلاً ليتعرّف عليها. انقطع نفسه، إذ لم تمض سنتان منذ أن شاهدها آخر مرّة في سانت-ريمي بمنظاره. لم تمضِ سوى سنتين، ومن يراها يظنّ أنّه مرّ على الأقلّ ضِعفُ هذا الوقت. عينان صافيتان خلف نظّارة بلا حوافّ، بكامل ألقها، لا تخلو من الأناقة ولكنّها منيعة، منيعة على نحو رهيب.

سار أحدهما نحو الآخر الخطوات الأخيرة ببطء. وتصافحا.

«أبي»، قالت. وردَّ عليها: «ليَا».

سار فان فلييت نحو الشاطئ، غرف غرفة ماء بيده وأسالها على وجهه.

شعرتُ أنّني أنهار. لم أعد أرغب في سماع أحد يتحدّث عن هذه التّعاسة. لقد خارت قواي.

تقدّمَا معًا في ساحة مانستر وظلاّ هناك برهةً جنبًا إلى جنب دون أن ينبسَا ببنت شفة.

«لن أستطيع أبدًا إصلاحَ هذا الأمر»، قالت فجأةً.

شيء مّا ثقيل سقط عن قلبه. وللمرّة الأولى منذ أشهر، استطاع أن يتنفّس بعمق. *هذا هو السبب*، هذا هو السبب الذي جعلها تتجنّبه. ولم تكن تعرف شيئًا عن الاحتيال ولا عن الحكم. لم تتحدَّث إلاّ عن الكمان. أراد أن يضمَّها بين ذراعيه ولكنّه توقّف قبل أن يصل إلى هذا الحدّ. حمل صوتُها النبرةَ المعتادة نفسها. ولكن مع ذلك بدا له غريبًا عنه، لا بعيدًا ولا باردًا، بل ذابلاً، مثل شخص يعيش على مَهَلٍ.

«كلّ شيء على ما يرام، قال، كلّ شيء على ما يرام حقًّا».

نظرَت إليه كما ينظر أحدهم إلى شخص ابتدع حجّة متصنَّعة لا يمكن تصديقها حتّى يهدّئ من روعه.

وهما جالسان على أحد المقاعد نجحَا بعد ذلك في أن يتحدّثا باقتضاب عن مكان إقامتها وكيفيّتها. لقد كذب دون شك.

هل تحدَّثت الصحف عن هذا الأمر؟ تساءلت ليَا. أسعده ذلك لأنّه رآها تعود بسؤالها ذاك إلى العالم والزمن الحقيقيّين. فهزَّ رأسه.

«ستوكهولم»، قالت. وبعد لحظة أضافت: بعد ذلك العتمة، العتمة المطلقة. أمسك بيدها. فأسلمَتها إليه. وشعر لاحقًا برأسها على كتفه. هذه الحركة أطلقت عواطفهما من عقالها. فاحتضن أحدُهما الآخر، قبّل أحدهما الآخر على نحو أخرق وأطلقَا العنان لدموعهما.

بعد ذلك انتظر اتصالها لكنّها لم تفعل. ترك جرس بابها يرنّ دون توقّف. تمنّى أن يعلم كيف قضت أيّامها في سانت-ريمي كي لا يبقى هذا الزمن أبيض وفارغًا في كلّ ما هو متعلّق بها، وحتّى تمحى صورها وهي خلف أكوام الخشب وعلى الجدار، وهي تطوّق ركبتيها بذراعيها؛ صور تحوّلت، بالنسبة إليه، إلى أيقونات للوحدة واليأس، كي يكون باستطاعتها أن تتحوَّل فيما بعد إلى حلقات تتلاشى في الماضي ولا تعود مفزعة أبدًا.

اتصل به المستشفى في ساعات الصباح الأولى. قبل ثلاثة أيّام كانت طالبة تمريض بالمبيت قد أطلعتها على الصحف التي تحدَّثت عن المحاكمة في تلك الفترة. بعد ذلك ذهبت إلى عملها كما هي العادة دومًا دون أن تقول شيئًا مهمًا كعادتها. وها هي الآن ترقد هناك، وجهها أبيض، صامت إلى الأبد مثل وجه سيسيل في ما مضى.

«كلّ شيء فارغ منذ ذلك الحين، قال فان فلييت، فارغ وخالٍ من الألوان».

انتظر وهو لا يعلم ماذا ينتظر تحديدًا. وفي نهاية الأمر اقترض المال من أنييتا ليقوم بهذه الرحلة.

الفصل الثاني والثلاثون

على طريقي إلى بيرن، فكّرت باستمرار في الكلمات التي أردفها: «والآن التقيتك».

كان يمكن لهذه الكلمات أن تمثّل شهادة عرفان لا أكثر. ويمكن أن تمثّل أكثر من ذلك: الإعلان عن رغبته في التشبّث بهذه المرساة المنقذة ومواصلة حياته.

شعرت بالخوف من الوصول إلى بيرن، تمامًا كما هو الحال خلال الأيّام التي انقضت للتوّ. هل كانت ستأخذ قرارَها بين التأويلين؟ هل سأمتلك القوّة والصلابة الضروريّتين لأصبح مرساتها؟ ظللتُ أستشعر الطريقةَ التي قدّمتُ بها المبضع لبول. هل كان باستطاعة رجل مثله أن يصبح بمثابة مرساة لشخص آخر، شخصٍ فقَد هو أيضًا الثقة في يديه؟

توقّفنا أمام منزلي. ودون أن ننبس ببنت شفة، نظر فان فلييت إلى الواجهة الأنيقة ثمّ تصافحنا. «نظلّ على اتّصال، قلت. ليست إلاّ كلمات جافّة، بعد كلّ ما حدث. ولكن حتّى على السلّم لم أجد أفضل منها.

رفعتُ الستائر وفتحتُ النوافذ، فلمحته. لقد ركن السيّارة على

بعد بضع منازل. ثمّ قبع هناك، عند الغروب، في العتمة. *الليل يسدل ستاره.* كان يحبّ هذه الكلمات التي تعيده دومًا إلى سيسيل، لم تعد توجد شاحنات ليخشاها. لم يرغب في العودة إلى منزله. كنت أفكّر في الطريقة التي غمره بها الفراغ عندما صعد السلّم بعد رحيل ليَا.

في الواقع تمنّيت حقًّا رؤية المكان الذي تقيم فيه، قلت له عندما فتح نافذة سيّارته. «ليس منزلاً شبيهًا بمنزلك قال، ولكنّك تعرف هذا جيّدًا».

على الرغم من كلّ شيء أفزعني فقر الحجرات. هو لا يملك المال الكافي ليعيد طلاءها. وعلى ورق الجدران ظهرت آثار لوحات قديمة. وفي المطبخ، تطلّ الأنابيب من الجدران وتصل إلى كلّ مكان، الطلاء زالت قشرته، والفرن قديم، وحدَها المقاعد والسجّادات شبيهةٌ بمنزل عالمٍ ثريّ، بالإضافة إلى رفوف الكتب. بحثت وعثرت على الكتب التي تتحدّث عن لويس باستور وماري كوري. لاحظ نظرتي وابتسم ابتسامة رقيقة، كتب متخصّصة تصل إلى السقف، رفٌّ مليء بالاسطوانات، اسطوانات كثيرة لباخ بعزف إتزاك بارلمان. «لقد كان مرجعًا بالنسبة إلى ليَا»، قال. اسطوانة كريمونا بنغمات الكمان المختلفة، ميلز دافيس. وفي أحد الأركان علبة كمان. «لم يتذكّره أحد. بإمكاني أن أعيد بيعه إلى العوّاد في سانت-غال. غير أنّه لن يتبقّى لي بذلك شيء منها».

كان يقف كالمشلول في شقّته، عاجزًا حتّى عن الجلوس. عندما رأى ليَا صامتة، واقفة عند نافذة غرفتها في سانت-ريمي وهي تتطلّع

بعيدًا إلى الريف، فكَّر أنّها تشعر بغربة تامَّة في هذا الكوكب. هذا ما فكّرت فيه أيضًا وأنا أراه واقفًا بالطريقة نفسها.

وضعتُ اسطوانة لميلز دافيس فأطفأ النور. وعندما انطفأت آخر نوتة، وقفتُ في العتمة وأمسكته من كتفه وخرجت دون أن أقول كلمة واحدة. لم أشعر قطّ أنّني قريب من شخصٍ مثل شعوري هذا اليوم.

الفصل الثالث والثلاثون

بعد مرور يومين اتصل بي. سرنا على طول نهر الآر، ونحن نفكّر في صمت في شاطئ سانت-ماري-دي-لامير وفي ضفّة بحيرة ليمان. طرح عليّ أسئلة حول مهنتي، حول عمل ليسلي في أفينيون. وأخيرًا سألني متردّدا كيف ستكون الحياة بالنسبة إليّ من الآن فصاعدًا.

كنت سأبتهج لهذه الأسئلة لو أنّها لم تتباعد إلى هذا الحدّ، *مستقلّة*، كما تقول ليليان. هكذا كانت قبضة يده أيضًا عندما استأذن بالانصراف، بالإضافة إلى إشارة رأسه الغائبة وأنا أحدّثه عن فسحة أخرى. هل انتهت رحلته في الحياة؟ أم أنّ ما سنعرفه لاحقًا ليس إلاّ الظلّ الذي يعكسه على حدث ماضٍ؟

في الباص الذي أقلّني إلى منزلي أخذت أتمثّل حقول الأرز في كامارغ والغيوم الشاردة. ليتنا بقينا هناك، قلت في نفسي، مستسلمين للشتات، ظلّين بعكس الضوء! طبعت الصور، وأسندت على اللمبة تلك التي يظهر فيها مارتن وهو يشرب.

في اليوم الموالي تساقط الثلج. فكّرتُ في رحلاته إلى أوبرلاند. شعرتُ بالخوف ولم أتوقّف عن الاتصال به لكن دون جدوى. في صباح اليوم التالي قرأت في الجريدة: سيّارة بيجو حمراء تحمل لوحة

معدنيّة مسجّلة ببيرن انزلقت في منطقة سيلاند في الجهة المعاكسة واصطدمت بالواجهة الأماميّة لشاحنة. وتوفّي السائق على الفور. «كانت الطريق ضيّقة، لا شكّ أنّه كبح الفرامل ليفسح لي المجال وإذّاك انزلق. بدا هادئًا على نحو غريب خلف المقود، كما لو أنّه شُلَّ من الرعب»، هذا ما صرَّح به سائق الشاحنة.

لم تغادر يداه مخيّلتي يومًا كاملاً، وهما تداعبان رأس الحصان في ارتعاش، وهما تحومان فوق المقود، وهما مستريحتان على غطاء السرير.

أنا الوحيد الذي وقف أمام قبره برفقة أنييتا. «مارتن لا يرتكب خطأً في القيادة»، قالت.

حمل صوتُها نبرةَ فخر، نبرة تحدٍّ، تتجاوز كثيرًا قيادة سيّارة. «كان يحبّ الثلج، قالت، الثلج والبحر، ويفضّل الاثنين معًا».

الفصل الرابع والثلاثون

من المقبرة اتجهتُ إلى المنزل الذي تسكن فيه ماري. اختفت اللوحة النحاسيّة، لم يبقَ إلاّ أثرها على البوّابة الحديديّة. تبعت بنظري الطريق التي سلكتها ليَا في ما مضى على وجه الخطإ خلال زيارتها الأخيرة، الطريق التي أصبحت في ذهن والدها خطًّا مستقيمًا لا متناهيًا تلاشى بعيدًا.

كان الرأس المعدنيّ لدرابزين السلّم في ستوكهولم قد ضرب فان فلييت بالعنف ذاته لعدسةٍ تقريبيّة تتقدّم بسرعة جنونيّة. بدأت الصورة تلاحقني، ذهبت إلى السينما كي أتخلّص منها. فالمشاهد تساعدني على ذلك، لكنّني لم أرغب في رؤيتها. فخرجتُ مسرعًا.

بعد ذلك رغبت في قيادة السيّارة، في تحسّس دوران العجلات، لأنّ هذا يجعل الأشياء أكثر سهولة. ركبت الباص وعبرت المدينة طولاً وعرضًا، من محطّة أخيرة إلى أخرى، ثمّ فعلت الشيء نفسه مع الخطّ الموالي. تذكّرت *تالة ولويزا* وأيدي هاتين المرأتين اللّتين أحبّهما فان فلييت لرقّتهما الجريئة. عندما خلا الباص من الركّاب أغمضت عينيّ وتخيّلتني أمام المقود، سائرًا باتجاه هامرفاست وصولاً إلى باليرمو بحثًا عن هذه الصور المتحرّرة كليًّا... ومع كلّ باص أركبه

يتضاءل يقيني في الذهاب للقاء الصور. كنت أشعر أكثر فأكثر بأنّني أقود الباص باتجاه حافّة الأخدود.

وبينما أنا في منزلي أنتظر النوم بلا جدوى، شعرت بأنّني لم أعد قادرًا، ببساطة، على مواصلة السير في الطريق التي سلكتها سابقًا. ثمّة مآسٍ على درجة من الشدّة حتّى إنّنا لنعجز عن تحمّلها دون الاستنجاد بالكلمات. هكذا بدأت، عند انبلاج الصبح، في كتابة ما عشته منذ ذلك الصباح المشرق والعاصف في بروفانس.

باسكال مرسييه

ليا

وقد تبلغ بعض النفوس من الهشاشة حدًّا تتحطّم فيه بأكثر الأسلحة نعومةً؛ كأن تكون آلةً موسيقيّةً، مثلاً!

تكبر «ليا» في خضمّ الألحان شيئًا فشيئًا، فيزهد والدها في كلّ شيء حتّى تستوي الحياة عنده «ليا». ويغامر ويقامر ويضحّي بكلّ شيء لتوفير ما تحتاجه في بناء عالمها، لكنّه يفقد في نهاية الأمر ذاك الأمل الذي يشدّه إلى الحياة فتصبح «ليا» شرخًا مفتوحًا في ذاكرته.

هذه الرواية مرثيّةٌ بغنائيّة عالية وشجن مُترَعٍ بحزن لا تلغيه المسافة. لكنّ الرثاء فيها ليس من جنس البكاء، بل هو لحن تردّد على امتداد فصولها في ضرب من العزف على أوتار الذّات العميقة.

«ليا» طريق في عالم أفكار معقّد يشقّه شبحٌ حيٌّ يسكن حيًّا ميتًا، ويملأ كيانه حدّ التصدّع، وحين لم يجد في شدّته عزمًا طلب النهاية. فليس أقسى على الذات من تضحيتها بكلّ شيء ثمّ لا يكون لها من ذلك إلاّ اللاشيء!

رضا الحسني

ISBN: 978-9938-24-028-3
9 789938 240283